دكتور أحمد على المجدوب

المعالجة القرآنية للجريمة






المعالجة القرآنية للجريمة

الناشر : **الدار المصرية اللبنانية**

١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة

تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو

ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة

رقم الإيداع: ٢٥٦٧ / ١٩٩٨

الترقيم الدولى: 6 - 405 - 270 - 977

تجهيزات فنية : **ار ـ تك**

العنوان: ٤ ش بنى كعب ـ متفرع من السودان

تليفون: ٣١٤٣٦٣٢

طبع: **آمون**

العنوان: ٤ فيروز – متفرع من إسماعيل أباظة

تليفون: ٣٥٤٤٣٥٦ – ٣٥٤٤٥١٧

الطبعة الأولى : ذو القعدة ١٤١٨ هـ ـ مارس ١٩٩٨م

المعالجة القرآنية للجريمة

دكتور أحمد المجدوب

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كثيرة هى الكتب التى تناولت الجريمة فى القرآن الكريم، ولكنها اقتصرت فى دراستها لها على الجانب التشريعى، بمعنى التجريم والعقاب، فضلا عن بيان الأسباب التى من أجلها جرم الفعل أو الترك، والأسباب التى من أجلها تقررت العقوبة نوعا وكما، مثال ذلك جرائم الزنا والقذف والسرقة وغيرها من جرائم الحدود. أما الدراسات التى تناولت الجريمة من حيث دوافعها أو بواعثها والعوامل المختلفة التى أدت إلى وقوعها، والملابسات التى سبقتها أو عاصرتها مثل التخطيط لها والإعداد لارتكابها، ومرحلة التنفيذ وكيفيته، وما أعقبه من آثار، فضلا عن السمات الشخصية لمرتكبيها، فإنها قليلة جدا تتناثر فى بعض كتب التفسير - وبخاصة المتأخر منها - مثل تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ،وتفسير «فى ظلال القرآن» للأستاذ سيد قطب، وتفاسير قليلة أخرى. غير أنه يلاحظ أنها لم تتناول كل ما تقدم من موضوعات، وإنما اقتصرت على بعضها دون البعض الآخر، فالمفسر الذى تناول دوافع الجريمة أو بواعثها نجد أنه قد ترك العوامل التى تفاعلت فأدت إلى ارتكابها، مثل العوامل الاقتصادية والاجتماعية والشخصية وغيرها. والمفسر الذى اهتم بمرحلة التخطيط للجريمة والإعداد لارتكابها، نجد أنه لم يهتم ببيان سمات شخصية الجانى أو المجنى عليه... وهكذا.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه بالنظر إلى أن أغلب الجرائم التى وردت بالقرآن الكريم كانت فى شكل قصص، وإن اختلفت فى الحجم، إلا أنها جميعا قصيرة تتراوح بين ست أو سبع آيات وثلاث وسبعين آية، كما فى قصة لوط وقومه، فإن الغالبية العظمى من المفسرين، وبخاصة القدامى منهم اضطروا إلى الاستعانة بمصادر أخرى عند تفسيرهم لهذا القصص، فاستعانوا بما ورد فى

التوراة بخاصة وفى الإسرائيليات بعامة دون أن يمحصوه فى كثير من الأحيان، أو يخضعوه للنقد العلمى، الأمر الذى أوقعهم فى كثير من الأخطاء، وأصاب القراء بالحيرة ؛ لا يدرون ماذا يأخذون وماذا يتركون. وسنجد فى هذا الكتاب بعض الأمثلة التى تثبت ذلك كما تثبت أيضا أن كثيرا من المفسرين لجأوا إلى النقل عن مفسرين آخرين دون أن يكلفوا أنفسهم عناء النظر فيما نقلوه، مما جعلهم يكررون نفس الأخطاء التى وقع فيها المفسرون الذين نقلوا عنهم، وبالتالى جعلوا من يقرأ كتبهم يستبعد أن يكون هناك أية أخطاء، وإلا ما وقع فيها كل هذا العدد من المفسرين الذين لابد وأنهم قد تأكدوا من أن ما نقلوه عن زملائهم صحيح تماما، وإلا لكانوا استبعدوه بعد أن يبينوا خطأه كما فعل بعض المفسرين: مثل ابن كثير فى القدماء، ومحمد رشيد رضا فى المحدثين.

وفيما يتعلق بالجرائم التى عالجها القرآن الكريم سيلاحظ القارىء ـ للوهلة الأولى ـ أن كل جريمة منها تمثل نمطا مختلفا من أنماط الجريمة. فمن حيث المساهمة فى الجريمة نجد مثالا للجريمة التى يرتكبها فاعل واحد (قتل ابن آدم لأخيه) ومثالا آخر للجريمة التى يساهم فيها عدد من الأشخاص، بعضهم قام بدور الفاعل والبعض الآخر قام بدور الشريك (الشروع فى قتل يوسف عليه السلام) أما المثال الثالث فخاص بالجريمة التى يرتكبها عدد كبير من الأشخاص، ليس بينهم من قام بدور الشريك، بل كانوا جميعا فاعلين. وفى كل مثال يبين لنا القرآن ما يقوم من اختلافات بن النمطين.

كذلك فيما يتعلق بالباعث على ارتكاب الجريمة، وهو الذى يختلف من جريمة إلى أخرى. ففى جريمة قتل ابن آدم لأخيه كان الباعث على الجريمة الحسد وكذلك شروع أبناء يعقوب فى قتل أخيهم يوسف، وذلك بخلاف جريمة امرأة العزيز التى كان الباعث عليها الشهوة الجنسية العارمة التى سيطرت على هذه المرأة. أما جريمة قوم لوط ـ وهى إتيانهم الفاحشة ـ فإن الباعث عليها تمثل فى فساد الفطرة الناشىء عن تقليد العامة للخاصة فى ممارستهم للجنس الذى يكون

طرفاه من نفس النوع: ذكرين (لواط)، أنثيين (سحاق) إلى أن أصبح ذلك عادة تمكنت منهم، وانتقلت من السلف إلى الخلف، ومن النساء إلى الرجال.

وفيما يتعلق بالعوامل التى تتفاعل فتؤدى إلى وقوع الجريمة سنلاحظ أن القرآن الكريم قدم لنا أمثلة من الجرائم تختلف فيما بينها بحسب نوع العوامل التى ساهمت فى وقوعها. ففى جريمة قتل ابن آدم لأخيه كان العامل شخصيا خالصا، يتمثل فيما كان يعيب شخصية الأخ القاتل من طمع وحسد وفساد فى التفكير وتسرع فى اتخاذ القرار دون إعمال نظر، أما فى جريمة إخوة يوسف فإن عامل التنشئة الاجتماعية يبدو دوره واضحا حيث كان الإخوة غير أشقاء من ناحية الأمهات اللاتى كان عددهن أربعًا نشأن أبناءهن على كراهية بعضهم لبعض وخوفهم بعضهم من بعض!. وقد تفاعل العامل الاقتصادى مع العامل الاجتماعى، ثم انضم إليهما العامل الشخصى فكانت الجريمة. وفى جريمة امرأة العزيز نجد تفاعلا واضحا بين العوامل الشخصية والاقتصادية والاجتماعية، انعكس لا على سلوك المرأة وحسب، بل وعلى سلوك زوجها ونساء المدينة والملك نفسه. إلى غير ذلك من الاختلافات التى تقوم بين الجرائم سواء من حيث الملابسات التى سبقت أو عاصرت الجريمة، أو من حيث النتائج التى ترتبت عليها.

ومن بين الجرائم الأربع التى يشتمل عليها هذا الكتاب جريمتان وقعتا فى الأسرة، إحداهما جريمة قتل ابن آدم لأخيه، والثانية جريمة شروع إخوة يوسف فى قتله، مما يدل على اهتمام القرآن بالأسرة ولفته الأنظار إلى مايسودها من ظروف، وما يقوم فيها من علاقات كثيرا ما تؤدى إلى الجريمة. فإذا أضفنا إلى هاتين الجريمتين جريمة امرأة العزيز التى وقعت هى الأخرى داخل الأسرة فسيتبين لنا الدرجة التى بلغها اهتمام الإسلام بالأسرة.

كذلك سنلاحظ أن الإسلام لايمنع البحث فى الجريمة للتعرف على أسبابها ودوافعها من أجل العمل على الوقاية منها، وأن القرآن الكريم عالج جريمتين

جنسيتين كبيرتين، إحداهما جريمة امرأة العزيز، والثانية جريمة قوم لوط، ومع ذلك فإنه خلا تماما من أى إثارة للمشاعر، وهى التى تقترن دائما بالموضوعات الجنسية، فكأنه يعلمنا كيف نتعامل مع هذه الموضوعات دون أن نثير الغرائز، أو ندغدغ الحواس مما يؤدى إلى إقدام الناس ـ وبخاصة الشباب ـ على ارتكاب الجرائم الجنسية، وهو ما نلاحظه على ما تنشره الصحف هذه الأيام، من موضوعات جنسية بطريقة فجة تثير الغرائز، وتلهب الحواس، ثم تدعى أنها إنما تقصد العلاج والوقاية!

وفضلا عما تقدم فإن القارىء سيجد فى هذا الكتاب موضوعات مختلفة، وإن بدت بعيدة عن الجريمة والمعالجة القرآنية لها، إلا أنها فى الواقع لا تخلو من الفائدة، مثال ذلك الخطأ فى تسمية الشذوذ الجنسى باللواط؛ لأنه ينسب هذا النشاط الإجرامى إلى لوط، فى حين أن الذين كانوا يمارسونه هم قومه سكان سدوم. وكذلك ما إذا كان لوط قد بعثه الله تعالى إلى أهل سدوم منذ البداية ليدعوهم إلى الكف عن إتيان الفاحشة أم أن ذلك حدث بعد أن قضى بين ظهرانيهم بعض الوقت. وكم كانت المدة التى قضاها، إلى غير ذلك من الموضوعات التى نرجو أن نكون قد وفيناها ما تستحقه من البحث والدراسة؛ سائلين المولى ـ عز وجل ـ أن يجعل فيها فائدة للمسلمين.

وبالله التوفيق

الفصل الأول

ابن آدم يقتل أخاه

تمهيد

لم يكن مصادفة أن تقع أول جريمة ـ بعد خروج آدم من الجنة واستقراره فى الأرض ـ بين اثنين من أبنائه ، وأن تكون جريمة قتل بالذات وليس أى جريمة أخرى كالسرقة أو الضرب أو الجرح أو الاغتصاب أو الزنى؛ ذلك لأن الحياة الإنسانية بدأت على هذه الأرض بآدم وحواء اللذين أنجبا أبناء وبنات فكوّنا بذلك أول وحدة اجتماعية يرتبط أفرادها برابطة الدم، وهى التى أصبحت تسمى أسرة، وبما أنها كانت الأسرة الوحيدة على هذه الأرض فإن علاقات أفرادها كانت محدودة بهم، محصورة فيهم، يتعاملون معا، ويأكلون معا، ويعملون معا، وينامون فى نفس المكان، فإذا كان لابد من أن تقع جريمة فإنها ـ حتما ـ ستكون من أحدهم على آخر من بينهم ؛ لعدم وجود من يمكن أن نطلق عليهم وصف الغرباء الذين يحتمل أن يؤدى تعارض المصالح معهم إلى وقوع جريمة ما كالقتل أو الضرب والجرح أو الإتلاف. وقد يتساءل البعض فى تعجب يخالطه الأسى: لماذا تقع الجريمة أصلا بين الإخوة وهم أعضاء فى أسرة واحدة، يرتبطون برابطة الدم بحكم مولدهم لنفس الأبوين ونشأتهم فى كنفهما، مما يفترض معه أن يكونوا قد تعلموا نفس الأشياء، وتعودوا على ذات العادات، وتخلقوا بنفس الأخلاق، فأصبحت لهم نفس النظرة إلى الأمور، ونفس طريقة التفكير، وربما السلوك والمواقف فضلا عن وحدة المصالح، وربما الأهداف أيضا؟! فمن أين يأتى التعارض أو التناقض، أو الخلاف الذى يمكن أن يؤدى إلى وقوع جريمة من أحد أعضاء الأسرة على عضو آخر؟!.

وهذا التساؤل المشوب بالخوف ـ وربما الأسى أيضا ـ الذى ما فتىء الناس

يرددونه فى كل العصور، عاد إلى الظهور فى العقود الثلاثة الأخيرة، بأقوى مما كان فى أى عصر مضى، بعد أن وقعت جرائم قتل بشعة داخل بعض الأسر، قام فيها الأخ بقتل أخيه والابن بقتل أبيه أو أمه أو أخته، هذا غير الجرائم التى قتلت فيها الأم ابنها أو ابنتها، وكذلك الأب الذى قتل ابنه أو ابنته أو قتل زوجته أو قتلته زوجته، مما جعل نسبة جرائم القتل التى تقع داخل الأسرة فى مصر تصل إلى ٦٠٪ من العدد الإجمالى لهذا النوع من الجريمة!

وتختلف أسباب الخوف والأسى بحسب المستوى العلمى لمن يصدر عنهم هذا التساؤل، فالناس العاديون يرجع السبب فى خوفهم - من تفاقم الظاهرة - إلى أنهم بحكم كونهم أعضاء فى أسر كانوا يعتقدون بأنها المؤسسة الاجتماعية الأولى التى تكفل لهم الطمأنينة وتوفر لهم الأمن، يلوذون بها عندما تحدق بهم الأخطار، ويستعينون بها على درء الأضرار. ولكن هذا الاعتقاد هزته الجرائم البشعة التى وقعت داخل بعض الأسر، وجعلته هدفا لشك حقيقى انعكس - فى كثير من الأحيان - لا على شعور وإحساس أفراد الأسرة نحو بعضهم البعض، بل وعلى مواقفهم من بعضهم، وسلوكهم مع بعضهم. وهكذا حل الخوف محل الثقة، والشك والقلق محل الطمأنينة والأمن، وأصبحت مهمة المدافعين عن الأسرة - الذين يعتقدون أنها لا تزال بخير - صعبة للغاية ، أما الأمثلة الحقيقية التى يسوقها الخائفون والمتشائمون، وهى الأمثلة التى يضاف إليها كل يوم الجديد والأكثر إثارة وبشاعة، فالخوف عند هذا الفريق يعبر عن موقف شخصى أو حالة فردية!

أما الفريق الثانى، ويتكون من العلماء والمتخصصين والمهتمين بظاهرة الجريمة بصفة عامة، وبهذه الظاهرة بصفة خاصة، فإن خوفهم - فى الغالب - ليس على الأسرة التى تعتبر اللبنة الأولى فى المجتمع، وإنما خوفهم على المجتمع ذاته بالنظر إلى ما تحدثه الظاهرة من آثار خطيرة من شأنها أن تصيبه بأفدح الأضرار؛ لذلك فإن هذا الفريق ينظر إلى ظاهرة العنف فى الأسرة فى سياقها الاجتماعى،

وفى علاقتها بغيرها من الظواهر الاجتماعية، وتفاعلها مع عوامل مختلفة: اقتصادية وسياسية وثقافية.

ومع ذلك، فإن هذا الفريق ـ شأنه شأن الفريق الأول ـ غاب عنه ـ وهو يتصدى لدراسة هذه الظاهرة ـ إدراك المغزى الحقيقى لوقوع أول جريمة قتل من أخ على أخيه، كما فاته إدراك الحكمة التى من أجلها ساق الله تعالى قصة هذه الجريمة فى كل من التوراة والقرآن، ومن ثم ظل الفريقان أسيرين لاعتقاد غير صحيح بأن علاقة الدم التى تربط بين الإخوة كافية بذاتها لمنع وقوع اعتداءات من بعضهم على بعض، ونسوا جميعا ـ فى غمرة الدهشة التى اعترتهم وتعتريهم عقب وقوع جرائم من أحد أفراد الأسرة على فرد آخر منها ـ أن الأسرة فى كثير من الأحوال تكون البيئة المناسبة جدا لوقوع كثير من الجرائم التى يرتكبها أعضاؤها ضد بعضهم البعض. ولم يكن من قبيل الصدفة أن ما يزيد على نصف الجرائم وأفعال العنف التى وردت بالقرآن الكريم كانت بين أعضاء فى أسرة واحدة، ففضلا عن جريمة قتل أحد ابنى آدم لأخيه توجد جريمة شروع أبناء يعقوب ـ عليه السلام ـ فى قتل أخيهم يوسف، وهى التى سنتناولها بالدراسة فى الفصل الثانى من هذا الكتاب، وهناك أيضا أفعال عنف صدرت من أخ ضد أخيه كتعنيف موسى ـ عليه السلام ـ لأخيه هارون وجذبه له من لحيته، وتهديد آزر لابنه إبراهيم ـ عليه السلام ـ برجمه. وعصيان أحد أبناء نوح له، بالإضافة إلى ما صدر عن بعض الزوجات ضد أزواجهن من أفعال انطوت على إيذاء، مثل زوجة نوح وزوجة لوط ـ عليهما السلام.

والحكمة من ذكر هذه الأمور فى القرآن الكريم هى تنبيه الناس إلى عدم الركون إلى علاقة الدم وصلة القرابة فى تعاملهم مع أبنائهم وإخوتهم وزوجاتهم، فهى وحدها لا تكفى لضمان الأمن وتوفير الطمأنينة داخل الأسرة وإنما تحتاج إلى جهود مختلفة ـ معنوية ومادية ـ من أجل أن تكون علاقة طيبة نافعة تعود بالخير على جميع الأطراف.

وهناك تحذير للأزواج والآباء ورد فى القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

وقائع الجريمة:

وردت قصة هذه الجريمة فى القرآن الكريم فى سورة المائدة حيث قال تعالى:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾[2]

وكما نلاحظ، فإن القرآن لم يحدد متى وقعت هذه الجريمة ولا مكانها ولا اسْمَيِ الأخوين اللذين قتل أحدهما الآخر، وذلك على خلاف التوراة[3] التى وردت فيها القصة وبها بعض التفاصيل على النحو التالى: (وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين. وقالت: اقتنيت رجلا من عند الرب. ثم عادت فولدت أخاه هابيل. وكان هابيل راعيا للغنم، وكان قايين عاملا فى الأرض. وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من أثمار الأرض قربانا للرب، وقدم هابيل أيضا من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب إلى هابيل وقربانه. ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر؛ فاغتاظ قايين جدا وسقط وجهه. فقال الرب لقايين: لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك؟ إن أحسنت فلأرفع وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة، وإليك اشتياقها، وأنت تسود عليها.

(١) سورة التغابن، الآية: ١٤

(٢) سورة المائدة: الآيات من ٢٧ إلى ٣١

(٣) سفر التكوين، الإصحاح الرابع

وكلم قايين هابيل أخاه. وحدث إذ كانا فى الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله. فقال الرب لقايين: أين هابيل أخوك؟ فقال: لا أعلم، أحارس أنا لأخى؟ فقال: ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إلىَّ من الأرض، فالآن ملعون أنت من الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الأرض لاتعود تعطيك قوتها. تائها وهاربا تكون فى الأرض. فقال قايين للرب: دينى أعظم من أن يحتمل. إنك طردتنى اليوم عن وجه الأرض، ومن وجهك أختفى وأكون تائها وهاربا فى الأرض، فيكون كل من وجدنى يقتلنى. فقال له الرب: لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه. وجعل الرب لقايين علامة لكى لايقتله كل من وجده. فخرج قايين من لدن الرب وسكن فى أرض نود شرقى عدن).

ونلاحظ أن القصة كما وردت فى التوراة لم تضف شيئا هاما إلى ما ورد بالقصة القرآنية، فالأسماء ونوع العمل الذى كان يقوم به الأخوان ونوع القربان الذى قدمه كل منهما، والحوار المزعوم بين قايين والرب لاتضيف شيئا ذا بال إلى جوهر القصة، ولا إلى الحكمة التى من أجلها وردت فى القرآن، وهى التنبيه إلى باعث هام من بواعث الجريمة التى تقع بين الإخوة وهو الحسد الذى يبدو واضحا فى الحوار الذى دار بين الأخوين فى القرآن، بخلاف ما جاء فى التوراة من أن قايين كلم أخاه (وكلم قايين أخاه) دون أن يبين لنا ما قاله له وبماذا رد عليه، مما قد يوحى للقارىء أنهما اختلفا فتشاجرا أو تبادلا السباب والشتائم أو الإهانات مما أوغر صدر قايين على هابيل، فأضمر فى نفسه أن يقتل هابيل، فانتهز فرصة وجوده فى الحقل فقتله (وحدث إذ كانا فى الحقل أن قايين قام على أخيه هابيل وقتله).

أما القرآن الكريم فإنه يركز الأضواء على المشهد الذى جمع بين الأخوين، وعلى الحوار الذى تبادلاه بدلا من أن يوجه اهتمام القارىء والمستمع إلى الحدث فى نشأته وتطوره ابتداء من تقديم الأخوين للقربان إلى أن قتل أحدهما الآخر.

ونمضى مع تفاصيل الواقعة وملابساتها فنجد أن الجريمة وقعت من أخ على

أخيه، وعلى الرغم من أن القرآن الكريم لم يذكر اسميهما وذلك على خلاف التوراة التى جاء فيها أن أحدهما ـ وهو القاتل ـ كان اسمه قايين، وأن الآخر ـ وهو المقتول ـ كان اسمه هابيل، فإن المفسرين أبوا إلا أن يسمياهما، فقالوا: إن القاتل كان اسمه قابيل وهو بكر آدم، أما الثانى فهابيل. والاختلاف بينهم وبين التوراة بسيط كما نرى مما يمكن أن نعده دليلا على تأثرهم بالإسرائيليات خاصة.[1] وإنه لم يرد فى السنة عن رسول الله ﷺ شىء فى هذا الصدد، والحديث الوحيد الصحيح الوارد عن هذا الموضوع لم يرد فيه ذكر لاسم ابن آدم الذى قتل أخاه، ففى رواية لابن مسعود[2] قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه كان أول من سن القتل**».

وكما أجمع جمهور المفسرين وعلماء التاريخ على اسمى هذين الأخوين (قابيل وهابيل) فقد أجمعوا أيضا على أنهما كانا ابنين لآدم من صلبه، ولم يخالفهم سوى الحسن الذى قال إنهما من بنى إسرائيل، وإنما وصفهما القرآن الكريم بأنهما ابنا آدم أخذا بالأصل، وهو أن كل البشر هم بنو آدم، ولكن الصحيح هو ما ذهب إليه الجمهور، وهو أن الأخوين كانا ابنين لآدم ـ عليه السلام ـ فلماذا قتل أحدهما الآخر؟! السبب الظاهر للقتل ـ كما ورد فى القرآن ـ هو أنهما قدما قربانا[3] فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر. أى أن الله تعالى تقبل من أحدهما قربانه أو تقريبه القربان؛ لتقواه وإخلاصه فيه وطيب نفسه به،

---

(١) المسعودى: مروج الذهب، المجلد الأول، صفحة ٣٥

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده. وأخرجه الجماعة ـ سوى أبى داود ـ من طرق عن الأعمش.

(٣) القربان: ما يتقرب به إلى الله تعالى من الذبائح وغيرها، وكانت القرابين عند اليهود أنواعا، منها المحرقات، وهى للتكفير عن الخطايا، وتكون من ذكور البقر والغنم الخالية من العيوب. والذبائح عن الخطايا، سواء كانت عامة أو خاصة. ومنها أيضا ذبائح السلامة، وتكون لشكر الله تعالى، ومنها كذلك ما يسمى بالتقدمات، وتتكون من الدقيق والزيت واللبان، وأخيرا تقدمة الترديد، وتكون من باكورة إنتاج الأرض.

وأما القربان عند النصارى فيطلق على الخبز والخمر اللذين يقدمهما الكاهن إلى المصلين فى الكنيسة لكى يتحول ـ فى اعتقادهم ـ إلى لحم المسيح ودمه حقيقة لامجازا. وعند المسلمين يتمثل القربان فى ذبائح النسك كالأضاحى.

ولم يتقبل من الآخر لعدم التقوى والإخلاص. وأثاب صاحبه عليه[1]. ولم يبين لنا الله تعالى الطريقة التى تم بها تقبل القربان، ولا كيف علم الأخوان أنه تقبل من أحدهما دون الآخر. وللمفسرين من السلف أقوال كثيرة فى هذا الموضوع، فمن قائل: إن نارا كانت تنزل من السماء تأخذ القربان وترتفع به، ومن قائل: إن تلك النار كانت بيضاء وإنها كانت تلتهم القربان[2]. أما رشيد رضا فيرى أنه يحتمل أن يكون الله تعالى قد أوحى لأبيهما آدم بما حدث من تقبل أحد القربانين ورفض الآخر. فهو يشكك فى صحة ما قاله السلف بشأن النار التى كانت تنزل من السماء لترفع القربان أو لتلتهمه قائلا: وهذه أخبار إسرائيلية اختلفت الروايات فيها عن مفسرى السلف، بعضها يوافق ما عند اليهود فى سفر التكوين وبعضها يخالفه. وليس فيها شىء مرفوع إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - يعول عليه[3].

وليس من شك فى عدم أهمية الطريقة التى جرى بها تقبل قربان أحد الأخوين وعدم تقبل قربان الآخر، والمهم هو أنهما علما بذلك، وهوما كان له التأثير العميق والخطير فى نفس الأخ الذى رفض قربانه.

كذلك لم يبين القرآن الكريم السبب الذى من أجله قدم الأخوان قربانيهما، ولكن المفسرين - كعادتهم - أبوا إلا أن يبحثوا عن هذا السبب، فمنهم من قال إن تقديم القربانين كان الغرض منه حسم الخلاف الذى نشب بين الأخوين بشأن زواج كل منهما بأخت الآخر. يقول ابن كثير[4]: إنه ورد عن غير واحد من السلف والخلف أن الله تعالى كان قد شرع لآدم - عليه السلام - أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال، وأنه كان يولد له فى كل بطن ذكر وأنثى، فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر. وكانت أخت هابيل دميمة، وأخت قابيل وضيئة، فأراد أن يستأثر بها على أخيه، فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قربانا، فمن

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، الجزء السادس، صفحة ٢٨٣

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، المجلد الثالث، صفحة ٧٨

(٣) رشيد رضا، المرجع السابق، صفحة ٢٨٣

(٤) المرجع السابق، صفحة ٧٦

تقبل منه فهى له، فقربا، فتقبل من هابيل ولم يتقبل من قابيل، فكان من أمرهما ما كان. وهناك رواية أخرى تقول: إن هابيل كان سيتزوج إحدى الحور العين، بينما يتزوج قابيل امرأة من الجن، فلم يقبل، واتفق على تقديم القربان[1].

وفى رواية للسدى، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ : «أنه كان لا يولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، حتى ولد له ابنان يقال لهما قابيل وهابيل، وكان قابيل صاحب زرع، وكان هابيل صاحب ضرع، وكان قابيل أكبرهما، وكان له أخت أحسن من أخت هابيل، وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل، فأبى عليه وقال: هى أختى، ولدت معى، وهى أحسن من أختك، وأنا أحق أن أتزوج بها، فأمره أبوه أن يزوجها هابيل، فأبى. وأنهما قربا قربانا إلى الله ـ عز وجل ـ أيهما أحق بالجارية. . . فلما قربا: قرب هابيل جذعة (من الضأن التى لم تتم سنة من عمرها) سمينة، وقرب قابيل حزمة سنبل، فوجد فيها سنبلة عظيمة، ففركها وأكلها. فنزلت النار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختى.[2] وقيل إن مما فضل قابيل به نفسه على أخيه أنه ـ أى قابيل ـ ولد هو وأخته فى الجنة قبل أن يخرج آدم منها ومعه حواء، بينما ولد هابيل فى الدنيا ومعه أخته التى رفض قابيل أن يتزوجها[3].

وهذا الكلام يناقضه ما ورد بالقرآن الكريم حيث جاء فيه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾[4].

والسوأة : هى عورة الإنسان، أى: جهازه التناسلى. ولرشيد رضا رأى ـ فى تفسير هذه الآية ـ نرجحه على آراء غيره من المفسرين، يقول فيه: «إن شهوة التناسل دبت فيهما بتأثير الأكل من الشجرة، فنبهتهما إلى ما كان خافيا عنهما

(١) الموسوعة الإسلامية الميسرة، المجلد الثانى، صفحة ١٢٢٩
(٢) تفسير الطبرى، المجلد ١٠ صفحة ٢٠٦، ٢٠٧
(٣) الموسوعة الإسلامية الميسرة، المرجع السابق، صفحة ١٢٢٩
(٤) سورة الأعراف، الآية : ٢٢

من أمرها فخجلا من ظهورها، وشعرا بالحاجة إلى سترها ـ أى عورتهما ـ وشَرَعَا يخصفان ـ أى يلزقان أو يضعان ويربطان على أبدانهما ـ من ورق أشجار الجنة العريض ما يسترهما. فالمواراة كانت معنوية، فإن كانت حسية فما ثم إلا الشعر ساتر خلقى، وقد تظهر الشهوة ما أخفاه الشعر، وإن لم يسقط بتأثير ذلك الأكل»[١] فكيف تكون حواء قد حملت بقابيل فى الجنة ولم تكن لا هى ولا آدم قد عرفا المعاشرة الجنسية؟!. ولكن هذا ما وجده بعض المفسرين فى الإسرائيليات فنقلوه دون أن يمعنوا النظر فيه، وتلقفه المستشرقون والمبشرون النصارى لكى يسيئوا به إلى الإسلام زاعمين أنه نقل عن الإسرائيليات دون أن يوضحوا من الذى نقل هل هم هذا النفر من المفسرين أم القرآن والسنة؟!

ولكن لابن عباس قول ذهب فيه إلى أنه لم يكن هناك خلاف بين ابنى آدم بشأن زواجهما من أختيهما، وأن ما كان من شأنهما أنه لم يكن يوجد أحد من المساكين ليتصدقوا عليه، وإنما كان القربان يقربه الرجل. فبينا ابنا آدم قاعدان إذ قالا: «لو قربنا قربانا ـ وكان الرجل إذا قرب قربانا فرضيه الله أرسل إليه نارا فتأكله، وإذا لم يكن رضيه الله خبت النار ـ فقربا قربانا، وكان أحدهما راعيا، وكان الآخر حراثا، وإن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمنها، وقرب الآخر بعض زرعه، فجاءت النار فنزلت بينهما، فأكلت الشاة وتركت الزرع، وإن ابن آدم قال لأخيه: أتمشى فى الناس وقد علموا أنك قربت قربانا فتقبل منك ورُدَّ علىَّ؟ فلا والله لاينظر الناس إليك وإلىَّ وأنت خير منى.. فقال: لأقتلنك.[٢] وعلى الرغم من قبول ابن كثير[٣] لهذا الرأى باعتبار ما ذهب إليه من أن تقريب القربان لم يكن عن سبب، سواء كان الزواجَ بامرأة أو غير ذلك، وبالتالى فإنه يتفق مع ظاهر القرآن الذى لم يورد سببا لتقديم القربان، فإن ما اشتمل عليه هذا الرأى من كلام نسب إلى قابيل ذكر فيه أناس أنه خشى أن يعلموا بما حدث

---

(١) تفسير المنار، الجزء الثامن، صفحة ٣١١

(٢) المرجع السابق، صفحة ٢٠٤

(٣) المرجع السابق، صفحة ٧٨

فيعتبروه أقل من أخيه، أو بالأحرى أن أخاه خير منه، من شأنه أن يثير التساؤل حول ما إذا كان قد وجد أناس غير آدم وأولاده على هذه الأرض، وهو التساؤل الذى سبق أن أثارته التوراة[1] بما ذكرته عن أبناء الله الذين رأوا بنات الناس وأعجبوا بحسنهن فتزوجوا منهن، مما يفهم منه أنه كان يعيش على هذه الأرض نوعان من الناس، لا ندرى إلى أيهما كان ينتمى آدم وأبناؤه؟!

كذلك فقد قيل إن قابيل ـ أو قايين ـ كان بكر آدم، أى أول أبنائه، وأن هابيل كان الثانى. ولو أن ترتيبهما كان متأخرا لقلنا إن ما عناه قابيل فى قوله (الناس) ربما يكون إخوته الذين ولدوا قبله وما قد يكونون أنجبوه من أولاد، ولكن الحقيقة غير ذلك. فمن يكون هؤلاء الناس الذين خشى قابيل أن يسخروا منه أو يحقروه؟! لاندرى!

وهكـذا نلاحظ أن الاجتهاد فــى التفسير عـلى هـذا الوجه وإضافة حكايات وروايات إلى التفسير يضر أكثر مما ينفع؛ لأنه يثير تساؤلات قد يتعذر الرد عليها. فلو أنه كان للسبب الذى قدم الأخوان قربانيهما من أجله أهمية بالنسبة للجريمة التى وقعت لذكره الله تعالى، كما سنرى فى جريمة إلقاء يوسف فى الجب، حيث قال إخوته إنهم إنما يفعلون ذلك حتى يستأثروا بحب أبيهم بعد أن يختفى يوسف. ولكن الله تعالى رأى ألا يبين سبب تقديمهما للقربان والاكتفاء بذكر الباعث على القتل؛ لأنه توجد عشرات الأسباب التى يمكن أن يكون القربان قد قدم من أجلها من بينها الزواج بهذه الأخت أو بتلك. فإذا أضفنا إلى ذلك أن التوراة ذاتها لم يرد بها شىء عن موضوع الزواج هذا لتبين لنا أنه من بنات أفكار أحبار اليهود الذين أقحموا الكثير منها على اليهودية مما يسمى بالإسرائيليات.

كذلك بالنسبة لنوع القربان الذى تقرب به كل منهما، وهل هو شاة سمينة أو عجفاء، أو كبش أعين أقرن أبيض أو أسود، أو بقرة كبيرة أو صغيرة، أو فاكهة أو خضراوات أو طعام، أو أسماك أو طير، فإن القرآن لم يبين ذلك لعدم أهميته بالنسبة للواقعة، ولو أنه كانت منه فائدة لذكره كما حدث فى مواقع أخرى

(١) سفر التكوين، الإصحاح رقم ٦

منه. ومع ذلك فقد أبى المفسرون والإخباريون إلا أن يذكروا روايات شتى منها: ما يقول إن القربان كان كبشا أَعْيَنَ - أى واضح العينين - أَقْرَنَ - أى كبير القرنين - وأن الله تعالى قبل هذا الكبش فخزنه فى الجنة أربعين خريفا، وهو الكبش الذى ذبحه إبراهيم عليه السلام![1].

ولا ندرى ما العلاقة بين الأمرين! وهل صحيح أن المدة من الوقت الذى قدم فيه ابنا آدم قربانيهما والوقت الذى عاش فيه إبراهيم - عليه السلام - وشرع فى ذبح ابنه إسماعيل هى أربعون سنة فقط؟! وأين الأجيال الكثيرة التى تتابعت من وقت آدم إلى وقت نوح الذى عاش حوالى ألف سنة وربما أكثر؟! ثم من وقت نوح إلى وقت إبراهيم عليهما السلام!

ويحق للمرء أن يتساءل: لماذا ركز المفسرون اهتمامهم على نوع القربان وهل كان جيدا طيبا أو رديئا ضئيلا؟! وكأن الله - سبحانه وتعالى - كآحاد الناس الذين تُهِمُّهُمْ مثل هذه الأمور المادية دون الأمور المعنوية كالنية، وما إذا كانت سليمة أو سقيمة، والقصد وهل كان خالصا لله أم لا؟! فقد يقدم الإنسان قربانا عظيما من أى نوع وبعدد وافر أو كميات كبيرة، ولكن نيته ليست سليمة وقصده ليس خالصا، فهل يتقبل منه أم لا يتقبل؟ طبعا لا يتقبل. كذلك الحال بالنسبة للأخوين ، وليس بشرط أن يكون قابيل قد قدم شيئا قليلا أو غير لائق، وكذلك بالنسبة لأخيه هابيل، ولو أن الأمر كان كما قال المفسرون لرد هابيل على قابيل قائلا له إنه قدم قربانا غير مناسب أو تافها أو ضئيلا، فكانت النتيجة أنه لم يتقبل منه، ولكنه قال له: إنما يتقبل الله من المتقين، أى أن الأمر منوط بالتقوى، وهى فى القلب، وليست فى الطعام أو الشراب أو المظهر أو غير ذلك. صحيح أنه قد يدل عليها، ولكن فى قضيتنا هذه تبين غير ذلك.

كذلك فإنه مما يسىء إلى الموقف أن يجرى الربط بين رغبة هابيل فى الزواج من أخته الجميلة التى هى توأم أخيه قابيل، وحرصه على تقديم أفضل ما عنده

---

(١) ابن كثير، المرجع السابق، صفحة ٧٧

وهو الكبش الأعين الأقرن السمين، فكأن ذلك رشوة يقدمها شخص بقصد الحصول على ما يبغى. وهذا غير صحيح كما سنرى.

فماذا كان رد فعل الأخ الذى لم يتقبل قربانه؟ غضب بشدة وصرخ فى أخيه: (لأقتلنك) أى أنه لم يكتف بأن يتوعده بالقتل بل أقسم ليقتلنه. وهو ما يدل على أنه فى غضبه بلغ الذروة دفعة واحدة، ولم يتدرج فيه كما يحدث عادة، حيث يتصاعد الغضب شيئا فشيئا إلى أن يصل إلى أقصاه، فيقسم الغاضب مؤكدا ما سيفعله بالمغضوب عليه، كأن يكون الأخ الذى تقبل قربانه قد استخف بالوعيد أو تحدى التهديد. ولكن ذلك لم يحدث، فكل ما رد به على أخيه ـ حتى بعد أن أقسم أن يقتله ـ هو قوله له: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1]

أى أن الله لا يقبل الصدقات وغيرها من الأعمال القبول الذى يقترن بالرضا والمصحوب بالإثابة إلا من المتصفين بالتقوى. وكما نرى: فإن هذه الإجابة تتضمن بيانا للسبب الذى من أجله لم يتقبل قربان الأخ الغاضب، فضلا عن اعتذار المغضوب عليه الذى كأنه قال: إننى لم أذنب إليك ذنبا تقتلنى به، فإن كان الله تعالى لم يتقبل منك فارجع إلى نفسك فحاسبها على السبب.

هنا تكمن المشكلة فيما يقوم من خلاف بين الناس ينتهى مثل هذه النهاية المأساوية الفاجعة، فالمخطىء والمقصر ومن تفترسه الغيرة ويتسلط عليه الحسد كلهم لا يحاولون أن يفكروا لماذا فشلوا، وأن يبحثوا عن الأسباب التى أدت إلى خسارتهم، وإنما يحملون غيرهم المسئولية عن هذه الخسارة وذلك الفشل. وتصور لهم عقولهم المريضة أن التخلص من الناجحين والرابحين هو الحل المناسب لمشكلتهم!

ولكن هذا الرد من هابيل على ما أقسم أخوه أن يفعله به ـ وهو أن يقتله ـ لم يأت بنتيجة، وما كان ليأتى بها مع قابيل ومن هم على شاكلته ممن تمكن منهم الحسد وتحكم فيهم الحقد، وإنما نتيجته تكون مع المتقين الخيرين، الذين يُحكِّمُونَ المنطق ويحترمون العقل. ويبدو أن هابيل كان يرد على أخيه وهو ينظر إليه يسبر

(١) سورة المائدة، من الآية: ٢٧.

غوره؛ ليرى أثر كلامه فيه، فإن بدا مقتنعا فبها، وإلا فإنه سيضطر إلى أن يرد عليه بالمزيد. فمن الناس من يكتفى بمثل الرد الذى صدر عن هابيل، ومنهم من يحتاج إلى ما هو أكثر، وهو ما لاحظه هابيل على أخيه، فقال له ردا على قسمه له بأن يقتله: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1]

ليس بعد ذلك وداعة ومسالمة وطمأنة للأخ الأحمق الغاضب؛ فهو يقول له: حتى لو أن يدك امتدت إلىّ لتقتلنى فلن أعاملك بالمثل فأمد يدى إليك لأقتلك، وذلك لسبب بسيط هو أنى أخاف الله رب العالمين. وهو كلام كفيل بجعل من يسمعه ـ وكان فى قمة غضبه وذروة حنقه ـ أن يتمهل ويعيد النظر فيما أقسم عليه، بل أن ترتعد فرائصه أمام ذكر الله العظيم، ثم يقبل على أخيه فيعانقه ويعتذر له عما بدر منه فى حقه. وأرجح أن هابيل إنما أراد بقوله هذا أن يحدث هذا التأثير فى نفس أخيه لاعتقاده أنه مهما بلغ به الغضب فإنه لن ينفذ ما أقسم عليه؛ أليس أخاه؟! فكيف يقتله؟!

ولقد فسر البعض قوله لأخيه: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ ﴾[1] على أنه استسلام منه لأخيه إذا أراد أن يقتله، واستشهد ابن كثير[2] بأحاديث، منها: «**إذا كانت الفتنة فكن كخير ابنى آدم**»، وفى الصحيحين، عن النبى ﷺ أنه قال: «**إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار، قالوا: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصا على قتل صاحبه**»[3] ومقتضى هذا الرأى أنه لو شرع شخص فى قتل آخر فعلى هذا الأخير أن يستسلم له ويتركه يقتله اقتداء بابن آدم، وهو ما لا يمكن أن يقول به أحد، ولا يدل عليه حديث الرسول ﷺ الذى رواه سعد بن أبى وقاص، ولا الحديث الذى فى الصحيحين، وإلا لكانت فرصة لضعاف النفوس من المجرمين

(١) سورة المائدة، الآية:٢٨

(٢) المرجع السابق، صفحة ٨٠

(٣) البخارى (كتاب الفتن) جزء ٩، صفحة ٦٤، ومسلم (كتاب الفتن) جزء ٨، ص ١٦٩

والسفاحين الذين لا يتورعون عن سفك دماء الأبرياء لأتفه الأسباب، فضلا عن أن ذلك مما يتعارض مع الطبيعة البشرية، والله ـ سبحانه وتعالى ـ لايكلف نفسا إلا وسعها، وليس مما فى وسع الناس أن يروا القاتل يهم بقتلهم فينحنوا له استسلاما لكى يقطع رقابهم، أو يفرغ فيهم رصاصات مسدسه. ففى الحديث الذى رواه سعد بن أبى وقاص ذكرت الفتنة، وهو ما يعد تخصيصا صريحا للحالة التى يستسلم فيها الشخص لمن يشرع فى قتله. ليس ذلك وحسب، بل إن هذا الحديث والأحاديث المماثلة له لايجب أن يؤخذ بها بمعزل عن الأشخاص الذين قالها لهم الرسول ﷺ كأن يكونوا من كبار السن أو الضعفاء أو المرضى الذين قد لا يكون لهم قِبَلٌ بمن يريد قتلهم، فلو أنه دخل على أحدهم باسطا يده ليقتله، فإن مقاومة هذا له لن تجدى، وستكون النتيجة هى قتله له لا محالة فى غمرة الغضب الشديد الذى يعترى المتمردين أثناء الفتنة، أما إذا واجهه فى هدوء وردد أمامه ما قاله ابن آدم لأخيه: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(1)

فقد يزجره ذلك ويرده عن المضى فيما شرع فيه، خاصة وأنه مسلم يعرف القرآن والحديث، ويعلم أن القصاص قادم لا محالة إن لم يكن فى الدنيا ففى الآخرة، أو فى الاثنتين الواحدة بعد الأخرى.

ولعل الحديث الوارد فى الصحيحين يزيد الأمر وضوحا حيث قال الرسول ﷺ : «**إذا تواجه المسلمان بسيفيهما**» وهذا واضح فى أن كلا منهما أخذ سيفه من بيته أو انتزعه من غمده قاصدا أن يواجه صاحبه، وهو يحمله لكى يستخدمه إذا تطور الموقف إلى القتال، وليس كذلك فى حالة ابنى آدم اللذين أقسم أحدهما أن يقتل الآخر دون أن يكون معه سلاح، على الأرجح، على ما سنبينه فى شرحنا لواقعة القتل. فإذا تطور الموقف بين من تواجها بسيفيهما إلى قتال فليس هناك أدنى شك فى أن قصد كليهما سيكون قتل الآخر وليس غير ذلك؛

(1) سورة المائدة، الآية: 28

لاعتقاده أنه إن لم يقتله هو فسيقتله غريمه. ولذلك نهى الرسول ﷺ عن أن يتواجه المسلمان بسيفيهما.

ولقد نسب إلى مجاهد قوله عن استسلام المهدد بالقتل لمن سيقتله إنه كان فرضا على المسلمين حينئذ ألا يستل أحد سيفا، وألا يمتنع ممن يريد قتله. وهو مالم يثبت حدوثه بأى حال. وأغرب مما قاله مجاهد قول القرطبى[1] أن العلماء يجوزون حدوث التعبد به، أى أن يتعبد شخص أو أشخاص بالاستسلام لمن يرغبون فى قتلهم! ويضيف قائلا: «وفى الحشوية قوم لا يجوزون للمَصُول عليه - أى من يتعرض للاعتداء - الدفع، واحتجوا بحديث أبى ذر. غير أن رأى القرطبى هو جواز دفع الاعتداء إجماعا، أما الوجوب فقد حدث خلاف حوله، والأصح وجوب ذلك لما فيه من النهى عن المنكر.

ويقول رشيد رضا[2]: إنه ليس فيما قاله هابيل تصريح بعدم الدفاع البتة، وإنما فيه التصريح بعدم الإقدام على القتل. وهذا هو الصحيح؛ لأنه مما لا يمكن تصوره أن يستسلم المرء لمن يريد قتله لكى يذبحه ذبح الشاة. والمرة الوحيدة التى حدث فيها ذلك كانت يوم أن استسلم إسماعيل لأبيه إبراهيم - عليهما السلام - لكى يذبحه، ولكن ذلك كان بأمر من الله تعالى انصاع له الاثنان، ولم يكن بمبادرة من الأب وإذعان من الابن لغير ما سبب، أو حتى لسبب كأن يكون الأب قد غضب على ابنه.

وواضح أن هابيل كان يفتقر إلى الخبرة بالناس، وهذا أمر طبيعى بالنسبة له، فلم يكن فى الدنيا من الرجال غيره ومعه أخوه، فضلا عن أبيهما آدم، وذلك بخلاف ما حدث بعد ذلك لما تكاثر الناس وتعددت طباعهم وتباينت أخلاقهم، مما جعل للخبرة بهم أهميتها وللتجارب التى يخوضها المرء معهم قيمتها؛ بحيث يمكنه أن يتصرف معهم فى ضوء ما خاضه من تجارب، وما حصل عليه من خبرات؛ ولذلك فإن رده على أخيه - على الرغم مما تضمنه من موعظة بليغة واستعطاف لطيف - لم يؤثر فيه؛ لأن النفوس ليست واحدة فى استجابتها للمؤثرات

(١) المرجع السابق، صفحة ١٣٦

(٢) المرجع السابق، صفحة ٢٨٤

المختلفة. ولقد كانت نفس قابيل موغلة فى الشر؛ لذلك استطرد هابيل قائلا: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ ﴾[1] أى: إنى أريد بما ذكرت من اتقاء مقابلة القتل بمثله أن ترجع أنت - إن قتلتنى - متلبسا بإثمى وإثمك. أى: إثم قتلك إياى وإثمك الخاص بك الذى كان سببا فى عدم قبول قربانك. وهذا التفسير مأثور عن ابن عباس[2].

وفيه وجه آخر: وهو أنه مبنى على كون القاتل يحمل فى الآخرة إثم من قتله إن كان له آثام؛ لأن الذنوب والآثام التى فيها حقوق للعباد لا يغفر الله تعالى منها شيئا حتى يأخذ لكل ذى حق حقه. وإنما القصاص فى الآخرة بالحسنات والسيئات، فيعطى المظلوم من حسنات الظالم ما يساوى حقه إن كان له حسنات توازى ذلك، أو يحمل الظالم من آثام المظلوم وأوزاره ما يوازى ذلك إن كان له آثام وأوزار. وما نقص من هذا أو ذاك يستعاض عنه بما يوازيه من الجزاء فى الجنة أو النار. وفى ذكر هابيل إثمه وإثم أخيه تواضع وهضم لنفسه بإضافة الإثم إليها على الوجه الثانى، كما أن فيه تذكيرا لأخيه بأنه ليس له حسنات توازى هذا الظلم الذى عزم عليه؛ ولذلك أضاف إليه قوله: ﴿ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] أى: تكون بما حملت من الإثمين من أهل النار فى الآخرة؛ لأنك تكون ظالما، والنار جزاء كل ظالم، فتكون من أهلها حتما.

وهكذا يكون هابيل قد فعل كل ما بوسعه مع أخيه لصرفه عما اعتزمه من قتله، فقد بدأ معه ببيان كيف أنه لا يد له فيما حدث من رفض قربانه، فأوضح له السبب الذى من أجله يتقبل الله القرابين، وهو التقوى. فلما لم يقتنع انتقل هابيل إلى تنزيه نفسه عن مقابلة القتل بمثله، ثم ذكره بالخوف من الله تعالى الذى لا يرضى ممن وهبهم العقل والاختيار إلا أن يتحروا إقامة سننه فى تربية العالم، وتمكين كل إنسان يرغب فى الكمال من بلوغ كماله. ثم انتقل إلى تذكيره بأن المعتدى يحمل إثما مضاعفا هو إثم نفسه وإثم من اعتدى عليه بعدل الله تعالى فى القصاص والجزاء، وانتهى بتذكيره بعذاب النار، وكونها مثوى للظالمين، فماذا كان من تأثير هذه المواعظ فى نفس ذلك الحاسد الظالم؟ يبين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ ﴾[3]

---

(١) المائدة، من الآية: ٢٩

(٢) ابن كثير، المرجع السابق، صفحة ٨١

(٣) المائدة، من الآية: ٣٠

أى: شجعته نفسه، وهو المأثور عن ابن عباس ومجاهد. غير أن للشيخ محمد رشيد رضا تفسيرا آخر لكلمة (طوعت) يقول قيه: «إن هذه الكلمة تدل على تدرج وتكرار فى حمل الفطرة على طاعة الحسد الداعى إلى القتل، كتذليل الفرس والبعير الصعب. فهى تمثل ـ لمن يفهمها ـ ولد آدم الذى زين له حسده لأخيه قتله، وهو بين إقدام وإحجام ، يفكر فى كل كلمة من كلمات أخيه الحكيمة، فيجد فى كل منها صارفا له عن الجريمة، يدعم ويؤيد ما فى الفطرة من صوارف العقل والقرابة والهيبة، فكَرَّ الحسد من نفسه الأمَّارة على كل صارف فى نفسه اللوَّامة، فلا يزالان يتنازعان ويتجاذبان حتى يغلب الحسد كلا منها ويجذبه إلى الطاعة، فإطاعة صوارف الفطرة وصوارف الموعظة لداعى الحسد هو التطويع الذى عناه الله تعالى. فلما تم كل ذلك قتله. وهذا المعنى يدل عليه اللفظ، ويؤيده ما يعرف من حال البشر فى كل عصر، بمقتض، فنحن نرى من أحوال الناس واختبار القضاة للجناة، أن كل من تحدثه نفسه بقتل أخ له من أبيه القريب أو البعيد (آدم) يجد فى نفسه صارفا أو عدة صوارف تنهاه عن ذلك، فيتعارض المانع والمقتضى فى نفسه زمنا طويلا أو قصيرا، حتى تطوع له نفسه القتل بترجيح المقتضى عنده على الموانع، فعند ذلك يقتل إن قدر. فالتطويع لابد فيه من التكرار كتذليل الحيوان الصعب ، وتعليم الصناعة أو العلم. وقد يكون التكرار لأجل إطاعة مانع أو صارف واحد، وقد يكون لإطاعة عدة صوارف وموانع»[1]. وأقرب الألفاظ التى قيلت إلى هذا المعنى كلمة «التشجيع» المأثورة، فهى تدل على أنه كان يهاب قتل أخيه وتجبن فطرته دونه، فما زالت نفسه الأمارة بالسوء تشجعه عليه حتى تجرأ وقتل عقب التطويع بلا تفكر ولا تدبر للعاقبة.

ويقول سيد قطب[2]: ذللت له نفسه كل عقبة ، وطوعت له كل مانع، طوعت له نفسه القتل.. وقتل من؟ قَتْلُ أخيه.. وحق عليه النذير: ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[3]خسر نفسه فأوردها موارد الهلاك. وخسر أخاه الصالح التقى

(١) المرجع السابق، صفحة ٢٨٥

(٢) المرجع السابق، صفحة ٨٧٦

(٣) المائدة، من الآية: ٣٠

وهو أقرب الناس إليه وأبرهم به فى الدنيا، ففقد الناصر والرفيق. وخسر دنياه فما تهنأ للقاتل حياة، وخسر آخرته فباء بإثمه الأول وإثمه الأخير.

ونرجح أن القتل لم يقع عقب الجدل الذى دار بين الأخوين، وإنما وقع بعد ذلك بفترة قد تكون يوما أو أكثر، وهو ما يفهم من لفظ «طوعت» الذى شرحه رشيد رضا شرحا علميا وافيا. فالقاتل ظل يفكر فيما أقسم على ارتكابه من جرم، تتجاذبه مشاعر متعارضة فيميل تارة مع هذه ويميل أخرى مع تلك، إلى أن حزم رأيه وحسم اختياره وانتهى إلى حرق مراكبه حتى لايعود إلى شاطىء العقل والحكمة. وهذه الفترة التى استغرقها فى اتخاذ قراره تعد فارقة بين نوعين من القتل، أولهما: القتل العمد. وثانيهما: القتل مع سبق الإصرار، وهو فارق هام فى القانون الوضعى يترتب عليه تحديد العقوبة التى يستحقها الفاعل، وما إذا كانت الأشغال الشاقة أو الإعدام.

وعلى الرغم من تحفظاتنا على كثير مما جاء فى التوراة بشأن الموضوعات الواردة فى هذا الكتاب ومن بينها هذا الموضوع، فإننا لا نرى تعارضا بين ما ذكره القرآن من تطويع نفس قابيل له لقتل أخيه ،وما ذكرته التوراة بخصوص واقعة القتل حيث جاء فيها: «وحدث إذ كانا فى الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله»[1] أى أنه فاجأه بالهجوم عليه. وفى الطريقة التى قتله بها روايات مختلفة، تتفق كلها وما ذهبنا إليه من أنه قتله غيلة وغدرا؛ فقد قال ابن عباس وابن مسعود : وجده نائما فشدخ رأسه بحجر. وقال ابن جريج ومجاهد وغيرهما: إنه جهل كيف يقتله، فجاء إبليس بطائر - أو حيوان غيره - فجعل يشدخ رأسه بين حجرين ليقتدى به قابيل، ففعل. غير أنه قيل إن قابيل كان يعرف القتل بطبعه؛ لأن الإنسان وإن لم ير القتل فإنه يعلم بطبعه أن النفس فانية ويمكن إتلافها، فأخذ حجرا فقتله[2]. وقال السدى: إن قابيل طلب أخاه ليقتله، فراغ الغلام منه فى رءوس الجبال، فأتاه يوما من الأيام وهو يرعى غنما له. وهو

(١) تكوين، إصحاح ٨

(٢) القرطبى، المرجع السابق، صفحة ١٤٠

نائم، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات، فتركه بالعراء[1]. وعن بعض أهل الكتاب: أنه قتله خنقا وعضا، كما تقتل السباع. وقال ابن جرير: «لما أراد أن يقتله جعل يلوى عنقه، فأخذ إبليس دابة ووضع رأسها على حجر، ثم أخذ حجرا آخر فضرب به رأسها حتى قتلها، وابن آدم ينظر، ففعل بأخيه مثل ذلك»[2].

الباعث على الجريمة الحسد:

الباعث على جريمة قتل قابيل لهابيل هو الحسد؛ فقد حسده لأن الله تقبل قربانه ولم يتقبل قربانه هو. فما هو حكم الحسد فى الإسلام؟ وما هو تعريفه؟ وما هى أنواعه؟

ورد ذكر الحسد باسمه فى القرآن فى ثلاث آيات من ثلاث سور، الأولى سورة البقرة فى قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾[3]

وقوله فى سورة النساء: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[4]

وأخيرا سورة الفلق فى قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[5].

وورد الحسد بمضمونه أو بمعناه فى آيات أخرى كثيرة، منها- على سبيل المثال لا الحصر- قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾[6]

ومنها قوله سبحانه فى إخوة يوسف: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[7]

وقوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾[8]

وغير ذلك كثير.

---

(١) االطبرى، المرجع السابق، جزء ١٠، صفحة ٢٢٢.
(٢) ابن كثير، المرجع السابق، المجلد ٣، صفحة ٨٣
(٣) البقرة: ١٠٩.
(٤) النساء: ٥٤.
(٥) الفلق: ٥.
(٦) المائدة، من الآية: ٢٧
(٧)يوسف: ٨.
(٨) آل عمران: ١٢٠.

كذلك ورد الحسد فى كثير من الأحاديث النبوية التى سنوردها فى المواقع التى تناسبها من هذه الدراسة منعا للتكرار.

تعريف الحسد:

الحسد: هو تمنى زوال النعمة عن الغير. فلا حسد إلا على نعمة أنعم الله بها على إنسان. والفرق بينها وبين الغبطة أن من يغبط لايتمنى زوال النعمة ولا يكره وجودها ودوامها، ولكن تشتهى نفسه مثلها، وقد يسمى ذلك منافسة. والأول - أى الحسد- حرام بكل حال إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر وهو يستعين بها على إثارة الفتنة، وإفساد ذات البين، وإيذاء الخلق، فليس هناك ضرر فى أن يكرهها الناس و يتمنوا زوالها، ليس من حيث هى نعمة بل من حيث هى آلة للفساد فحسب[1]. ومن الأمثلة على ذلك قول رسول الله ﷺ: «**لاحسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله علما فهو يعمل به ويعلمه الناس**»[2] وقوله: «**مثل هذه الأمة مثل أربعة: رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل بعلمه فى ماله، ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فيقول: رب لو أن لى مالا مثل مال فلان لكنت أعمل فيه بمثل عمله، فهما فى الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو ينفقه فى معاصى الله، ورجل لم يؤته علما ولم يؤته مالا فيقول: لو أن لى مثل مال فلان لكنت أنفقه فى مثل ما أنفقه فيه من المعاصى فهما فى الوزر سواء**»[3] وفى هذا الحديث لم يتمن أحد زوال النعمة عن الغير، سواء فى ذلك من تمنى أن ينعم الله عليه بمثل ما أنعم به على الآخر لكى يوجهها إلى الخير، أو من تمنى النعمة لكى يستخدمها فى ارتكاب المعاصى، فهذه غبطة وتلك غبطة، ولكن الفرق بينهما أن الأولى محمودة والثانية مذمومة، بل هى حرام.

ويقول القرطبى[4]: الحسد أن تتمنى زوال نعمة الله عن أخيك المسلم،

---

(١) الإمام الغزالى، إحياء علوم الدين، المجلد الثالث، صفحة ١٨٦.

(٢) متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٣) رواه ابن ماجة، والترمذى، وقال: حسن صحيح.

(٤) المرجع السابق، الجزء الثانى، صفحة ٧١.

وسواء تمنيت مع ذلك أن تعود إليك أو لا، هذا النوع الذى ذمه الله تعالى فى كتابه بقوله: ﴿ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[1] إنما كان مذموما لأن فيه تسفيه الحق- سبحانه وتعالى- وأنه أنعم على من لا يستحق.

وقد جاء فى صحيح الحديث من قوله- عليه السلام-: «**لاحسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**». وهذا معناه الغبطة. وقد روى أن النبى ﷺ قال: «**المؤمن يغبط، والمنافق يحسد**». وكذلك ترجم عليه البخارى «باب الاغتباط فى العلم والحكمة». وحقيقتها: أن تتمنى أن يكون لك ما لأخيك المسلم من الخير والنعمة ولايزول عنه خيره، وقد يجوز أن يسمى منافسة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾[2].

أنواع الحسد:

من الآيات القرآنية التى ذكرناها فيما سبق ومن غيرها من الآيات نلاحظ أن الله تعالى أورد فى كتابه العزيز نوعين من الحسد، أحدهما: الحسد الجماعى الذى يصدر عن جماعة ضد جماعة، كاليهود الذين كانوا ولا يزالون يكنون حسدا شديدا للمسلمين، يشاركهم فيه النصارى أيضا، وبالذات الكهنة والمبشرون الذين ما انفكوا يكيدون للإسلام فى كل مكان وفى كل العصور. وأختلف مع الشيخ رشيد رضا[3] فيما قاله من «أن أهل الكتاب الذين ذكرهم الله فى قوله فى سورة البقرة: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾[4] هم اليهود، فهو لم يسند الحسد إلى غيرهم؛ لأنهم- وقد سلب منهم الملك- يتمنون عودته إليهم، وقد كبر عليهم أن تسبقهم العرب فى ذلك، ولم يكن النصارى يومئذ يحسدون المسلمين؛ لأنهم

---

(١) النساء، من الآية: ٥٤

(٢) المطففون: ٢٦.

(٣) المرجع السابق، الجزء الخامس، صفحة ١٣١

(٤) البقرة: ١٠٩

متمتعون بملك واسع!». وسبب الخلاف أن الله تعالى ذكر أهل الكتاب وهو وصف يشمل اليهود والنصارى. ولو كان يخصهم بالحسد فى هذه الآية لذكرهم بالاسم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن النصارى وإن كان ملكهم يومئذ واسعا ـ وهذه حقيقة ـ إلا أن حسدهم للمسلمين ـ وبخاصة رهبانهم وكبار رجال كنيستهم ـ لم يكن الباعث عليه الملك فقط، بل اعتقادهم بأنهم يملكون الحقيقة دون غيرهم، فلما بعث محمد ﷺ بدين التوحيد حسدوه، ودفعهم حسدهم له إلى إنكار نبوته، وما قصتهم مع هرقل والمقوقس لما تسلما الرسالتين اللتين بعث بهما الرسول إليهما بالتى تنسى.

أما النوع الثانى من الحسد فهو الذى يكون بين الأفراد، وهو الشائع، ومثاله حسد قابيل لهابيل، وحسد إخوة يوسف له ولأخيه. وهو ما نلاحظ أن القرآن الكريم لم يذكر كلمة (حسد) فيه، بخلاف الحسد الجماعى، وإن كان قد جمعه تحت مبدأ عام هو الحسد، وذلك فى سورة الفلق حيث قال: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[1].

فالحاسد هنا فرد، أو عدد قليل من الأفراد، بخلاف ما ورد فى سورتى البقرة والنساء مما أوردناه فيما سبق. ولقد حاولت أن أصل إلى معرفة السبب فى أن الله ذكر الحسد صراحة فى حالة صدوره من جماعة، وذكره ضمنا فى حالة صدوره من أفراد، ولكن لم أجد شيئا فى هذا الخصوص فى كتب التفسير على الرغم من أهمية هذا الاختلاف، وعلى ما يبدو لى: ذلك لأن مثل هذه الأمور لا ترد فى القرآن كيفما اتفق، وإنما يكون استخدام الكلمات فى موضع وعدم استخدامها فى موضع آخر ـ على الرغم مما يقوم بينهما من تماثل فى كثير من التفاصيل ـ إنما هو لحكمة بلاشك. والذى أرجحه فى حالتنا هذه أن الله تعالى أراد أن يعرِّف سلوك أهل الكتاب من اليهود والنصارى نحو المسلمين بدقة ووضوح، فأسماه باسمه: الحسد، أى تمنى زوال نعمة الإسلام عن المسلمين. أما فى الحالات الأخرى التى لم ترد فيها كلمة (حسد)، سواء فى ذلك التى يكون

(١) سورة الفلق، الآية: ٥

فيها الحسد فرديا أو التى يكون فيها جماعيا، فإن الله تعالى ترك للناس تحديد طبيعة الفعل وهل هو حسد أم لا، وذلك بالنظر إلى ما يكون من اختلافات لا حصر لها بين الأفعال، مما يحتمل معه ألا يدخل بعضها تحت وصف الحسد. كذلك فإن الله تعالى أراد أن يبين لنا أن الحسد الموجه إلى نعمة الدين - وهو الإسلام - أخطر وأشد ضررا من الحسد الذى يتمنى فيه صاحبه زوال أى نعمة أخرى غير نعمة الإسلام. فليس من خسارة تصيب المسلم أفدح من خسارته فى دينه.

ولكن ما الذى يجعل إنسانا يتمنى زوال النعمة عن إنسان آخر؟!

يتمنى إنسان زوال النعمة عن إنسان آخر لسببين، الأول: ما توفره هذه النعمة لصاحبها من راحة وسرور، أما السبب الثانى فيرجع إلى الحاسد نفسه، فهو يشعر بأنه ينقصه شيء يجعله متخلفا عن الذى أصابته النعمة، فهو يريد أن يتساوى معه ويلحق به. ولكنه لايعمل من أجل هذه الغاية، إما لعجزه عن بذل الجهد الذى يمكنه من الحصول على النعمة، أو لأنه كسول متقاعس لايريد أن يتعب ويعانى من أجل اللحاق بغيره والتساوى معه، فماذا يفعل لكى يحقق هذه النتيجة؟ إنه يفضل أن يفقد صاحب النعمة نعمته، وبهذا يعود كما كان لايتميز على الحاسد بشيء. ويقول الغزالى[1]: «وإذا زالت النعمة عن المحسود كان ذلك أشفى عند الحاسد من دوامها، إذ بزوالها يزول تخلفه وتقدم غيره، ويظل هذا الخاطر يلح على الحاسد بحيث إنه لو كان الأمر بيده وموكولا إلى اختياره لسعى فى إزالة النعمة عن المحسود. أما إن كان تقيا فإن تقواه ستمنعه من السعى إلى إزالة تلك النعمة وتحول دون استجابته لما فى طبعه من الارتياح إلى زوالها عن المحسود مهما كان كارها لتلك النعمة.

وهنا يثور تساؤل حول طبيعة الحسد وما إذا كان مكتسبا أو فطريا؟

اختلفت الآراء بشأن طبيعة الحسد وهل هو مكتسب أو فطرى؟ فذهب رأى إلى أنه مكتسب بواسطة التنشئة الاجتماعية التى تشمل التعلم والتعليم والتربية، بمعنى أن الطفل يتعلم الحسد من أبويه عن طريق الملاحظة، إذ يراهما ويسمعهما يعبران عن تمنى زوال النعمة عن الغير، أو يعلمانه الحسد بشكل مباشر، فيشب حسودا حقودا. أما الرأى الثانى فيذهب إلى أن الحسد فطرى فى الإنسان أو

(١) المرجع السابق، المجلد الثالث، صفحة ١٨٧

جبلِّي. وهو ما أرجحه؛ لارتباطه بغريزة حب البقاء التى توجد لدى كل الكائنات وليس الإنسان فقط، ولذلك نراها جميعا تهرب من الموت ويعتريها فزع شديد عند مواجهتها له. غير أن الإنسان يزيد على غيره من الكائنات بما منحه الله من عقل؛ فهو لا يكتفى بأن يكون على قيد الحياة، وإنما يريد أن يعيش كما يعيش غيره، وبخاصة من يعتبرهم أقرانا له ونظراء، فهو يكره أن يقل عنهم فى شىء، ويسيئه أن يحصل أحد منهم على نعمة تجعله متقدما عليه، فتتحرك فى نفسه مشاعر الحسد، أى: تمنى زوال هذه النعمة عن صاحبها. أما إذا كان عدوانيا فإنه لايقف عند حد تمنى زوال النعمة عن صاحبها، بل يلجأ إلى الاعتداء على صاحب النعمة من أجل أن يحول دون تمتعه بها، أو يلجأ إلى الاعتداء على النعمة ذاتها تاركا صاحبها يتألم لفقدها. والدليل على أن الحسد فطرى فى الإنسان قول الرسول ﷺ: «**ثلاث لا ينفك المؤمن منهن: الحسد، والظن، والطيرة**» فى رواية أخرى قال ﷺ: «**ثلاثة لايسلم منهن أحد: الطيرة، والظن، والحسد**» قيل: فما المخرج منهن يارسول الله؟ قال: «**إذا تطيرت فلا ترجع، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فلا تبغ**»(1).

والسبب فى الحسد هو حب الإنسان لنفسه وتفضيله لها على غيرها، فهو لا يحب أن يسبقه أحد ممن هم فى نفس درجته وظروفه أو أن يتفوق عليه؛ لذلك نلاحظ أن أصحاب الحرف التافهة يوجد فيهم من يحسدون زملاءهم على ما يعتبرون أنه نعمة حظوا بها، على الرغم من أنها قد لا تكون كذلك بالنسبة لغيرهم. من ذلك أن جامع قمامة حدثنى أن زملاءه الذين يعملون فى الأحياء الشعبية يحسدونه لأنه يجمع القمامة من المهندسين!! كذلك العلماء يحسد بعضهم بعضا على ما يصيبونه من نعم، ومن باب أولى الأمراء وأصحاب السلطان وكبار الموظفين.

صور الحسد:

للحسد صورتان، الأولى: هى التى يقف فيها الحاسد عند تمنى زوال النعمة عن المحسود فقط، سواء تمنى أن يكون له مثل هذه النعمة أو لم يتمن. أما الصورة

(1) الدينورى (عيون الأخبار) الجزء الرابع، صفحة 8

الثانية فهى التى يتجاوز فيها الحاسد حدود التمنى إلى القيام بعمل يهدف به إلى إزالة النعمة عن المحسود، أو القضاء عليه لكى يختفى من أمامه، كما فعل قابيل بهابيل، وإخوة يوسف به. ولا يشترط أن يتمنى الحاسد أن يكون له مثل هذه النعمة أو هى ذاتها. وهذه هى الصورة التى يشدد الإسلام فى النهى عنها، وذلك فيما روى عن رسول الله ﷺ فى الحديث السابق الذى قال فيه «**إذا حسدت فلا تبغ**» أى: إن وجدت فى قلبك شيئا من كراهة النعمة التى أصابها غيرك وتمنيت زوالها فلا تفعل شيئا من أجل إزالتها، وإلا تكون قد ارتكبت إثما عظيما.

فما هى أسباب الحسد؟

حصر الإمام الغزالى أسباب الحسد فى سبعة، هى: العداوة، والتعزز، والكبر، والعُجْبُ، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة، وحب الرياسة، وخبث النفس وبخلها.

السبب الأول: العداوة والبغضاء، وهما من أشد أسباب الحسد؛ فالإنسان الذى يصيبه أذى من إنسان آخر تشتعل نفسه نحوه بالعداء والبغض فيحقد عليه ويتمنى أن يزول كل ما لديه من نعم. ويقول الغزالى[1]: إن الحقد يقتضى التشفى والانتقام، فإن عجز الحاسد عن أن يتشفى أحب أن يتشفى منه الزمان، أى: من المحسود. والحسد بسبب البغض ربما يفضى إلى التنازع والتقاتل واستغراق العمر فى إزالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك الستر.

السبب الثانى: التعزز، وهو أن يكره الإنسان أن يترفع عليه غيره ممن هم فى مثل مكانته، كأن يكون أستاذا بالجامعة، فيعين أحد زملائه وزيرا، أو يكون تاجرا فيعقد زميل له صفقة ضخمة تعود عليه بربح وفير، أو أن يكون عالما فيحصل زميل له على جائزة مالية ضخمة فيخاف أن يتكبر عليه، ويرفض صلفه وتفاخره عليه، ولا يجد حلا لذلك غير زوال هذه النعمة عنه.

(١) المرجع السابق، صفحة ١٨٨

السبب الثالث: الكبر، ويكون من المتبوع نحو تابعه الذى نال نعمة، فهو يخشى أن يتكبر عليه ويترفع عن متابعته، وربما يتطلع إلى أن يتساوى به، أو إلى أن يرتفع عليه؛ لذلك يتمنى زوال النعمة التى حصل عليها حتى يبقى خاضعا له.

السبب الرابع: العجب، وهو إعجاب المرء بنفسه، ورفضه أن ينال من هو مثله نعمة دونه، وهو يظن أنه الأجدر بها؛ ولذلك فهو يتمنى زوالها عنه حتى لا يرتفع عليه.

السبب الخامس: الخوف من فوت المقاصد، كما فى حالة التزاحم على هدف واحد، كأن تكون هناك وظيفة واحدة تقدم لشغلها عدد من الناس، فإذا كان لأحدهم ما يرجح كفته على غيره مثل الواسطة أو القرابة بمسئول أو غير ذلك فإن من يزاحمونه على الوظيفة يتمنون زوال هذه النعمة أو تلك عنه؛ حتى لا يحظى بالوظيفة دونهم.

السبب السادس: حب الرياسة وطلب الجاه لذاتهما؛ وليس لاتخاذهما وسيلة لغاية ما، كالشخص الذى يحب أن يكون رئيسا لفئة من الفئات كالأدباء والكتاب، أو الذى يريد أن يكون أميرا للشعراء، أو من يحب أن يوصف بصفة تجعله متميزا عن كل أقرانه، متفردا عن زملائه أو نظرائه، يقدمه الناس عليهم؛ ومثله لايحب أن يكون هناك من ينافسه فى الرياسة أو يزاحمه فى الزعامة، فإن ظهر مثل هذا الشخص حسده وتمنى زوال النعمة عنه؛ حتى يظل هو الوحيد صاحب المكانة. وأكثر ما يوجد هذا السبب بين الحكام ملوكا كانوا أو رؤساء.

السبب السابع: خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله، ويكون فى الشخص الذى إذا سمع أن إنسانا ما نال نعمة من الله كره ذلك، وإذا سمع عن اضطراب حال الناس ومعاناتهم وتنغص عيشهم فرح بذلك. فهو أبدا يحب الشر للناس، ويبخل بنعمة الله على عباده، كأنهم يأخذون من ماله. ويقال: البخيل من يبخل بمال نفسه، والشحيح: هو الذى يبخل بمال غيره.

ويعتبر الغزالى[1] هذا السبب من أسباب الحسد الوحيد الفطرى الجبِلِّىَّ، أما الأسباب الستة الأخرى فيعتبرها مكتسبة. وهو يقول فى ذلك: إن «معالجته شديدة لأن الحسد الثابت بسائر الأسباب أسبابه عارضة يتصور زوالها فيطمع فى إزالتها، وهذا خبث فى الجِبِلَّةِ لا عن سبب عارض فتعسر إزالته؛ إذ يستحيل فى العادة إزالته».

وليس بشرط أن ينشأ الحسد عن سبب واحد من هذه الأسباب، بل قد يجتمع بعضها أو أكثرها أو جميعها فى شخص واحد، وفى هذه الأحوال يكون الحسد شديدا بحيث يتعذر على الحاسد أن يخفيه عن الناس، فلا يلبث أن يعرف به ويشتهر أمره.

وأكثر ما يكون الحسد بين الإخوة وبنى العم والأقارب، وكذلك بين الزملاء والأقران، ويقل بين الغرباء، والسبب فى ذلك أن الأقارب بعامة ـ والإخوة وبنى العم على وجه الخصوص ـ لا يحبون أن يتفوق واحد منهم عليهم، بل يرغبون أشد الرغبة فى أن يتساووا جميعا لما غلب على ظنهم من أن تفوق البعض من شأنه أن يجعله يتكبر عليهم ويستعلى بالنعمة التى حظى بها، سواء أكانت مالا أم جاها أم سلطانا أم شهرة فلا يعود الناس يهتمون بهم، بل يتجهون باهتمامهم إلى صاحب النعمة فيتراجعون هم ويقل شأنهم.

كذلك فإن الإخوة وأبناء العم يكونون ـ فى أغلب الأحيان ـ على صلة قوية ببعضهم، سواء بالإقامة فى بيت واحد كالإخوة، أو يتزاورون فيطلع بعضهم على أحوال بعض، فإنه لا يخفى عليهم ما يصيبه البعض منهم من نعمة تخل ـ فى اعتقادهم ـ بما بينهم من مساواة، فيكرهون ذلك ويتمنون زوالها حتى تعود الأوضاع إلى ما كانت عليه. وكذلك فى العمل بين الزملاء، وفى الحرف بين الحرفيين المتجاورين، بل وبين الجيران. فالحسد يكثر بسبب القرب ويقل مع البعد.

---

(١) المرجع السابق، صفحة ١٩٠

عواقب الحسد:

للحسد عواقب وخيمة، أكثرها يعود على الحاسد. ففيما عدا الحالة التى يرتكب فيها الحاسد جريمة أو يأتى بفعل لا يعد جريمة وإنما مجرد تصرف لا أخلاقى مثل السعى بالوقيعة أو الكيد للمحسود، فإن كل عواقب الحسد تعود على الحاسد. يقول القرطبى[1]: «والحسد مذموم وصاحبه مغموم، وهو «**يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**» رواه أنس عن النبى ﷺ وقال أعرابى: ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد، نَفَسٌ دائم، وحزن لازم، وعبرة لاتنفد. وقال عبد الله بن مسعود: لا تعادوا نعم الله. قيل له: ومن يعادى نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، يقول تعالى فى بعض الكتب: الحسود عدوُّ نعمتى متسخط لقضائى غير راض بقسمتى. ويقال: الحسد أول ذنب عصى الله به فى السماء، وأول ذنب عصى به فى الأرض، فأما فى السماء فحسد إبليس لآدم. وأما فى الأرض فحسد قابيل لهابيل. وقيل: إذا سرك أن تسلم من الحاسد فغم عليه أمرك. وقال بعض أهل التفسير فى قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾[2]:

«إنه إنما أراد بالذى من الجن إبليس، والذى من الإنس قابيل، وذلك أن إبليس كان أول من سنَّ الكفر، وقابيل أوَّل من سن القتل، وإنما كان أصل ذلك كله الحسد».

وقال ابن المقفع: أقل ما لتارك الحسد فى تركه أن يصرف عن نفسه عذابا ليس بمدرك به حظا، ولا غائظ به عدوا، فإنا لم نر ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد، طول أسف، ومحالفة كآبة، وشدة تحرق، ولايبرح زاريا على نعمة الله ولا يجد لها مزالا، ويكدر على نفسه ما به من النعمة فلا يجد لها طعما، ولا يزال

(١) القرطبى، المرجع السابق، الجزء الخامس، صفحة ٢٥١
(٢) ٢٩ فصلت

ساخطا على من لايترضاه، ومتسخطا لما لن ينال فوقه، فهو منغص المعيشة، دائم السخطة، محروم الطَّلِبَةِ، لا بما قسم له يقنع، ولا على ما لم يقسم له يغلب، والمحسود يتقلب فى فضل الله مباشرا للسرور، منتفعا به، ممهلا فيه إلى مدة، ولا يقدر الناس لها على قطع أو انتقاص[1].

ويضيف القرطبى[2] قائلا: «قال العلماء: الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود، فيتبع مساوئه ويطلب عثراته».

وقال بعض الحكماء: بارز الحاسد ربه من خمسة أوجه، **أحدها:** أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره. **وثانيها:** أنه ساخط لقسمة ربه، كأنه يقول: لم قسمت هذه القسمة؟. **وثالثها:** أنه ضاد فعل الله، أى إن فضل الله يؤتيه من يشاء، وهو يبخل بفضل الله. **ورابعها:** أنه خذل أولياء الله، أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم. **وخامسها:** أنه أعان عدوَّه إبليس. وقيل: الحاسد لا ينال فى المجالس إلا ندامة، ولا ينال عند الملائكة إلا لعنة وبغضاء، ولا ينال فى الخلوة إلا جزعا وغما، ولا ينال فى الآخرة إلا حزنا واحتراقا، ولا ينال من الله إلا بعدا ومقتا. وروى أن النبى ﷺ قال: «**ثلاثة لا يستجاب دعاؤهم: آكل الحرام، ومكثر الغيبة، ومن كان فى قلبه غل أو حسد للمسلمين**» والله سبحانه وتعالى أعلم.

كذلك فإنه لايمنع الناس من اتباع الحق بعد ظهوره مثل الحسد والكبر، فالحسود يؤثر هلاك نفسه على انقيادها لمن يحسده؛ لأن الحسد يفسد الطباع. ولقد أسند الله تعالى فى سورة البقرة الحسد إلى اليهود؛ لأنهم ـ وقد سلب منهم الملك ـ يتمنون عودته إليهم، وقد كبر عليهم أن تسبقهم العرب إلى ذلك؛ لذلك فإنه لم يؤمن بالإسلام إلا نفر قليل من اليهود، ومنع الحسد باقى الرؤساء أن يؤمنوا وتبعهم العامة تقليدا لهم. ولا يزال اليهود يحسدون المسلمين ويعملون

(١) الدينورى، المرجع السابق، صفحة ٩

(٢) المرجع السابق، الجزء ٢٠، صفحة ٢٦٠

جاهدين من أجل زوال نعمة الإسلام عنهم، باعتبار أنه القوة التى تحركهم، وذلك بأن يفسدوا دينهم بشتى الوسائل ومن بينها الجنس والمخدرات والعقائد الفاسدة، ويستغلون ضعف الحكام وتهاونهم وحرصهم على الدنيا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإذا كان الإسلام لم يعتدً فى الحسد إلا بما كان مقترنا أو مصحوبا بفعل يقصد به الحاسد زوال النعمة عن المحسود أو زوال المحسود ذاته، فإنه إنما فعل ذلك حتى لا يترك الناس يتهم بعضهم بعضا بالحسد دون دليل غير الظن الذى لا يغنى عن الحق شيئا، ومن ثم تسوء العلاقات بينهم، وتتغير مشاعرهم نحو بعضهم من المودة إلى البغض والكراهية، ومن الثقة إلى الشك والريبة. وهو ما نلاحظه الآن حيث جرت عادة الناس على اتهام بعضهم بالحسد، حتى ولو لم يكن هناك ما يدل عليه من أفعال أو أقوال صدرت عمن يتهمونهم به. صحيح أن الحسد فطرى يرتبط بغريزة حب البقاء والمبالغة فى حب الإنسان لنفسه، وهو ما يوصف بالـ «أنانية» كما أنه يرتبط بغريزة العدوان التى هى بدورها مرتبطة بغريزة حب البقاء، غير أنه طبقا لما بيناه فى أسباب الحسد، لا يتفشى الحسد بين الناس بالصورة التى يتخيلونها الآن، والتى كدرت صفو حياتهم، وإنما يوجد ـ فى الغالب ـ بين الأقران والمتماثلين، وإن وجد بين غيرهم فإنما يرجع ذلك إلى عدم قيام القادرين بما فرضه الله تعالى عليهم نحو غير القادرين.

أثر شيوع الاعتقاد فى الحسد على السلوك والعلاقات:

يلاحظ شيوع الاعتقاد فى الحسد على نطاق واسع، فى العقدين الأخيرين، حتى أصبح كثير من الناس لا يترددون فى نسبة كثير مما يقع لهم ـ أو لغيرهم ـ من أحداث مؤسفة إلى الحسد، حتى الإصابة بالمرض والطلاق وفسخ الخطبة والرسوب فى الدراسة وغير ذلك. مما أدى إلى عدم أخذهم بالأسباب والعمل على تلافى الأخطاء، فبدلا من أن يبحثوا عن السبب الذى من أجله سقط الرجل من فوق الدرج فتحطمت عظامه، وذلك نتيجة لوجود كسر فى إحدى

الدرجات جعل قدم الرجل تتزلق، أو لانصراف الطالب عن المذاكرة فرسب، أو لوجود عيب فى السيارة أدى إلى اصطدامها بأحد المارة أو غير ذلك، فإنهم يوجهون كل اهتمامهم إلى من يعتقدون أنهم تسببوا فى كل ذلك بحسدهم: ماذا قال الواحد منهم؟ وكيف نظر؟ وما اعترى وجهه من تغير؟! ثم ينتقلون بعد ذلك إلى المرحلة الثانية وهى تقديم النصائح للمحسود ولغيره بأن يقرأ الفلق مثلا أو بعض الآيات التى تشتمل على كلمة الحسد، أو بأن يحمل المصحف معه أينما ذهب، وأن يضعه فى سيارته وتحت وسادته، أو أن يستخدم حجابا، أو يحفظ تعويذة معينة، أو يذكر فى إجابته على الحاسد أو حديثه معه كلمة (خمسة) فإذا سأله عن سنه قال: خمسة وثلاثون، وإذا كان السؤال عن الراتب أجاب مائة وخمسة جنيهات، إلى غير ذلك من المعتقدات الفاسدة. أما النساء فلهن تصرفات أخرى تكاد تكون قاصرة عليهن، منها استخدام الخرز الأزرق فى الحلى التى يضعنها على صدورهن أو حول معاصمهن، بالإضافة إلى النماذج الذهبية من القرآن الكريم أو من سورة الفلق أو بعض الآيات التى تشتمل على كلمة الحسد، كذلك بعض الحلى الذهبية التى على شكل عين تتوسطها أحجار كريمة زرقاء اللون كالفيروز مثلا!

كما أنهن يسرفن فى استخدام العبارات والصيغ التى يعتقدن أنها تدرأ شر الحاسدات والحاسدين، مثل خمسة وخميسة، ودعوة المتحدثة والزائرة والصديقة إلى الصلاة على النبى عقب إبدائها رأيا فى شيء جديد اشترته الداعية، أو فى شخص على صلة بها كمولود جديد أو غير ذلك. وكثيرا ما يلجأ الناس إلى الحط من قيمة الشيء الثمين أو الادعاء بأن به عيوبا، أو إنكار ملكيتهم له وأنهم استعاروه من أصحابه. كما قد يدَّعون أنهم مصابون بأمراض، أو يعانون من مصاعب ومشكلات، لا لشيء إلا لكى يقوا أنفسهم حسد الحاسدين!

وللتعرف على الحاسد وتمييزه عن غيره تشيع بين الناس اعتقادات غريبة منها أن الحاسد أصفر العينين أو أزرقهما أو أن عينيه مدورتان، أو أن له طريقة معينة فى النظر إلى الناس والأشياء، أو غير ذلك من الصفات، أو أشكال السلوك، مثل

أنه لا يبدأ كلامه بالصلاة على رسول الله ﷺ أو أنه لايدعو للشخص بدوام النعم، ولا يتمنى له أن يبارك له الله فيها.

كذلك فإنهم يربطون بين الفضول والحسد، فالحاسد يسأل ويتحرى عن كل جديد حظى به معارفه أو أقاربه أو جيرانه، وما ذلك إلا لكى يحسدهم عليه!

وهناك حكايات كثيرة تروى عن الأثر السريع والمباشر للحسد تؤكد وجود علاقة سببية بينه وبين النتائج التى قد تكون مرضا أو إصابة أو حادثة أو خسارة مالية أو خلافا أو قطيعة أو شجارا أو غير ذلك، بحيث يتعذر على من يستمع إليها أن يشكك فى أنه كان للحسد دور فى حدوثها. أما إذا أصر على أن أسبابا أخرى هى التى لعبت دورا فيما حدث مستخدما فى إثبات ذلك كل ما لديه من أدلة وبراهين، فإن أقصى ما يمكن أن يصل إليه مع مجادليه هو أن يعترفوا للأسباب التى ساقها بدور ثانوى!. أما إذا أسقط فى أيديهم ووجدوا أنفسهم عاجزين عن تفنيد أدلته ودحض براهينه فإنهم يلجأون إلى الإيقاع به فى الحرج بأن يقولوا: هـل تنكر أن الله تعـالى تحدث عـن الحسـد فى القرآن فقال: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ أم ماذا؟ وبطبيعة الحال، فإن الرجل ينفى أنه ينكر ولكن.. ولا يتركونه ليكمل حديثه فيبين رأيه ويوضح وجهة نظره، ولكن يسارعون إلى القول ـ وهم يتنفسون الصعداء ـ: خلاص.. انتهى. وهم غالبا لا يكونون قد اطلعوا على تفسير هـذه الآية لكى يعرفوا معناها. يقـول الزمخشرى:[1] قـول الله تعـالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾[2]:

إن الله تعالى فى هذه السورة عرَّف بعض المستعاذ منه، ونكَّر البعض الآخر ومنه الحاسد، فقال: ومن شر حاسد؛ وذلك لأن كل حاسد لا يضر، وإنما يكون الضرر من البعض، كما أن هناك حسدا محمودا وهو الحسد فى الخيرات، ومنه قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«لا حسد إلا فى اثنتين»**. أما قـوله تعالى: ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾ فمعناه: إذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه من تمنى زوال النعمة عن المحسود، أو تمنى الشر له؛ لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره فلا ضرر يعود منه على

(١) المرجع السابق، المجلد الرابع، صفحة ٣٠١
(٢) ٥ الفلق

من حسده، بل هو الضار لنفسه لاغتمامه بسرور غيره. وعن عمر بن عبد العزيز: لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من حاسد. وهذا يعنى أنه لايعتد بما يضمره الحاسد من تمنى زوال النعمة عن المحسود، وإنما المعول عليه فى الحسد هو الأثر الخارجى الناشىء عنه والمتمثل فيما يصدر عن الحاسد من أفعال يهدف بها إلى إلحاق الأذى بالمحسود. ويضيف الزمخشرى قوله: إن الاستعاذة من الغاسق والنفاثات والحاسد بعد قوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾[1] وهو تعميم فى كل ما يستعاذ منه إنما يرجع إلى أن الله تعالى قد خص شر هؤلاء الثلاثة ـ ومنهم الحاسد ـ من كل شر؛ لسبب يرجع إلى خفاء أمر الحاسد وأن شره يلحق الإنسان من حيث لا يعلم، كأنما يغتال به. وقالوا: شر العداة المداجى، الذى يكيدك من حيث لا تشعر.

ولقد كان للتطورات الاقتصادية المتلاحقة والسريعة وما صاحبها من تغيرات اجتماعية دور هام فى إسراف الناس فى تفسير كثير من الأحداث التى تقع لهم فى حياتهم اليومية بالحسد. ومن أبرز التطورات الاقتصادية تلك التى ترتبط بسفر كثير من الناس إلى البلاد العربية وبخاصة البترولية منها للعمل مقابل أجور مرتفعة مكنتهم من ادخار مبالغ كبيرة، واقتناء أجهزة حديثة، وسيارات، وشراء عقارات، وغير ذلك، الأمر الذى ميزهم على غيرهم ممن هم على صلة بهم كالأقارب والأصدقاء والمعارف والجيران والزملاء فى العمل، فانتابهم خوف شديد من أن يحسدوهم، فلجأوا إلى الادعاء بإصابتهم بأمراض مختلفة ومعاناتهم من مشكلات كثيرة وعويصة، والشكوى من أن المال لم يعد عليهم إلا بالوبال على الرغم من قلته!. وصارت عادة: أنه إذا عاد أحدهم إلى بلده فى إجازة أو لأى سبب آخر وذهب الناس لزيارته أن يقابلهم هو وزوجته بالشكوى من المرض، أو بالحديث عن معاناتهم من كثير من المتاعب، بينما رائحة البخور تملأ البيت، والرموز الواقية من الحسد تبدو بوضوح على الجدران وفوق المناضد وعلى الصدور وحول المعاصم، وفوق كل ذلك نظرات الشك والريبة، وتعبيرات

(١) سورة الفلق: ٢

الوجوه التى تنم عن عدم الارتياح لوجود الزوار الذين لا يلبثون أن ينصرفوا نادمين لقيامهم بالزيارة.

وبمثل هذه الطريقة يتصرف كثيرون ممن كانوا فقراء ثم أثروا لسبب أو لآخر من الأسباب المختلفة التى طرأت نتيجة للتحولات الاقتصادية التى مرت بها مصر بعد حرب رمضان (أكتوبر ١٩٧٣). وللأسف الشديد فإن هؤلاء وهؤلاء أصبحوا يمثلون الطبقة العليا التى يقتدى بها الناس ويحاكونها فى أسلوب حياتها، ونمط تفكيرها، فشاع الاعتقاد بأن الحسد وراء كل ما يقع من أحداث غير سارة، وترك الناس الأخذ بالأسباب واستخدام العقل واللجوء إلى المنطق، فكان لذلك أسوأ الأثر فى النفوس، حيث انعدمت الثقة وحل محلها سوء الظن، واختفت الطمأنينة وحل محلها الخوف والريبة، فانعكس ذلك على صلة الرحم، وعلى الصداقة، وكل علاقة حميمة أخرى كانت تميز الحياة الاجتماعية وتضفى عليها دفئا وقوة. وإذا راجعت إنسانا دفعه خوفه من الحسد إلى التصرف على نحو غير لائق مع أقاربه أو أصدقائه قال لك: ألم يرد الحسد فى القرآن الكريم؟! وكأنه يكاد أن يتهمك بإنكار ذلك، بينما ينسى هو أن القرآن الكريم كما حذر من الحسد دعانا إلى التحدث عن نعم الله علينا ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾(١)
كما نبه إلى أن للبعض حقـًا فى أموال ذوى اليسار فقال: ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾(٢)

ودلنا على الطريقة التى نتقى بها الحسد وهى الزكاة والصدقة والإحسان إلى الناس، وتقديم العون لهم، وليس اكتناز المال أو التباهى به واستفزاز الفقراء بأشكال من الإنفاق الترفى والتبذير والإسراف فى الطعام والملبس والمسكن ومختلف صور الوجاهة الاجتماعية، والمظهرية الكاذبة، ثم الشكوى من الحسد والحاسدين، وإنكار نعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليه.

---

(١) ١١الضحى
(٢) ١٩الذاريات

ومعنى ذلك أن ما يحدث الآن من كثير الناس من افتراض أن الناس تحسدهم على ما منحهم الله من نعم ويتمنون زوالها عنهم، ثم تصرفهم على النحو الذى بيناه، هو من الأخطاء الجسيمة التى يرتكبونها فى حق أنفسهم وفى حق الناس، والتى تسىء إلى التضامن الاجتماعى والتعاون بين المسلمين، وإلى الأخوة الإسلامية، وتشيع فى المجتمع الإسلامى جوا من الشك والريبة وسوء الظن وعدم الثقة. كذلك فإنه لا يصح نسبة الحسد إلى أحد إلا إذا كان قد صدر عنه فعل أو قول يصلحان دليلا على حسده. وبالنسبة للقول فإنه يشترط أن يكون صريحا فى دلالته على الحسد، فلا يصح اللجوء إلى التأويل أو تحميل الكلام أكثر مما يحتمل. وأما الفعل فلا يكفى أن يكون المتهم بالحسد قد تصرف على نحو ما، بل يجب أن تقوم علاقة سببية بين فعله والضرر الذى لحق بالمحسود، وليس كما يحدث الآن من نسبة كل ما يصيب الناس من أضرار أو ما يتهددهم من أخطار إلى من يزعمون أنهم حاسدون حتى كادوا أن يهملوا الأخذ بالأسباب ويوغلوا فى الخرافة إيغالا، وهو ما لايرضى الله ورسوله. فليس من المعقول أن يكون الحسد سببا فى الإصابة بالصداع لمجرد صدور عبارة من شخص ما يبدى فيها إعجابه بشعر شخص آخر. وكذلك آلام الظهر والمفاصل والأسنان. ناهيك عن الخلافات الأسرية التى لم يعمل أحد على خلقها!

ومن هنا نعرف لماذا أورد القرآن الكريم جريمتين من الجرائم التى كان الباعث عليها الحسد، وهو أن يبين للناس أن ضرر الحسد هو فيما يؤدى إليه من ارتكاب الحاسد للجريمة، أما غير ذلك فلا يعتد به.

فماذا بعد أن تم للقاتل ما أراد من إزهاق روح أخيه؟ كان هذا القتل أول قتل وقع من بنى آدم، ولما كان هذا النوع من الخلق ـ أى الإنسان ـ موكولا إلى كسبه واختياره فى عامة أفعاله، لم يعرف القاتل الأول كيف يوارى جثة أخيه المقتول التى يسوءه أن يراها بارزة ـ فالسوأة: ما يسوء ظهوره ـ ورؤية جسد الميت ـ ولا سيما المقتول ـ يسوء كل من ينظر إليه ويوحشه، فما بالنا وهذه هى المرة الأولى التى يفقد فيها إنسان حياته ويراه القاتل أمامه وقد أصبح جثة هامدة لاصوت لها

أو حركة، وهى التى كانت منذ برهة تفيض حياة وحيوية ونشاطا، يروح صاحبها ويجىء، يتكلم ويضحك، ويأكل ويشرب، يتمنى ويحلم؟!. لقد علمنا الله تعالى أن القاتل الأول تعلم دفن أخيه من الغراب، وهذا يدلنا على أن الإنسان فى نشأته الأولى كان فى منتهى السذاجة، وأنه لاستعداده الذى يفضل به سائر أنواع الحيوان كان يستفيد من كل شىء علما واختبارا، ويرتقى بالتدريج.

ذلك بأن الله تعالى بعث غرابا إلى المكان الذى هو فيه فبحث فى الأرض، أى: حفر برجليه فيها يفتش عن شىء، والمعهود أن الطير تفعل ذلك لطلب الطعام، والمتبادر من العبارة أن الغراب أطال البحث فى الأرض؛ لأنه قال «يبحث» ولم يقل بحث. والمضارع يفيد الاستمرار. فلما أطال البحث أحدث حفرة فى الأرض، فلما رأى القاتل الحفرة ـ وهو متحير فى أمر مواراة سوأة أخيه ـ زالت الحيرة واهتدى إلى ما يطلب ـ وهو دفن أخيه فى حفرة فى الأرض ـ يقول رشيد رضا[1]: إن هذا هو المتبادر من الآية. وقال أبو مسلم: إن من عادة الغراب دفن الأشياء، فجاء غراب فدفن شيئا فتعلم منه ذلك، وهذا قريب أيضا، ولكن جمهور المفسرين قالوا: إن الله بعث غرابين لا واحدا. وإنهما اقتتلا فقتل أحدهما الآخر، فحفر بمنقاره ورجليه حفرة ألقاه فيها. وروى أن قابيل لما قتل هابيل جعله فى جراب، ومشى يحمله فى عنقه مائة سنة، قاله مجاهد. وروى ابن القاسم عن مالك أنه حمله سنة واحدة، وقاله ابن عباس. وقيل حمله حتى أنتن لا يدرى ما يصنع به إلى أن اقتدى بالغراب. وقال قوم: كان قابيل يعلم الدفن، ولكن ترك أخاه بالعراء استخفافا به، فبعث الله غرابا يبحث التراب، أى: يهيله على هابيل ليدفنه، فقال عند ذلك: ﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾[2] حيث رأى إكرام الله لهابيل بأن قيض له الغراب حتى واراه. ومصدر هذا الكلام الإسرائيليات، على أن مسألة الغراب والدفن لا ذكر لها فى التوراة. وفى هذه الروايات زيادات كثيرة لا فائدة لها ولا صحة. وفى الخبر عن أنس قال: سمعت

(١) المرجع السابق، صفحة ٢٨٦

(٢) سورة المائدة، من الآية: ٣١

رسول الله ﷺ يقول: «امتن الله على ابن آدم بثلاث بعد ثلاث: **بالريح بعد الروح** (يعنى ما يصيب الجثة من نتن بعد خروج الروح) **فلولا أن الريح يقع بعد الروح ما دفن حميم حميما، وبالدود فى الجثة؛ فلولا أن الدود يقع فى الجثة لاكتنزها الملوك، وكانت خيرا لهم من الدراهم والدنانير**، (كما يحدث الآن فى المومياوات) **وبالموت بعد الكبر، وإن الرجل ليكبر حتى يمل نفسه ويمله أهله وولده وأقرباؤه، فكان الموت أستر له**»[1].

وقد أورد الجاحظ رأيا فى اختيار الله تعالى للغراب ليبعث به لكى يبحث فى الأرض لِيُرِىَ قابيل كيف يوارى سوأة أخيه، وهو أن الله إنما اختاره من بين جميع الطير، على الرغم من سوء حاله وسقوطه، ليجعل ذلك دليلا على حسن حاله وارتفاع مكانه. وأنه كلما كان المُقَرَّعُ به أسفل أتت الموعظة فى ذلك أبلغ. ولو كان فى موضع الغراب رجل صالح، أو إنسان عاقل، لما حسن به (قابيل) أن يقول: يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا العاقل الفاضل الكريم الشريف؟! وإذا كان دونا وحقيرا فقال: أعجزت وأنا إنسان أن أحسن ما يحسنه هذا الطائر، ثم طائر من شرار الطير، وإذا أراه ذلك فى طائر أسود محترق، قبيح الشكل، ردىء المشية، ليس من بهائم الطير المحمودة، ولا من سباعها الشريفة، وهو بعدُ طائر يتنكد به ويتطير منه، آكل جيف، ردىء الصيد. وكلما كان أجهل وأنزل كان أبلغ فى التوبيخ والتقريع[2].

ولما رأى القاتل الغراب يبحث فى الأرض، وتعلم منه سنة الدفن، وظهر له من ضعفه وجهله ما كان غافلا عنه ﴿قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾[3]

ياويلتا: كلمة تحسر وتلهف، وهى تقال عند حلول الدواهى والعظائم. وفى لسان العرب: والويل: حلول الشر. والويلة: الفضيحة والبلية. وقيل: هو التفجع. وإذا قال القائل: ياويلتاه فإنما يعنى وافضيحتاه. والألف فى الكلمة بدل

(١) القرطبى، المرجع السابق، صفحة ١٤٢

(٢) كتاب الحيوان، المجلد ٣، صفحة ٤١١

(٣) المائدة: ٣١

ياء المتكلم، إذ الأصل ياويلتى، والنداء للويلة لإفادة حلول سببها الذى تحل لأجله، حتى كأنه دعاها إليه وقال: أقبلى فقد آن أوان مجيئك. فهل بلغ من عجزى أن كنت دون الغراب علما وتصرفا؟ والاستفهام للإقرار والتحسر. وأما الندم الذى ندمه فهو ما يعرض لكل إنسان عقب ما يصدر عنه من الخطأ فى فعل فعله إذا ظهر له أن فعله كان شرا له لا خيرا. وقد يكون الندم توبة إذا كان سببه الخوف من الله تعالى والتألم من تعدى حدوده، وقصد به الرجوع إليه، وهذا هو المراد بحديث «**الندم توبة**»[1]، وأما الندم الطبيعى فلا يعد وحده توبة، فالتوبة من إحداث البدعة لا تنجى مبتدعها من سوء أثرها. وفى حديث ابن مسعود فى الصحيحين مرفوعا: «**لاتقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم كفل** (نصيب) **من دمها؛ لأنه أول من سن القتل**».

ومن النتائج الهامة التى أسفرت عنها هذه الجريمة البشعة ما فرضه الله تعالى على بنى إسرائيل، وذلك فى قوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[2]

أى أنه بسبب ذلك الجرم والقتل الذى ارتكبه أحد هذين الأخوين ظلما وعدوانا ـ لا بسبب آخر ـ كتبنا وفرضنا على بنى إسرائيل أن من قتل نفسا بغير سبب القصاص الذى شرعه الله تعالى فى قوله الآتى فى هذه السورة: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾[3]

أى من قتل نفسا يقتل بها جزاء وفاقا. أو بغير سبب الإفساد فى الأرض بسلب الأمن، والخروج على أئمة العدل، وإهلاك الحرث والنسل، كما تفعله العصابات المسلحة لقتل الأنفس ونهب الأموال، أو إفساد الأمر على ذى السلطان المقيم لحدود الله ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ لأن الواحد يمثل النوع فى جملته،

(١) رواه أحمد، والبخارى فى تاريخه، والحاكم، والبيهقى، ورمز له فى الجامع الصغير بالصحة.
(٢) المائدة: ٣٢
(٣) ٤٥ المائدة

فمن استحل دمه بغير حق يستحل دم كل واحد كذلك؛ لأنه مثله، فتكون نفسه ضارية بالبغي لا وازع لها من ذاتها ولا من الدين ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أى ومن كان سببا لحياة نفس واحدة ـ بإنقاذها من موت كانت مشرفة عليه ـ فكأنما أحيا الناس جميعا؛ لأن الباعث له على إنقاذ الواحدة ـ وهو الرحمة والشفقة ، ومعرفة قيمة الحياة الإنسانية واحترامها، والوقوف عند حدود الشريعة فى حقوقها ـ تندغم فيه جميع حقوق الناس عليه، فهو دليل على أنه إذا استطاع أن ينقذهم كلهم من هلكة يراهم مشرفين على الوقوع فيها لا ينى فى ذلك ولا يدخر وسعا. ومن كان كذلك لايقصر فى حق من حقوق البشر عليه. ويلزم من ذلك أنه لوكان جميع الناس أو أكثرهم مثل ذلك الذى قتل نفسا واحدة بغير حق لكانوا عرضة للهلاك بالقتل فى كل وقت، ولو كانوا مثل ذلك الذى أحيا نفسا واحدة احتراما لها، وقياما بحقوقها، لامتنع القتل بغير الحق فى الأرض، وعاش الناس متعاونين، بل إخوانا متحابين متوادين. فالآية تعلمنا وحدة البشر، وحرص كل منهم على حياة الجميع، واتقاءه ضرر كل فرد؛ لأن انتهاك حرمة الفرد انتهاك لحرمة الجميع، والقيام بحق الفرد من حيث إنه عضو من النوع، وما قرر له من حقوق المساواة فى الشرع، قيام بحق الجميع.[1] ومن المقارنة بين ما كتبه الله على بنى إسرائيل فى هذه الآية وبين ما ورد فى التوراة:[2] لما قتل قايين هابيل لعنه الرب وطرده عن وجه الأرض، فندم واسترحم الرب، وخاف أن يقتله كل من وجده (فقال له الرب: لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه، وجعل الرب لقايين علامة لكى لا يقتله كل من وجده، فخرج قايين من لدن الرب وسكن فى أرض نود شرقى عدن). وهذا من ضمن أكاذيبهم التى أدخلوها على التوراة، فما كان الله تعالى ليغفر لقابيل جنايته العظمى فضلا عن أن ينتقم ممن يقتله سبعة أضعاف، وإنما هى شريعة

(١) رشيد رضا، المرجع السابق، صفحة ٢٩٩
(٢) تكوين، إصحاح ١٥

القصاص التى فرضها الله تعالى على بنى إسرائيل يوم أن كانوا هم أهل الكتاب الوحيدون فى هذه الدنيا، وجعلها قاعدة عامة لا استثناء عليها لأى إنسان مهما كانت مكانته فى المجتمع. فما بالنا وقد قتل ابن آدم أخاه عن إصرار وبدون أن يكون قد أساء إليه؟!

وهكذا نجد أن قصة هذه الجريمة قدمت لنا الكثير من العظات والعبر، التى منها: أن الحسد يكون بين الإخوة، ربما بأكثر مما يكون بين غيرهم، وأنه قد يؤدى إلى الجريمة مما يستوجب أن يكون الإخوة الذين يستهدفون لحسد إخوتهم على حذر فى التعامل معهم، وأن يتجنبوا ـ بقدر ما يستطيعون ـ المواقف التى تنذر بصدام لا تحمد عواقبه، فلقد رأينا كيف أن محاولة هابيل لاحتواء غضب أخيه الناشىء عن الحسد لم تنجح فى تهدئته فأصر على قتله دون ذنب جناه. كذلك فإن الإخوة الذين يحسدون إخوتهم ويفكرون فى الإساءة إليهم إرضاء لمشاعر الحسد التى تفترسهم، عليهم أن يترووا فيما يفكرون فى الإقدام عليه من أفعال ضد إخوتهم، وليتذكروا ما حدث للأخ القاتل الذى لم تفده الجريمة بشىء، وكان قد ظن أنه باختفاء أخيه ستطيب له الحياة وينال ما كان يظن أن أخاه يحصل عليه دونه، ولكن تبين له خطأ تفكيره وسوء تدبيره فخسر الدنيا والآخرة.

ومما تعلمناه من هذه القصة أن الله تعالى علم الإنسان ـ ويعلمه ـ كل ما فيه مصلحة له. فلما قتل قابيل هابيل ـ الذى كان أول شخص يموت من البشر ـ لم يدر كيف يتصرف فى جثة أخيه، فبعث الله إليه الغراب ليريه ما يجب عليه أن يفعله، فلما رأى ذلك أدرك مدى ضآلته وجهله ـ وهو الإنسان ذو العقل ـ أمام الغراب الذى يعد من أقبح أنواع الطيور وأقلها ذكاء!

الفصل الثانى

شروع فى قتل نبى

تمهيد

هذه الجريمة واحدة من جريمتين وقعتا على شخص واحد هو يوسف ـ عليه السلام ـ أما الثانية وهى شروع فى اغتصاب ـ إذا صح استخدام هذه الكلمة ـ فسنعرضها فيما بعد. وسيلاحظ القارىء الكريم وهو يقرأ أحداث هذه الجريمة كيف أن القرآن الكريم بمنهجه فى الأداء الفنى للقصة لم يكتف بعرض الشخصية الرئيسية فى هذه الجريمة، وهى شخصية يوسف ـ عليه السلام ـ بل وعرض أيضا شخصيات أخرى كان لها دور فيها، وحرص على أن يمنح كل شخصية منها المساحة التى تستحقها من رقعة العرض، وأن يضعها على أبعاد متفاوتة من مركز الرؤية، وفى أوضاع خاصة من الأضواء والظلال، مع التزام دقيق بالحقائق، واهتمام شديد بالجوانب النفسية وتقلباتها إزاء المواقف المختلفة. وذلك فى نماذج متنوعة يأتى فى مقدمتها نموذج يعقوب ـ عليه السلام ـ الأب الطيب المحب الحائر فى أمر أبنائه الذين عجزوا عن إدراك حقيقة مشاعره نحوهم، وفسروها على أن بها انحيازا نحو أخويهما غير الشقيقين. ثم نموذج هؤلاء الأبناء، وعددهم عشرة، الذين تحكمت فيهم هواتف الغيرة والحسد والحقد والمؤامرة والمناورة، ومواجهة آثار الجريمة، والضعف والحيرة أمام هذه المواجهة. وقد ميز فيهم أحدهم بشخصية متسقة السمات فى كل مراحل القصة ومواقفها، قيل إنه أكبر أبناء يعقوب المدعو «رأوبين» وهو ما ترددنا فى قبوله للأسباب التى سنوردها فى عرضنا لشخصيات المساهمين فى الجريمة، رجحنا أن يكون أحد أبناء يعقوب الآخرين.

كذلك بين لنا القرآن كيف تطورت مشاعر إخوة يوسف نحوه شيئا فشيئا، فبعد

أن كان حقدهم عليه صغيرا، وغيرتهم منه قليلة، أخذت هذه المشاعر تكبر وتتضخم ويشتد ثقلها على نفوسهم، ووطأتها على قلوبهم، فلم يجدوا ما يخلصهم منها غير التخلص من أخيهم وهم يخدعون ضمائرهم ـ التى نال منها الحسد، وكاد الحقد أن يميتها ـ بمبرر ساذج ظنوا أنه كفيل بإضفاء الشرعية على جريمتهم.

كذلك عرض لنا القرآن المراحل التى تمر بها الجريمة ابتداء من التفكير والتشاور، إذا تعدد مرتكبوها، مرورا بالإعداد الذى يسبق التنفيذ، فالتنفيذ على مسرح الجريمة، ثم انتقل بنا إلى ما بعد التنفيذ حيث التحقيق والبحث فى الأدلة المقدمة، وأخيرا الحكم.

وكنا قد تناولنا فى الفصل الأول جريمة القتل التى ارتكبها أحد ابنى آدم عليه السلام (قابيل) والتى راح ضحية لها أخوه هابيل، فكان بذلك أول قتيل من بنى آدم على هذه الأرض. وفى هذا الفصل نتناول جريمة أخرى كادت أن تكون قتلا لولا أن أحد المتآمرين اقترح العدول عن القتل إلى إلقاء الضحية فى الجب؛ لأن ذلك ـ من وجهة نظره ـ يكفى لتحقيق الغرض الذى جرى التدبير لارتكاب الجريمة من أجل بلوغه.

وكما هو معروف فإن هذه الجريمة ـ كسابقتها ـ وقعت من إخوة على أخ لهم، والجميع أبناء نبى كريم هو يعقوب ـ عليه السلام ـ وفى ذلك إشارة من الله تعالى إلى أن علاقة الأخوة ليست بذاتها مانعة من اعتداء الإخوة على بعضهم، بل هى على خلاف ما يتصوره الناس قد تكون ـ فى أحوال كثيرة ـ سببا فى وقوع الاعتداء، وذلك للأسباب الآتية:

أولا ـ أن الإخوة والأخوات ـ على خلاف غيرهم من الناس ـ يقيمون فى بيت واحد، ويقضون معا وقتا طويلا مما يجعلهم مطلعين على أحوال بعضهم البعض، فإذا حصل واحد منهم على شىء رغب الآخر فى الحصول على مثله، وإذا نال أحدهم ميزة أراد الآخرون أن ينالوا مثلها بغض النظر عن الأسباب التى

حصل من أجلها هذا الأخ على الشيء، أو نال من أجلها الآخر الميزة، فالمنافسة بينهم قائمة مستمرة، وقد تتحول إلى صراع يبدأ خفيا ثم لا يلبث أن يظهر فى شكل أو آخر.

ثانيا ـ أن الحسد بين الأبناء يفوق فى شدته وخطره ما يكون منه بين الأغراب؛ لأن هؤلاء يرون النعمة التى تثير غيرتهم مرة أو مرتين أو أكثر فيتمنون زوالها عن صاحبها فى لحظتها، وقد لا يلتقون به ثانية فينسونه، أما الأبناء فإنهم بحكم حياتهم معا يرون هذه النعمة ليلا ونهارا، صباحا ومساء، فيتجدد حسدهم ويستعر ضيقهم بصاحب النعمة ونقمتهم عليه حتى ليفكرون فى أن يتخذوا إجراء ما لانتزاع هذه النعمة منه، والحصول عليها لأنفسهم. وكنا قد تناولنا موضوع الحسد فى الفصل السابق باستفاضة، وكل ما فيه ينطبق على هذه الحالة كما سنرى.

ثالثا ـ أن الأبناء ـ قبل أن يبلغوا سن الرشد ـ يكونون عاجزين عن إدراك الدوافع الحقيقية وراء تصرف الآباء على نحو يختلف من هذا الابن إلى ذاك مثل صغر السن والمرض والضعف وغير ذلك من الأسباب التى تجعل الآباء يمنحون قدرا أكبر من الاهتمام لأحد أبنائهم دون الآخرين، أو يظهرون مزيدا من الحب نحوه والعطف عليه ومد يد المساعدة إليه، وإنما يريدون أن يساوى الآباء بينهم فى المعاملة بطريقة حسابية هى بطبيعتها مما لا يلائم العواطف والمشاعر. ومن هنا فإنهم يحسدون أخاهم الذى نال أكثر مما نالوا غير ملتفتين إلى أن ذلك كان بسبب مرضه أو صغر سنه أو ضعفه، فكل هذه الأمور ـ من وجهة نظرهم ـ هى من قبيل المبررات التى يفتعلها الآباء لإقناعهم بسلوكهم الذى يفتقر إلى العدل ولا يراعى المساواة.

كذلك فإن من العبر الهامة التى تقدمها لنا هذه الجريمة: أن الآباء لايورثون أبناءهم صفاتهم الطيبة وخصالهم الحميدة وطباعهم الحسنة، فبنوة إخوة يوسف لنبى كريم لا تعنى أنهم ورثوا عنه الخلق العظيم والأدب الجم والأمانة والصدق وكل ما يتصف به الأنبياء؛ لأن هذه الأمور لا تورث، بل تكتسب، وإنما هم

شأنهم شأن غيرهم من الأبناء يتأثرون بكل ما يقع من حولهم من تصرفات وأحداث، سواء فى داخل البيت، حيث يعيشون مع أسرهم، أو خارجه حيث يتصلون بنظرائهم من الصحاب وأبناء الجيران وغيرهم فينقلون عنهم ويحاكونهم.

وتختلف الجريمة التى نتناولها فى هذا الفصل عن كل ما اشتمل عليه القرآن الكريم من الجرائم بوفرة المعلومات ودقة البيانات المتعلقة بالجريمة؛ فقد تناول القرآن ما يسمى بالباعث على ارتكاب الجريمة، وكيف دبر الجناة لارتكابها، وحالتهم العقلية والشعورية أثناء ارتكابهم لها وتخطيطهم المتقن من أجل أن تكون الجريمة كاملة لا يمكن اكتشافها، لا من جانب الأب الذى وثق بهم ووافق على أن يصحبهم أخوهم إلى حيث يلعبون ويرتعون، ولا من جانب الأخ الذى اطمأنوا إلى أنه سيختفى إلى الأبد فلا يواجههم بجرمهم، ولكنهم نسوا أن هناك من لا يغفل ولا ينام ولا تخفى عليه خافية، المطلع على ما فى صدورهم، العليم بنواياهم!!

الأسرة التى وقعت فيها الجريمة:

وقعت الجريمة فى أسرة كبيرة العدد تتكون من اثنى عشر ولدا غير البنات، وأربع زوجات أو أمهات، والزوج، وهو فى الوقت نفسه أبو هؤلاء الأبناء جميعا، نبى ابن نبى: هو إسحاق وحفيد نبى: هو إبراهيم ـ عليهم جميعا السلام ـ أما الزوجات الأربع فإن اثنتين منهما كانتا أختين وابنتى خال الزوج. فلم يكن الزواج بأختين محرما فى ذلك الوقت. وأما الزوجتان الأخريان فكانتا أَمَتَيْنِ مملوكتين لخال الزوج قبل أن يتزوج بهما يعقوب ـ عليه السلام ـ تعمل كل واحدة منهما لدى إحدى الزوجتين الأختين.

ولزواج يعقوب بهؤلاء النساء قصة طريفة، وردت فى التوراة،[1] سنوردها لكى نبين ملابسات زواجه بالأربع واحدة بعد الأخرى، وكيف كانت طبيعة العلاقات بينهن من ناحية وبين أبنائهن من ناحية أخرى.

---

(١) سفر التكوين، من الإصحاح ٢٥ إلى الإصحاح ٣٧

تزوج يعقوب أولا بمن كانت تدعى (ليئة) وهى ابنة خاله (لابان) وكان زواجه بها نتيجة لخدعة دبرها له خاله. ذلك أن يعقوب لما رحل ليلحق بهذا الخال هربا من أخيه عيسو، رأى راحيل الابنة الصغرى لخاله فأعجب بها، ورغب فى أن يتزوجها، ولكن لأنه لم يكن يملك صداقها فإنه عرض على أبيها أن يعمل لديه سبع سنين كاملة، على أن يكون أجره نظير هذا العمل بمثابة صداق لها. وكانت راحيل على جانب كبير من الحسن بخلاف أختها الكبرى ليئة التى كانت ـ فضلا عن تواضع نصيبها من الجمال ـ مصابة بضعف فى عينيها. ويبدو أن هذا ما جعل الأب يقدمها إلى يعقوب ليلة الزفاف على أنها راحيل، فدخل بها معتقدا أنها هى، فلما اكتشف فى الصباح أنها ليئة عاتب خاله بشدة، فما كان من هذا إلا أن قال له إن من عادتهم ألا يزوجوا البنت الصغرى قبل الكبرى، ثم اقترح عليه أن يعمل لديه سبع سنوات أخرى يزوجه بها راحيل، فوافق يعقوب، وزوجه خاله ابنته الصغرى أيضا بعد أسبوع واحد من دخوله بالأخت الكبرى، وقبل أن يعمل المدة المتفق عليها وهى سبع سنوات، وربما يكون قد فعل ذلك لثقته فيه بعد أن خبره فى المرة الأولى، أو ليحل المشكلة التى أوقع فيها ابنته راحيل. ولكن للزمخشرى رأى آخر، وهو أن يعقوب تزوج براحيل بعد وفاة أختها ليئة، فولدت له بنيامين ويوسف[1] وهو ما يتعارض مع ما جاء فى التوراة على نحو ما أسلفنا، وهو الصحيح.

وعلى هذا يكون تأويل الشمس والقمر فى الرؤيا التى رآها يوسف أنهما أبوه وخالته ليئة، حيث إن أمه كانت قد ماتت بعد ولادة أخيه بنيامين، وقبل أن يرى الرؤيا بزمن. غير أن الفقهاء المسلمين اختلفوا بشأن هذه المسألة، فمنهم من قال إن الشمس والقمر أبواه، والكواكب إخوته، وهو قول لابن عباس رواه السدى، وأحد قولين لقتادة وما قاله ابن جريج وسفيان والضحاك[2] أما القول الآخر لابن عباس فهو أن الشمس خالته والقمر أبوه، وأضاف قتادة: لأن أمه كانت قد ماتت، وكانت خالته تحت أبيه[3]

---

(١) الكشاف، ج ٢، ص ٣٠٤

(٢) الطبرى، جامع البيان فى تفسير القرآن، ج ١٢، ص ٩١

(٣) القرطبى، الجامع لأحكام القرآن، ج ٩، ص ١٢٢

وأعطى لابان كل بنت منهما جارية من جواريه لتخدمها. ولم تلبث ليئة أن حملت من يعقوب ثم أنجبت له أول أبنائه وأسمته راؤبين، فى حين لم تحمل راحيل ولم تنجب. وبطبيعة الحال فإن ليئة أحبت ابنها البكر حبا شديدا؛ لأنه بمجيئه وطد مكانتها لدى يعقوب، ورفع أسهمها. ثم حملت للمرة الثانية وأنجبت ولدا أسمته شمعون، ثم أتبعته بالولد الثالث الذى أسمته لاوى، فبلغت قمة السعادة وأخذت تزهو على أختها العاقر راحيل، وتتحدث عن رضاء الله عليها وحب زوجها لها، مما يدل على أن العلاقة بين الأختين الزوجتين لم تكن على ما يرام. فمن ناحية نقمت راحيل على ليئة لما دسها أبوها مكانها على أنها هى فدخل بها يعقوب، ثم نقمت عليها لما أخذت تحمل وتلد إلى أن بلغ عدد أولادها ثلاثة كلهم ذكور، الأمر الذى كان له أطيب الأثر فى نفس يعقوب. ولكن ليئة ما لبثت أن أنجبت الابن الرابع فأسمته يهوذا، وتوقفت بعد ذلك عن الإنجاب.

أما راحيل فإنها لما رأت الاهتمام الشديد من جانب يعقوب بأختها ليئة أم أولاده تأججت غيرتها، وأرادت أن يكون لها أولاد هى الأخرى، فاقترحت عليه أن تزوجه جاريتها (بلهة) فتحمل وتلد ولدا يكون لها، وهو ما سبق أن فعلته السيدة سارة قبل أن تلد إسحاق ـ عليه السلام ـ حيث زوجت جاريتها هاجر لزوجها إبراهيم ـ عليه السلام ـ فلما تزوج يعقوب (بلهة) حملت منه وأنجبت ولدا أسمته راحيلُ «دانا» ثم حملت (بلهة) مرة أخرى وأنجبت ولدا أسمته «نفتالى». ولكن هل توقف الصراع بين الأختين وخفت حدة الغيرة؟! كلا! فإن ليئة التى كانت قد أنجبت بنفسها أربعة أولاد غارت من أختها، وعمدت إلى تزويج جاريتها (زلفة) ليعقوب لكى تنجب منه أولادا. وبالفعل لم تلبث أن حملت منه ثم أنجبت ابنا أسمته «جادا». ثم أتبعته بثان أسمته «أشير».

وهكذا أصبح ليعقوب ثمانية من الأبناء، أربعة من ليئة، واثنان من كل جارية، وإن كان الأربعة ينسبان إلى الأختين. ثم عادت ليئة إلى الإنجاب فولدت ليعقوب ولدين على التعاقب، أسمت الأول «يساكر» والثاني «زبولون» فأصبحت أما لستة أبناء ذكور، ثم أنجبت بنتا أسمتها (دينة). أما راحيل فإنها لما رأت ذلك

أخذت تبتهل إلى الله لكى يمنحها طفلا، فاستجاب لها الله تعالى وحملت ثم أنجبت ولدا أسمته «يوسف». وبعد أن انفصل يعقوب عن خاله لابان وتنقل فى البلاد حملت راحيل للمرة الثانية، غير أنها ماتت بعد أن ولدت ثانى أبنائها الذى دعته «بنيامين». وهكذا أصبح يوسف وأخوه الشقيق بنيامين يتيمين بلا أم فتكفلت بتربيتهما الجاريتان (بلهة) و(زلفة) وإن كانت (بلهة) قد قامت بالعبء الأكبر فى تربيتهما وفاء منها لسيدتها راحيل.

ويتضح مما سبق أن العلاقات بين الأختين ليئة وراحيل لم تكن طيبة، حتى من قبل أن تتزوجا، وذلك بسبب التفاوت الشديد بينهما فى درجة الجمال وما أصاب ليئة من ضعف فى عينيها، الأمر الذى جعلها تغار من أختها بل وتحسدها على الجمال وقوة الإبصار، يدل على ذلك مبادرتها إلى تنفيذ المكيدة التى دبرها الأب لدسها على يعقوب بدلا من أختها راحيل التى كان قد خطبها لمدة سبع سنوات، عمل فيها بإخلاص ودأب لكى يفوز بها، ولكن الأب خدعه بهذه الطريقة الخسيسة. وقد تكون ليئة لعبت دورا فى هذه المكيدة بحيث دفعت الأب إلى خداع يعقوب، كأن تكون بكت وندبت حظها فأشفق الأب عليها وقرر أن يفعل ما فعل. وكيفما كان الأمر فإنه يكفى أنها قبلت أن تستولى على خطيب أختها لنفسها غير عابئة بما قد يترتب على هذا التصرف من نتائج.

ومما يؤكد عمق كراهيتها لأختها أنها ـ حتى بعد أن استولت على خطيبها وتزوجته ـ ظلت تحسدها وتغار منها وتتمنى أن تظل متفوقة عليها، وذلك بالإنجاب لكى ترضى زوجها وتستأثر بحبه واهتمامه. وما من مرة أنجبت فيها ابنا إلا وقالت كلاما يفهم منه أنها تعتبر ذلك نصرا لها على أختها التى لم يشأ الله تعالى أن تنجب، ولا تتورع عن أن تتشفى فيها بدلا من أن تشفق عليها وتراعى خاطرها فى محنتها التى تركت أثرا واضحا عليها، لاشك أن ليئة كانت تلاحظه بسهولة حيث إنهم جميعا كانوا يقيمون على مقربة من بعضهم فى الأرض الواسعة التى كان الأب يمتلكها.

ليس ذلك وحسب، بل إن ليئة هذه إمعانا منها فى الغيرة من أختها لم تتورع - وهى التى أنجبت أربعة أبناء - عن أن تطلب من زوجها أن يتزوج جاريتها لكى ينجب منها كما فعلت راحيل التى زوجته من جاريتها لتنجب لها بعد أن عجزت عن الإنجاب!.

ولنا أن نتصور ما كانت عليه هذه المرأة من صفات سيئة وخصال قبيحة تجمع بين الغيرة العمياء والحقد الأسود والحسد والطمع والشراهة، فضلا عن الأنانية الشديدة وحب الذات والانتهازية المفرطة، وأنها - للأسف الشديد - أنجبت ستة أبناء هم نصف العدد الإجمالى لأبناء يعقوب - عليه السلام - تربوا فى حضنها ونشأوا فى كنفها؛ فتأثروا بما كان فيها من عيوب، وتشربوا بما كان لديها من ميول عدوانية وعادات سيئة وسوء خلق.

فإذا أضفنا إلى ذلك ما كان عليه جدهم المدعو (لابان) من لؤم وخسة كشفت عنهما تصرفاته الكثيرة التى من بينها خداعه لابن أخته يعقوب بأن دس عليه ابنته القبيحة سيئة الطباع بدلا من أختها، ثم مغالطته له فيما له من حق عنده، ومحاولاته المستمرة لخداعه والاحتيال عليه دون وازع من دين أو ضمير لعرفنا أى تنشئة سيئة تلك التى نشأ عليها أبناء (ليئة) الستة، وأنهم فى حسدهم لأخيهم يوسف لم يأتوا بجديد، وإنما هى التنشئة الفاسدة التى اضطلع بالعبء الأكبر فيها الأم والجد، حيث كان الأب - وهو يعقوب - يقضى يومه بعيدا عن البيت يرعى غنم خاله ويحرسها له أثناء تنقله بها من مرعى إلى مرعى وهو مطمئن إلى أن زوجاته وأولاده فى رعاية خاله الذى لم يكن يعمل شيئا غير تحصيل المال واكتنازه.

علاقة الزوجتين بأبيهما «لابان»:

أمثال هذا الرجل (لابان) لايحظون عادة بحب أولادهم لهم، بل غالبا ما يكون نصيبهم منهم الكراهية والاحتقار والطمع فيهم وتمنى الشر لهم وترقب موتهم؛ لكى يحصلوا على ثرواتهم. وهذا بالضبط ما حدث للابان من ابنتيه،

فعندما قرر يعقوب الرحيل تاركا خاله بعد أن وفى له بما كان قد التزم به نحوه ووجد أنه يستغله. دعا زوجتيه ـ ابنتى لابان ـ إلى الحقل ليكلمهما فى أمر رحيله بعيدا عن أبيهما، وكان مما قاله لهما: إن معاملة أبيهما له قد تغيرت إلى الأسوأ، وأنهما يعلمان كيف أنه خدمه بكل إخلاص وتفان، ولكنه غدر به وخفض أجره المرة تلو المرة، وكلما تعاهدا على أمر نقضه ظلما له وإجحافا به، ولكن الله تعالى وقف إلى جانبه وأرشده إلى ما يجب عمله لكى يحصل على حقه كاملا من الغنم التى يملكها خاله لابان، وذلك نظير أجره الذى أنكره عليه. فماذا كان جواب البنتين؟ قالتا له إنهما أيضا لهما نصيب وميراث فى بيت أبيهما الذى جعلهما تشعران كما لو كانتا غريبتين عنه بعد أن باعهما وأكل ثمنهما، تقصدان تزويجه لهما مقابل عمل يعقوب له، وأضافتا قائلتين: إن كل الغنى الذى سلبه الله من أبينا هو لنا ولأولادنا، فافعل كل ما أمرك به الله.

وهكذا تظهر كراهية البنتين لأبيهما الطماع الجشع، وتشجعان زوجهما على أخذ ما لدى هذا الأب من مال نظير عمله له لمدة بلغت عشرين عاما. وبغض النظر عن أن يعقوب كان على حق تماما فيما عزم على القيام به، فإن تصرف البنتين على هذا النحو جاء على غير المتوقع لو أن علاقتهما بأبيهما كانت طيبة، كأن ينصحا زوجهما بأن يتفاهم معه، أو بأن يعداه بالسعى لديه لكى يعطيه حقه، ولكن الذى رأيناه هو أنهما انتهزتا الفرصة لكى تؤكدا حقهما فى هذا المال بل وحق أبنائهما فيه، فكأنهما أرادتا أن يفهم يعقوب أن المال ليس له وحده، بل إن لهما فيه مثلما له، ولأبنائهما أيضا. فإذا كان هذا هو اتجاه تفكيرهما منذ البداية فلا شك أن ما أصبح ليعقوب من ثروة كبيرة فيما بعد قد ألهب الصراع بين الأختين من أجل ضمان أن يحصل أولاد كل منهما على أكبر قدر من هذه الثروة، إن لم يكن كلها. خاصة وأنهما سبق أن صارحتا يعقوب بحق أولادهما فيها، ولم يناقشهما فيما قالتاه؛ فكأنه سلم بذلك، وبطبيعة الحال فإن ليئة ذات الأولاد الستة كانت هى صاحبة الكفة الراجحة لأن أولادها سيحصلون على نصف الثروة على الأقل، أما إذا مات أحد الإخوة الستة الآخرين غير الأشقاء أو اختفى، فإن نصيبهم سوف يزيد؛ لذلك فإن حُبَّ يعقوب ليوسف لم يكن هو

وحده السبب فى غيرتهم منه وحسدهم له ورغبتهم فى التخلص منه، وإنما كان هناك الخوف من أن يترجم يعقوب هذا الحب إلى شىء آخر هو أن يخص يوسف بثروته وتركته كما فعل جدهما إسحاق من قبل مع أبيهم، مما أوغر صدر أخيه عيسو عليه، فعزم على قتله، مما دفعه إلى الفرار منه، فذهب إلى خاله لابان.

علاقة الإخوة ببعضهم:

لاشك أن العلاقات السيئة والمتوترة بين الأختين ليئة وراحيل انعكست على العلاقات بين أبنائهما، صحيح أن «دانا» و«نفتالى» لم يكونا أبناء حقيقيين لراحيل وإنما أنجبتهما لها جاريتها «بلهة» ومع ذلك فلا يستبعد أن تكون قد استخدمتهما فى الصراع الذى نشب بينها وبين أختها، ورغبت فى أن تضمن لهما حقوقا مثل حقوق رأوبين وإخوته، ولم لا وهما ابناها، مثلما أن «دانا» و«نفتالى» ابنان لراحيل؟! وهكذا أصبح الاثنان فى جانب وأولاد ليئة وجاريتها زلفة: جادا وآشير، فى جانب، وإن كنا نرجح أن يكون انتماء أبناء بلهة وزلفة إليهما وهما جاريتان قد أوجد بينهما رابطة خفية نابعة من إحساسهم بأنهم أقل شأنا من إخوتهم غير الأشقاء، وأدنى مكانة، أو ما يسمى الإحساس بالدونية، الأمر الذى جعلهم يتعاطفون مع بعضهم، ولو فى الخفاء. أما فى العلن فإنهم كانوا يتعاملون معهم بطريقة تنم عن خضوع كامل لهم، أو لِنَقُلْ تبعية شديدة، فإذا عزموا على القيام بعمل انضموا إليهم فيه، كما حدث لما دعاهم رأوبين للهجوم على إحدى القرى للانتقام من سكانها فاستجابوا له وفاجأوا القرية والناس نيام، فقتلوا رجالها غيلة، وسَبَوْا نساءها وأطفالها، ونفس الشىء لما عزموا على قتل يوسف. وإن كنا نرجح أن الذى اقترح الاكتفاء بإلقاء يوسف فى الجب كان واحدا منهم وليس من أبناء ليئة.

كذلك فإن أبناء ليئة ـ وبالذات الذين ولدتهم أولا وهم رأوبين وشمعون ولاوى ـ كانوا قد سمعوا من أمهم، ثم بعد ذلك من أبيهم عن الخلاف الشديد الذى كان لايزال محتدما بينه وبين أخيه عيسو، وهو توأم يعقوب الذى يدعى

أحقيته بخلافة والدهما إسحاق فى زعامة الأسرة وفى النبوة، فَوَعَوُا الدرس، أو على الأقل وعاه أحدهم، ونرجح أن يكون رأوبين بكر والديه والمفضل لدى أمهم، والذى كانت تعده لخلافة يعقوب نكاية فى أختها راحيل؛ ولاعتقادها بأن كونها البنت الكبرى والتى سبقت إلى الزواج بيعقوب، وأول من أنجب له، يعطيها الحق فى أن تكون أم زعيم الأسرة ونبى القوم، فخافوا - أى الأم وأبناؤها - أن يتكرر ما حدث لعيسو، أو حدث منه، فقرروا أن يبدأوا مبكرين مع أبناء يعقوب من راحيل؛ لكى يحولوا دون أن يحصل أحدهم على الرئاسة والنبوة.

كان طبيعيا - وقد ماتت الزوجة الجميلة راحيل التى كان يعقوب يحبها، وربما يكون حبه لها قد تضاعف بعد ما تحملته من عناء وإحباط، سواء لزواجه بأختها نتيجة للمكيدة التى دبرها خاله، أو لعدم حملها وإنجابها وشماتة أختها التى كانت تكرهها وتغار منها وتكيد لها - أن يحزن يعقوب بشدة، وينطوى على نفسه يضم إليه ابنيها منه: يوسف وبنيامين، يحيطهما بحبه تعويضا لهما عن أمهما التى فقداها، ويبذل لهما رعايته نظرا لصغر سنهما بالمقارنة بأعمار إخوتهم العشرة الذين كانوا قد شبوا عن الطوق وأصبحوا رجالا وشبابا أقوياء، فرأوبين ابنه البكر كان قد أصبح فى عداد الرجال. يقوم بما كان أبوه يقوم به من رعى الغنم والسهر على شئون الأسرة، يساعده إخوته التسعة الآخرون، على تفاوت فى الجهد يرجع إلى تفاوت أعمارهم. وكان رأوبين - على ما يبدو - يعمل بجد ونشاط لكى يقنع أباه أنه الأفضل والذى لا غنى له عنه من بين أبنائه جميعا، ويعد نفسه فى ذات الوقت ليكون خليفته. كذلك فإن الأم التى أصبحت بلا منافس بعد موت أختها راحيل عملت من جانبها على أن يكون لأولادها المكانة المرموقة واليد العليا، وحرصت بشدة على أن يظلوا متضامنين متماسكين أمام إخوتهم غير الأشقاء، وأن يجعلوا قيادتهم إلى أخيهم الأكبر رأوبين يطيعونه فيما يأمرهم به ولا يشقون عليه عصا الطاعة.

ويبدو أن وقوف الأم إلى جانب رأوبين لم يكن السبب فيه أنه بكرها فقط، وإنما كانت هناك أسباب أخرى دعمت هذا الاختيار، منها أن رأوبين كان يحمل

من صفات أمه الكثير، كالحسد والحقد والطمع والجشع وفساد الضمير، كما كان مدللا أنانيا لا يفكر إلا فى ذاته، وذلك نتيجة للطريقة التى اتبعتها فى تربيتها له باعتباره بكر أبيه وخليفته الذى سيئول إليه الأمر من بعده، ومنها أيضا أنه كان عنيفا عدوانيا فاسدا لا يتورع عن القتل، وهو ما فعله بأهل القرية التى قيل إن ابن زعيمها اغتصب أخته دينة، ثم رغب فى الزواج بها تصحيحا لخطئه، كما عرض أبوه على يعقوب وبنيه أن يتصاهر الفريقان، ويعيشون معا فى سلام وأمان، فما كان من رأوبين إلا أن تظاهر بقبول الاقتراح، ثم فاجأ القرية هو وإخوته فأعملوا السيوف فى رقاب رجالها، ثم نهبوا القرية وسَبَوْا النساء والأطفال. ولما علم يعقوب ـ عليه السلام ـ بما فعله ابنه لامه بشدة قائلا إن تصرفه على هذا النحو كدر حياته، وأظهره أمام الناس فى صورة الذى لا يفى بالعهد، ولكن ابنه لم يبال. كذلك جاء فى التوراة أن رأوبين هذا انتهز فرصة وجود أبيه بعيدا عن البيت وذهب إلى سريته (بلهة) أم أخويه دانا ونفتالى فضاجعها، وعلم يعقوب وحزن لذلك. و(بلهة) هذه كانت جارية راحيل أم يوسف ـ عليه السلام ـ واختياره لها ليزنى بها لا يخلو من مغزى كذلك؛ فإنها هى التى تكفلت بيوسف وأخيه بنيامين بعد موت أمهما. ولما أن كانت التوراة تصف الاغتصاب بأنه إذلال للمرأة، وأحيانا تستخدم كلمة (أذلها) بمعنى (اغتصبها)، فإن ما فعله رأوبين هذا ليس منبت الصلة بموقف أمه من أختها راحيل والذى يمتد إلى جاريتها التى أدى موت سيدتها إلى بقائها بدون حماية فى مواجهة ليئة وأبنائها، وعلى رأسهم رأوبين. ولاننسى الأثر الذى أحدثه هذا الاعتداء البشع فى نفس ابْنَىْ (بلهة) أَخَوَىْ رأوبين غير الشقيقين.

أما يعقوب ـ عليه السلام ـ فيبدو أنه كان قد تقدم فى السن، وأصابه الضعف، أو أن اليأس من إصلاح حال زوجته ليئة كان قد بلغ مداه. فبعد أن أصبح أكبر أبنائها فى عداد الرجال استعصت على زوجها مستغلة هؤلاء الأبناء الذين كانت قد أقنعتهم بأنها إنما تواجه أباهم حماية لهم ولمصالحهم التى يهددها أخواهما من أختها راحيل، وتنصحهم بالانتباه إلى ما يدبره أبوهم لمصلحة

يوسف وأخيه بنيامين. وعجز يعقوب عن إقناعها بالإحسان إلى ابنيه اليتيمين، ولما أحس منها كراهيتها الشديدة لهما رأى أن يتولى بنفسه أمرهما، وعندئذ استغلت المرأة اللئيمة الوضع لتضاعف من خوف أبنائها من يوسف ومن حسدهم له.

المجنى عليه (يوسف عليه السلام):

يوسف هو الابن الحادى عشر ليعقوب ـ عليه السلام ـ ولدته له زوجه راحيل بعد سنين كثيرة قضتها بدون حمل، وكانت ولادته بعد أن انفصل عن خاله (لابان) ومضى يتنقل بأولاده وثروته من الغنم من مكان إلى مكان، فالتقى بأخيه عيسو مرة، وسافر إلى حيث كان أبوه إسحاق يقيم فى الخليل حيث مات فدفنه، ثم أنجبت له راحيل ابنه الثانى عشر وآخر أبنائه (بنيامين) الذى توفيت بعد وقت قليل من ولادته، وبعد ذلك انتقل إلى مدين حيث أقام. ولا يعرف على وجه التحديد كم كان عمر يعقوب عند ولادة يوسف ـ وإن قيل إنه كان قد تقدم فى العمر ـ ولكن الذى يهمنا هو أن نعرف كم كان عمر يوسف يوم أن ألقى به إخوته فى الجب؛ لأنه هو المجنى عليه فى هذه الجريمة.

جاء فى التوراة (سفر التكوين) أن يوسف كان له من العمر سبع عشرة سنة يوم أن ألقى به إخوته فى البئر. وهو ما قاله بعض المفسرين، غير أن هناك من رأى أن يوسف كان أصغر من ذلك. ومن هؤلاء القرطبى[١]الذى يقول: إن يوسف ـ عليه السلام ـ كان فى الثانية عشرة من عمره لما رأى الرؤيا، وهى غير بعيدة من الوقت الذى ألقى فيه فى الجب. والزمخشرى الذى قال عن وهب: إن يوسف رأى الرؤيا وهو ابن اثنتى عشرة سنة[٢]. أما سيد قطب[٣] فيقول: إن يوسف كان فى حوالى الرابعة عشرة، تنقص ولا تزيد. وهو ما نرجحه لعدة أسباب:

(١) المرجع السابق، ص ١٢٦

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠٢

(٣) فى ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ١٩٧٩

الأول: أن ملازمته لأبيه بحيث لا يخرج للعمل أو للترويح عن نفسه مع إخوته هو تصرف يخالف المألوف ممن هم فى السابعة عشرة ويعدون من الشباب لا من الأطفال أو الصبية الذين يمكن للآباء أن يسيطروا عليهم ويتحكموا فى تحركاتهم؛ لأنه بالدخول فى مرحلة المراهقة يتجه الشباب إلى التصرف بما يؤكد استقلاله وحقه فى أن يتصرف حسبما يريد تأكيدا لذاته، وإثباتا لخصوصيته، ومن الحديث الذى دار بين إخوة يوسف وأبيهم بشأن ذهابه معهم ليرتع ويلعب نلاحظ أن يعقوب هو الذى عارض فى ذهابه، ثم وافق بعد ذلك دون أن يكون ليوسف رأى فى الحالتين.

ثانيا: أن الرجل الذى أرسلته السيارة ليدلى بدلوه فى الجب، لما أخرج يوسف مع الدلو قال: يا بشرى هذا غلام، والثانية عشرة هى السن التى يطلق فيها لفظ الغلام، وبعدها يسمى فتىء فشابا، فرجلا.

ثالثا: هناك دليل آخر فى قوله تعالى: ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾[(١)]

قال مالك فى رواية لابن القاسم عنه: لا يلتقط إلا الصغير.

رابعا: وقوله: ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾[(٢)]

وذلك أمر يختص بالصغار الذين يعجزون عن التصرف إذا هاجمهم ذئب، كأن يهربوا منه أو يلوذوا بمكان يحتمون به، أو حتى يقاومون هجوم الذئب بشىء كعصا أو حجر أو غير ذلك.

خامسا: وقولهم: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[(٣)]

واللعب والرتع لا يكون إلا للصغار، أما من كانوا فى السابعة عشرة فإنهم يستنكفون أن يلعبوا ويرتعوا، خاصة إذا كانوا برفقة من هم أكبر منهم سنا، ويميلون إلى أن يحاكوهم فيما يفعلونه.

---

(١) يوسف: ١٠

(٢) يوسف: ١٣

(٣) القرطبى، المرجع السابق، ص ١٣٣، ١٣٤ والآية: ١٢ من سورة يوسف

هذا من ناحية العمر، أما بالنسبة للسمات الأخرى ليوسف ـ عليه السلام ـ فيأتى فى مقدمتها ما كان عليه من حسن شديد، يؤكد ذلك ما فعلته النسوة لما دعتهن امرأة العزيز حيث قطعن أيديهن لما خرج عليهن. ولقد قيل إنه ورث هذا الحسن عن جدته الكبرى السيدة سارة زوج إبراهيم ـ عليه السلام ـ كذلك فقد كانت أمه راحيل جميلة، وذلك على خلاف أختها ليئة التى كانت تفتقر إلى الجمال، فربما تكون قد أورثت ذلك لبعض أبنائها فحقدوا على يوسف. وبطبيعة الحال فإن الحسن الذى اتصف به يوسف لم يقتصر على وجهه فقط بل شمل جسمه أيضا، فلم يكن به عيب أو مصابا بعلة أو مشوبا بشائبة.

أما أخلاقه فهى النموذج الذى يطمح إلى بلوغه الأخيار؛ فقد كان صابرا محتسبا، هادىء الطباع، محسنا، رقيق المشاعر، مرهف الأحاسيس، واسع الصدر، قوى الإرادة، صادقا، إذا قال فعل، وإذا وعد أوفى، أمينا، مخلصا وفيا، متسامحا، منكرا لذاته، جريئا فى الحق، لا يخاف إلا من الله، ولايخشى سواه، متواضعا، ومع ذلك فقد كان لديه ميل إلى الحزن النبيل، ربما لأن أمه ماتت وهو صغير، أو بسبب ما واجهه من محن وابتلاءات.

علاقة الجريمة بالرؤيا التى رآها يوسف عليه السلام:

اختلف المفسرون بشأن ما إذا كان إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ قد علموا بالرؤيا التى رآها وقصها على أبيه فنصحه بأن لايقصها عليهم حتى لايكيدوا له، أو لم يعلموا. وحسب ما ورد فى التوراة فى سفر التكوين[١]: «وحلم يوسف حلما وأخبر إخوته فازدادوا أيضا بغضا له، فقال لهم: اسمعوا هذا الحلم الذى حلمت، فها نحن حازمون جزما فى الحقل، وإذا حزمتى قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتى. فقال له إخوته: ألملك تملك علينا ملكا أم تتسلط علينا تسلطا؟! وازدادوا أيضا بغضا له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه. ثم حلم أيضا حلما آخر وقصه على إخوته فقال: إنى حلمت حلما أيضا، وإذا

(١) سفر التكوين، إصحاح ٣٧

الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدة لى. وقصه على أبيه وعلى إخوته، فانتهره أبوه وقال له: ما هذا الحلم الذى حلمت؟ هل نأتى أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض؟! فحسده إخوته، أما أبوه فحفظ الأمر» ومعنى هذا أن الرؤيا لم تكن سرا بالنسبة لهم، وهو يخالف ما جاء فى القرآن مخالفة صريحة على نحو ما رأينا، وبالتالى تكون نصيحة يعقوب لابنه بأن لايقص رؤياه على إخوته حتى لا يكيدوا له كيدا لا محل لها.

غير أننا نرجح أن يكون الفريق الذى قال إن إخوة يوسف علموا بما رآه أخوهم[1] قد افترضوا أن ذلك قد حدث من طريق آخر، وهذا محتمل كأن يكونوا تصنتوا وهو يحدث أباه عنها، أو أن أحدا آخر سمعه وأخبرهم. ونستبعد أن يكون يوسف هو الذى أخبرهم؛ لأنه لايتصور ممن كان مثله أن يعصى أباه فيما أمره به من عدم إطلاع إخوته على رؤياه. وقد كان ذلك من الفقهاء لتبرير ازدياد كراهية إخوة يوسف له وتدبيرهم للتخلص منه. وإن كنا نرى أن الأمر لم يكن يحتاج إلى ذلك نظرا لما بيناه من طبيعة هؤلاء الإخوة، وما كانوا يكنونه من مشاعر الغيرة والحقد والحسد لأخيهم، وهو ما كان واضحا أمام أبيهم، وإلا ما نصح ابنه بعدم إطلاعهم على رؤياه.

مما تقدم نرى أن الرؤيا التى رآها يوسف ـ عليه السلام ـ وقصها على أبيه وإن كانت هى السبب المباشر فيما قرره إخوته من قتله أو طرحه أرضا، بمعنى أخذه إلى مكان بعيد وتركه بحيث يعجز عن العودة إلى أبيه، فإنه كانت هناك أسباب أخرى غير مباشرة سبقت الرؤيا وهى الغيرة والحسد والحقد من إخوته نحوه، وبخاصة إخوته الستة الأشقاء أبناء ليئة، وهى المشاعر التى تضاعفت بعد أن ماتت أمه وحاول أبوه أن يعوضه هو وأخاه بنيامين عنها؛ نظرا لصغر سنهما وضعفهما بالمقارنة بما كان عليه إخوتهما الذين كانوا يكبرونهما كثيرا.

ويبدو أن يعقوب ـ عليه السلام ـ لما سمع ما قصه عليه ابنه من أنه رأى أحد

---

(١) الطبرى (جامع البيان فى تفسير القرآن) ج ١٢، ص ٩١

عشر كوكبا والشمس والقمر وقد سجدوا له، استدل بذلك على أنه سيكون لابنه شأن عند الله وعند الناس، فتعلق به أمله، وشغف به قلبه، فضاعف من خوفه عليه، وزاد من رعايته له باعتباره النبى المرتقب، والابن الذى أحبه الله واصطفاه دون بقية إخوته، بل دون الناس جميعا.[1] ولا شك أيضا أن يعقوب - عليه السلام - كان يأمل أن تتحقق فى أبنائه كلهم أو بعضهم أو حتى واحد منهم دعوة جده إبراهيم - عليه السلام - فلما رأى ما فعله أبناؤه الآخرون - أبناء ليئة والجاريتين - من آثام ومعاص انحصر أمله فى يوسف وأخيه بنيامين. ولم يطل انتظاره، فها هو يوسف يرى ما رآه وقصه عليه فشرح صدره وبعث الطمأنينة فى قلبه إلى أن النبوة ستستمر فى ذرية إبراهيم، وفى نسل يعقوب بالذات. وبالتالى فإنه لم يستطع كتمان حبه الشديد ليوسف ومزيد عطفه عليه دون إخوته[2]

ونلاحظ فيما قاله يعقوب ليوسف وهو ينصحه بألا يطلع إخوته على رؤياه قوله تبريرا لنصيحته: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾[3]

أى: إن الشيطان قد يوسوس لهم ليكيدوا لك، ولم يقل له لاتقص رؤياك عليهم حتى لا يكيدوا لك لأنهم يكرهونك أو يحسدونك أو يحقدون عليك، هو تصرف يدل على الحصافة والذكاء والحرص على أن تكون العلاقات بين يوسف وإخوته طيبة، مما ينفى ما قيل من أن يعقوب لم يكن يتوخى العدل بين أبنائه ولا الحرص فى التعبير عن مشاعره نحو يوسف وأخيه أمام بقية إخوتهما. وإنما هو الحسد والحقد من أبناء ليئة الستة نحو يوسف وأخيه رضعوه مع لبن أمهم، وتمثلوه فى تنشئتها وتربيتها لهم على الذى بيناه. وليس ذنب يعقوب - عليه السلام - أن بذل المزيد من الرعاية لابنيه اليتيمين الصغيرين، وإنما الذنب ذنب أولاده الذين حالت أنانيتهم وحقدهم وحسدهم بينهم وبين إدراك هذا الدافع النبيل، ولو أنهم أدركوه لفعلوا مثلما كان أبوهم يفعل، فأحبوا أخويهما واحتضنوهما وبذلوا لهما العناية، وأحاطوهما بالرعاية.

---

(١) الشيخ محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج ١٢، ص ٢٠٩

(٢) ابن الخطيب (يوسف الصديق) ص ٣٨

(٣) سورة يوسف، من الآية: ٥

وما كان استنباط يعقوب لكيد إخوة يوسف له صادرا من فراغ، وإنما كان استنباطا استند فيه إلى ما لاحظه على سلوكهم، وعلمه من مواقفهم، وأدركه من عاداتهم وأفكارهم منذ أن شبوا عن الطوق، وبلغوا مرحلة الشباب ثم الرجولة، وهما المرحلتان اللتان يكون لهذه الأمور فيهما مغزاها وقيمتها، وليس كالأب إدراكا لمشاعر أبنائه وفهما لهم ووعيا بحقيقة دوافعهم، فما بالنا إذا كان الأب هنا نبيا كريما وابن نبى وحفيد نبى؟!

ولعل ما قاله هؤلاء الإخوة جازمين مقسمين: ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾[1] يؤيد ما ذهبنا إليه من أن عداءهم وكراهيتهم وحسدهم ليوسف أولا ثم لأخيه معه ـ فيما بعد ـ قديمة ترجع إلى مرحلة التنشئة الاجتماعية، كما تدل على إصرارهم وضيق أفقهم، وخلطهم الواضح بين الأمور حيث قابلوا بين الحب وبين عددهم وكونهم عصبة، وهى نظرة مادية صرفة لا تأخذ بعين الاعتبار العوامل الإنسانية: كصغر السن واليتم وغيرها. بل إنهم تناقضوا مع أنفسهم فيما قالوه؛ لأن كونهم عصبة يعنى أنهم ـ من ناحية ـ يجدون إشباعا عاطفيا يوفره لهم اعتصابهم، حيث يلاحظ أن الأبناء حين يبلغون سن الشباب يميلون إلى الاستقلال عن آبائهم فى التصرف والتفكير والتدبير، ولا يبالون كثيرا إذا فقدوا شيئا من حب الآباء طالما أن ذلك لن ينقص من حريتهم واستقلالهم، ويستعيضون عن ذلك بما يقوم بينهم من مشاعر المودة والصداقة والتفاهم وبين من هم فى مثل سنهم. ومن ناحية أخرى فإنهم بقولهم عن أنفسهم إنهم عصبة اعترفوا بأن يوسف وأخاه مستبعدان من عضوية هذه العصبة، وبالتالى منبوذان من أعضائها العشرة مما يتطلب وجود ما يعوضهما عن ذلك من حنان الأب واهتمامه؛ حتى لايشعران بالوحدة.

أما إذا كانوا قد قصدوا ما قاله رشيد رضا فى تفسيره لهذه الآية من أن يعقوب فضل ابنيه الصغيرين عليهم على الرغم من عدم غنائهما، أى ما يقومان به من

(١) سورة يوسف، من الآية: ٨

عمل، أو ما يبذلانه من جهد لصغر سنهما، بينما هم عصبة من عشرة رجال أقوياء أشداء تقوم له بكل ما يحتاج إليه من أسباب الرزق والحماية والكفاية، فإنه أدل على ماديتهم الشديدة، حيث أرادوا أن يتقاضوا حبا يساوى ما يبذلونه من جهد وما يقومون به من عمل دون أن يولوا الجانب العاطفى فى العلاقة أى اعتبار. ولعل هذا الضرب من التفكير المغرق فى المادية هو الأساس الأول الذى قامت عليه نظرة اليهود المادية إلى العلاقات الإنسانية، وأن كل شىء لديهم يُقَوَّمُ بالمال أو بالمنفعة بما فى ذلك العواطف والمشاعر!.

كذلك نلاحظ أنهم لم يكونوا يتكلمون عن أبيهم ـ أو يتحدثون إليه ـ بما يليق به من الاحترام والتبجيل والأدب الذى يتناسب ومقام الأبوة، فتارة يقولون عنه إنه فى ضلال: ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1]

يعنى أنه ضل طريق العدل والمساواة ضلالا مبينا لا يخفى على أحد، إذ يفضل غلامين ضعيفين من ولده لا يقومان له بخدمة نافعة، على العصبة أولى القوة والكسب والنجدة. وتارة أخرى يقولون له: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾[2]

وحرضا معناها: أشفى على الهلاك من شدة المرض، وهى كما نلاحظ كلمات جافة لايجوز أن توجه إلى أب، وبالذات إذا كان فى ظروف كتلك التى مر بها يعقوب ـ عليه السلام ـ مما جعله يقول لهم فى نبرة حزينة، وهو يشعر أنه مهيض الجناح: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[3]

ولا أشكو إلى أحد منكم حتى تضيقوا بى هكذا[4]. وتارة ثالثة يقولون له: ﴿ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾[5]

وهو ما يدل على سوء أدبهم ووقاحتهم، وينفى أن يكونوا ـ كما زعم بعض

(١) سورة يوسف، من الآية: ٨
(٢) محمد رشيد رضا، المرجع السابق، ص ٢١٢ والآية: ٨٥
(٣) سورة يوسف، من الآية: ٨٦
(٤) الزمخشرى (الكشاف) ج ٢، ص ٣٣٩
(٥) سورة يوسف، من الآية: ٩٥

المفسرين ـ أنبياء، وبالتالى لا يصح اتهامهم أو وصفهم بما يسيء إليهم. وممن قالوا إنهم كانوا أنبياء ابن وهب عن ابن زيد فى قوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴾[1]

قال: أبواه وإخوته. قال: فنعاه إخوته ـ وكانوا أنبياء ـ فقالوا: ما رضى أن يسجد له إخوته حتى سجد له أبواه[2] وهذا الذى قاله ابن زيد عن نبوة إخوة يوسف جعل بعض المفسرين يجدون حرجا فى وصفهم بما يستحقونه، ويلجأون فى تفسيرهم لما ورد فى القرآن من أفعال وأقوال صدرت عنهم إلى معان تختلف عن المعانى الصحيحة؛ ظنا منهم أن من شأنها أن لا تسيء إليهم، وهو خطأ لا يجوز الوقوع فيه؛ لأنهم ـ من ناحية ـ ليسوا بأنبياء، ومن ناحية أخرى إن ذلك التصرف من المفسرين يفتقر إلى الأمانة العلمية التى من شأن عدم الالتزام بها أن نوقع الناس فى الخطأ أو نجعلهم يظنون أن فى الأمر محاباة.

أما الزمخشرى فإنه لم يقطع بنبوتهم، وإنما قال فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ ﴾[3]:

إن يعقوب علم أن يوسف يكون نبيا وإخوته أنبياء استدلالا بضوء الكواكب؛ فلذلك قال: وعلى آل يعقوب.[4] وهو ـ كما نرى ـ استدلال غير دقيق. والصحيح ما قاله ابن كثير[5] وهو: «أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف. وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك، وفى هذا نظر، ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ ﴾[6]

وهذا فيه احتمال؛ لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال

(١) سورة يوسف، الآية: ٤
(٢) الطبرى، المرجع السابق، ص ٩١
(٣) سورة يوسف، من الآية: ٦
(٤) المرجع السابق، ص ٣٠٣
(٥) المرجع السابق، ص ٣٠٠
(٦) البقرة: ١٣٦

للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب، يذكر الله تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بنى إسرائيل، فذكرهم إجمالا لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم، والله أعلم». وهو رأى القرطبى الذى قال إن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أولا ولا آخرا؛ لأن الأنبياء لا يدبرون فى قتل مسلم، بل كانوا مسلمين، فارتكبوا معصية ثم تابوا. وقيل: كانوا أنبياء، ولا يستحيل فى العقل زلة نبى، فكانت هذه زلة منهم، وهذا يرده أن الأنبياء معصومون من الكبائر على ما قدمناه[1].

أما محمد رشيد رضا فيقول[2]: «إن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء يومئذ ولا بعده، كما حققنا فى محله، وإنه من التنطع والغفلة استشكال اللعب المباح فى نفسه ممن شهد الله عليهم بالكيد لأخيهم والائتمار بقتله وتعمد إيذائه، وفجيعة أبيهم به، وكذبهم عليه، وغير ذلك من كبائر المعاصى»

التآمر للتخلص من يوسف:

كان هذا هو الجو الذى نشأ فيه التفكير فى الجريمة : حسد وحقد وكراهية اجتمعت فى نفوس الإخوة العشرة ضد أخويهما الصغيرين اليتيمين، وجعلتهم يعانون من القلق والتوتر المستمرين اللذين لا سبيل إلى التخلص منهما إلا باختفاء هذين الأخوين أو أحدهما أولا، ثم من بعده الثانى الذى كان لا يزال صغيرا لايمثل تهديدا حـالا لهم، بخلاف يوسف.

وواضح مما ورد فى القرآن أن الإخوة العشرة اجتمعوا ليتباحثوا فى أمر يوسف وقد عقدوا العزم على التخلص منه ، ولكن كيف؟ هل بالقتل بحيث يضمنون اختفاءه إلى الأبد؟ أم بأخذه إلى أرض بعيدة مهجورة وتركه فيها بحيث يعجز عن العودة إلى أبيه إن هو سلم فيها من الهلاك؟!.

هذه هى الجريمة، أما الباعث إليها ـ كما يقال فى القانون ـ فهو أن يستأثروا بحب أبيهم دون يوسف، فلا يهتم إلا بهم بعد أن يختفى يوسف الذى يشغله عنهم، ويستحوذ ـ فى ظنهم ـ على النصيب الأوفر من حبه وعطفه. وهو كما

(١) الجامع لأحكام القرآن، المرجع السابق، ص ١٣٣

(٢) المرجع السابق، ص ٢١١

نرى باعث أنانى شرير دفعهم إلى الاستخفاف بحق أخيهم فى الحياة، والاستخفاف بما سيصيب أباهم من آلام وأحزان، وما سيتحمله من معاناة بقية حياته ، وإنما فكروا فى مصلحتهم فقط، رغم أنها لم تتعرض للضرر أو حتى للخطر. وقال محمد بن إسحاق بن يسار: «لقد اجتمعوا على أمر عظيم ، من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده؛ ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه، على كبر سنه، ورقة عظمه ـ مع مكانه من الله فيمن أحب طفلا صغيرا ـ وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه»[1].

ولكن الحسد والحقد والكراهية تسلطت عليهم حتى أفقدتهم عقولهم، وأفسدت مشاعرهم، فباتوا يظنون أنهم على حق، وأن الجريمة ـ فى حد ذاتها ـ هينة يمكن التخلص من آثارها بمجرد ارتكابها، وذلك بأن يعودوا قوما صالحين فيتوبوا عما اقترفوه، ويكفرون عما ارتكبوه، ولا يعودون إلى مثله، فيرضى عنهم أبوهم، ويرضى الله تعالى عنهم!!.

هذا هو تفكير من يقول عنهم بعض المفسرين إنهم أنبياء، وهو كما نرى لايختلف فى شيء عن تفكير المجرمين العاديين الذين يقول الواحد منهم لنفسه: سأرتكب جريمة السرقة لأحصل على مال كثير ثم أتوب، أو يقول: سأجلب كمية كبيرة من الهيروين يكفى ربحها لكى أعيش فى رغد بقية عمرى ولا أعود إلى مثلها، أو يقول: سأزنى بهذه المرأة الجميلة مرة واحدة ثم لا أعود إلى ذلك! فأين الاختلاف بين هذا وذاك وبين إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ ؟! طبعا لا اختلاف، وإنما الجميع مجرمون جديرون بالعقاب. ولو أنهم قتلوا أخاهم لكان قتلا مع سبق الإصرار والترصد، وهو الذى يعاقب عليه بالإعدام لما فيه من دلالة على خطورة مرتكبه الذى فكر ودبر وكان أمامه الوقت الكافى لكى يعدل عن التنفيذ، ولكنه مضى فيه إلى النهاية. ولا يختلف ترك يوسف فى مكان مهجور موحش على أمل أن يموت، كأن يفترسه وحش أو يقتله مجرم ـ طالما أنهم توقعوا هذه النتيجة ورضوا بتحققها، فهو قتل على أى الأحوال.

(١) ابن كثير، المرجع السابق، ص ٣٠١

ولكن يبدو أنه لم يكن هناك إجماع من الإخوة العشرة على قتل يوسف أو تركه فى المكان البعيد المهجور الذى يحتمل أن يموت فيه، وهـذا أمر يتفق مع ما سبق أن بيناه من طبيعة العلاقات بين هؤلاء الإخوة الذين كان ستة منهم أشقاء، والأربعة الآخرون غير أشقاء لا للستة ولا فيما بينهم، حيث كان كل اثنين من أم مختلفة جارية مملوكة لا تملك من أمر نفسها شيئا، وكذلك ولداها. وإن كان هؤلاء الإخوة غير الأشقاء قد اعتادوا أن يسايروا إخوتهم الستة أبناء ليئة، وبخاصة الأخوين اللذين أنجبتهما لها جاريتها زلفة، وهما (جاد) و(أشير)، فكانا أقرب إلى أولادها الستة من الأخوين الآخرين اللذين ولدتهما جارية راحيل (بلهة) وهما (دان) و(نفتالى) واللذين نرجح أن تكون كراهيتهما ليوسف وبنيامين أقل من كراهية الإخوة الثمانية الآخرين، لذلك أرجح أن يكون الأخ الذى قال: ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾[1] هو أحد هذين الاثنين، إما دان أو نفتالى، وليس كما قال السدى: إنه يهوذا، رابع أبناء ليئة، وليس كما جاء فى التوراة: إنه رأوبين بكر يعقوب الذى بينا ما كان عليه من ميل إلى القسوة والعنف وحب للشر، وكيف أن إخوته الأشقاء ـ ومنهم يهوذا ـ كانوا يشاركونه هذا الميل، ويساهمون معه فى أفعاله الإجرامية. وبطبيعة الحال فإن بقية الإخوة ـ بما فيهم أبناء ليئة ـ رضوا بهذا الاقتراح، ليس لأن شعورا بالشفقة على يوسف انتابهم فجأة جعلهم يعدلون عن فكرة قتله بهذه الطريقة أو بتلك، ولكن لأن رفض الاقتراح كان يحتمل أن يؤدى إلى انسحاب صاحب الاقتراح، وربما ينضم أخوه إليه، وفى هذه الحالة لم يكن الآخرون يأمنون أن يفشى الأخوان سر اختفاء يوسف، أو على الأقل يتنصلان من تهمة قتله عندما يفتضح الأمر، ويقولان : إنهما اعترضا على قتله، واقترحا خلاف ذلك مما يكون احتمال موته فيه ضعيفا. وبالنظر لما لاحظناه من وصف الإخوة لأنفسهم بأنهم عصبة، فإن روح العصبة أو العصابة هى التى سيطرت على الموقف وجعلت

(١) سورة يوسف، من الآية: ١٠

الأخرين يوافقون على الاقتراح بسهولة؛ لأن من شأن ذلك بقاء العصبة متماسكة متضامنة متماثلة فى المسئولية عما وقع.

وهكذا أجمعوا الرأى على أن يكون التخلص من يوسف بأن يلقوه فى غيابة الجب، وهو جب كان معروفا لهم يستخدمونه، وبالتالى فإنه يقع غير بعيد من حيث يقيمون، وظهر من قولهم: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾[1] أنهم لم يعودوا يريدون موته، وإنما اكتفوا بأن يحمل بعيدا عنهم فلا يراه أبوه بعد ذلك. والسيارة: هم جماعة من المسافرين الذين يسيرون فى الأرض يقطعون المسافات من مكان إلى آخر لأجل التجارة، فإن عثروا عليه فى الجب أخذوه إلى البلد الذى يقصدونه، وقد يكون بعيدا فيتم لهم ما أرادوا. ويكشف صاحب الاقتراح عن مستوى رفيع من الحكمة وبعد النظر، لا نظن أنه كان مما يتمتع به شخص مثل رأوبين العدوانى المتهور الخائن، فهو يقول: ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[1]

يقصد أن يقول لهم: إنكم إن كنتم تريدون الصواب فهذا هو الصواب؛ لأن جناية قتله غير مقصودة لذاتها، ولكنكم ترغبون فى الاستئثار بحب أبيكم دونه فيكفى إذن أن يختفى فلا يراه أبوه ثانية.

أما التوراة فإنها ـ كالعادة ـ تناقضت مع نفسها فيما ذكرته فى هذا الصدد؛ فقد جاء فى سفر التكوين «أن رأوبين مكر بإخوته لما اقترح أن يلقوا بيوسف فى البئر، إذ كان يريد أن يعود إليه بعد أن ينصرفوا ليخرجه ويرجع به إلى أبيه! وأن البئر كانت فارغة من الماء وقت أن وضعوا يوسف فيها، فمرت سيارة تجار الإسماعيليين (العرب) مسافرة إلى مصر، فاقترح عليهم يهوذا إخراجه وبيعه لهم؛ إذ لا فائدة لهم من قتله وهو من لحمهم ودمهم».

ووجه التناقض فى الكلام أن رأوبين كان بكر يعقوب فهو أكبر إخوته والمتزعم لهم يطيعونه وينفذون ما يأمرهم به، فلو أنه طلب منهم أن يصرفوا النظر عن قتل يوسف أو إلقائه فى الجب لفعلوا. أما أنه أراد أن يخدع إخوته ويعود ليأخذ يوسف من الجب ويعيده إلى أبيه فهذا سلوك لا يمكن أن نفسره إلا بأحد أمرين:

(1) سورة يوسف، من الآية: ١٠

الأول أن رأوبين كان أجبن من أن يواجه إخوته بعدم رغبته فى إلقاء يوسف فى الجب، وهو ما لا يمكن تصوره من شخص قاتل زان سيء الأدب. أما الأمر الثانى فهو أن رأوبين إنما قصد أن يفضح إخوته أمام أبيهم، وذلك بأن ينتظر حتى يذهبوا إليه يحملون قميص يوسف وعليه الدماء الكاذبة قائلين إن الذئب قد أكله، فيغيب رأوبين ثم فجأة يعود ومعه أخوه ليقول له إنه كان فى البئر حيث ألقوا به، وهكذا يصيب عصفورين فى وقت واحد: يتخلص من منافسة إخوته له فى حب الأب، ويستأثر بحبه وحب يوسف. وهو - كما نرى - تصرف لا أخلاقى يصح أن يصدر عن رأوبين هذا، غير أنه يناقض ما جاء فى سفر التكوين من أن رأوبين لما عاد ليخرج يوسف من البئر ويعود به إلى أبيه ولكنه - على ما يبدو - فشل فى إخراجه، وفى أثناء ذلك مرت قافلة التجار العرب، فإذا بالأخ الذى يفيض حنانا وشفقة على أخيه الصغير اليتيم يقترح عليهم أن يخرجوه من البئر ليبيعه لهم!! فما الذى حدث فجعله يعدل عما كان قد عقد العزم عليه؟! هل رأى أن فضحه لما حدث سيسيء إلى علاقته بإخوته وربما بأبيه الذى - لا شك - سيعرف الحقيقة منهم ومن يوسف نفسه؟! أم أنه وقد غلب عليه حبه للمال وطمعه وشراهته فرأى أن لا يدع الفرصة تفلت دون أن يربح من وراء مصيبة أخيه فباعه بالثمن البخس الذى عرضته القافلة وهى زاهدة فى الصفقة؟! فدس المسكين رأوبين الدريهمات القليلة فى جيبه وعيناه تغرورقان بالدموع من فرط تأثره لفراق أخيه له، ثم استدار عائدا مطأطيء الرأس لا يكاد يتبين موضع قدميه!! فهل هناك تناقض فى التوراة أكثر من هذا؟! نعم فيها الكثير والكثير جدا!!

ونرجح أن اختيار رأوبين من بين إخوة يوسف لإظهاره بمظهر الأخ الطيب الذى اقترح على إخوته إلقاء يوسف فى الجب بدلا من قتله أو طرحه أرضا، وأن ذلك الاقتراح كان الغرض منه أن يعود بعد ذلك - بدون علم من إخوته - لكى يرجع بيوسف إلى أبيه، السبب فيه ما يلاحظه دارس التوراة من انحياز واضح وتعصب صريح ممن زوروها لأبناء يعقوب من ليئة: وهم الستة الأشرار

الذين تزعموا الحملة التى تهدف إلى التخلص من يوسف. وأن رأوبين يحظى بنصيب وافر من التحيز والتعصب ؛ لأنه يمثل الخلق اليهودى أدق تمثيل، وهو الخلق الذى يشجع على الخيانة والخداع والكذب والغدر، ويعلى من شأن أصحابها.

تنفيذ المؤامرة:

أما وقد استقر رأى المتآمرين على أن يلقوا بأخيهم فى الجب فقد بقى أن يأخذوه إلى حيث يوجد هذا الجب لكى يلقوا به فيه. ولكن الأب ـ على ما يبدو ـ كان يرفض أن يفارقه ابنه الصغير، ولا يتركه ليصحب إخوته للأسباب التى سبق أن ذكرناها؛ لذلك فإنهم لما ذهبوا إليه ـ فى أول خطوة فى مؤامرتهم ـ لم يستأذنوه فى أن يصطحبوا يوسف عند ذهابهم ليرتع ويلعب ـ على حد قولهم ـ وهو ما يحدث فى الأحوال التى يعتاد فيها الإخوة الصغار مصاحبة إخوتهم الكبار، بل ويصرون على ذلك، ناهيك أن يكون الكبار هم الذين يعرضون ذلك. ولكنهم بدأوا بسؤال أبيهم: لماذا لا يأمنهم على أخيهم يوسف وهم الذين يكبرونه فى السن ويستطيعون أن يبذلوا له النصح بحكم خبرتهم وتجاربهم فى الحياة؟!. وكأنهم قصدوا إحراجه بحيث يكون رده عليهم بالنفى، كأن يقول: ولماذا لا آمنكم عليه وأنتم إخوته؟!ها هو خذوه معكم إلى حيث تنوون الذهاب. ثم أضافوا قولهم: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] وفى قراءة أخرى (**نرتع ونلعب**). لم يقولوا له: أرسله معنا غدا يعمل ويتدرب؛ لأنهم أرادوا أن يظهروا أمامه بمظهر من يرغبون فى الترفيه عن أخيهم الصغير، ولو كان فى ذلك تضحية بوقتهم المخصص للعمل، ولإدراكهم أن ذلك سوف يصادف ترحيبا من الأب لأن ابنه الصغير محروم من الرتع واللعب بسبب ملازمته له وخوفه عليه ، ثم إنهم يعدونه بأن يحافظوا عليه بحيث لا يمسه سوء!!.

قالوا ذلك وهم يتصنعون الرقة والسماحة فى ملق شديد، يريدون خداع الأب بالتظاهر بأن خوفه على يوسف منهم ـ وهم إخوته ـ ومنعه إياه من الخروج معهم

(١) سورة يوسف، الآية: ١٢

لم يترك فى نفوسهم أثرا سيئا، ولم يثر غضبهم. ولكن الأب الذى لم تكن مشاعرهم نحو يوسف بخافية عليه رد عليهم قائلا: ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾(١)

أى أنه قدم سببين اثنين لرفضه ذهاب يوسف معهم، الأول: أن ذلك سيجعله يحزن، والثانى: أنه يخاف أن يأكله الذئب وهم عنه غافلون، مما كان يقتضى أن يردوا عليه بحيث يبينون له أن ليس فى الأمر ما يستدعى الحزن؛ لأنهم لن يذهبوا بعيدا بالقدر الذى يثير حزنه، أو المدة التى تجعله يشتاق إلى ابنه ويحزن لفراقه خاصة وأنه ليس مع أغراب ، بل مع إخوته، ولكنهم ـ وقد مس يعقوب بكلامه عن احتمال أن يغفلوا عن يوسف فيأكله الذئب ـ وترا حساسا لديهم، وهو ماأضمروه من نية إلقاء يوسف فى الجب ليتخلصوا منه، فإنهم لم يلقوا بالا إلى قوله الأول، وبادروا إلى الرد على قوله الثانى قائلين: ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾(٢)

فهم لم يستبعدوا حدوث ذلك، ولو كانوا يستبعدونه لما التفتوا إليه، ولاكتفوا بالرد على قوله الأول معتبرين أن القول الثانى هو من المبالغات غير المعقولة، أو الأوهام التى تتسلط على الآباء فى مثل هذه الأحوال فتصور لهم مخاطر شديدة تحدق بأبنائهم، أو أضرارا توشك أن تصيبهم. ولكنهم أخذوا من فمه هذه الكلمة ؛ لتكون عذرهم فيما هم مقدمون على فعله. واطمأن الأب إليهم، ووافق على خروج يوسف معهم، فنهض هذا فرحا مسرورا؛ لأنه سيصحب إخوته الكبار إلى حيث اعتادوا الذهاب للرعى ليقضى معهم وبينهم وقتا طيبا. وتظاهروا هم أمام أبيهم بالسعادة الشديدة، ورحبوا بأخيهم وأخذوا يدللونه ويظهرون له الحب والاهتمام، ويداعبونه فى رقة ورفق، بينما أبوهم يتبعه بنظراته الحانية المشفقة يتمنى فى نفسه أن يكونوا صادقين فى مشاعرهم نحو أخيهم الصغير. ولكنهم ما أن ابتعدوا به عن نظر أبيهم حتى قلبوا له ظهر

(١) سورة يوسف، من الآية: ١٣

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٤

المجن، وظهروا على حقيقتهم مجرمين قساة غلاظ القلوب لا يرحمون ضعف أخيهم الصغير، وكونه وحيدا بينهم دون نصير، يتلقى إهاناتهم ولطماتهم وركلاتهم وهو يرتعش من الخوف، تنساب دموعه على خديه وترتعش شفتاه وهو يتوسل إليهم أن يترفقوا به متسائلا عما فعله لهم حتى يهينوه ويعذبوه هكذا بلا رحمة أو شفقة!! ولكنهم لا يأبهون بتوسلاته ، ويضاعفون من قسوتهم به شفاء لما فى صدورهم من حسد وحقد وكراهية. إلى أن وصلوا إلى حيث يوجد الجب، فاجتمعوا عليه يشلون حركته وينزعون عنه قميصه وهو يقاومهم، فيمعنون فى البطش به. و يقال إنهم ربطوه بحبل ودلَّوْهُ فى الجب وهو يحاول أن يتشبث بهم ، ولكن بلا جدوى؛ فقد أخذوا يلطمونه ويشتمونه وهم يدفعون به إلى حافة الجب، ثم قاموا بقطع الحبل من نصف المسافة فسقط فى الماء فغمره، فصعد إلى صخرة فى وسط الماء فاستقر عليها[١]، وهو يرتعد من الخوف ومن الألم الذى أصابته به لكمات إخوته ولطماتهم. ولما انتهوا من فعلتهم الشنعاء تراجعوا عن الجب وهم يتنفسون الصعداء ينفضون أيديهم وهم يتبادلون نظرات الارتياح غير مبالين ببكاء أخيهم المسكين وصياحه بهم يتوسل إليهم أن يخرجوه، وهو يناشدهم بحق الدم الواحد والأخوة، ولكن هيهات!! فقد مضوا مبتعدين عن الجب. لكن أحدهم ـ وهو الذى كان يحمل قميص يوسف ـ قال لهم: ماذا سنصنع بهذا القميص؟! فأجابه الذى نزعه عن يوسف : ألم يبد أبونا تخوفه من أن يأكله الذئب ونحن عنه غافلون؟! وهنا انفرجت أسارير الباقين يرمقونه فى إعجاب وقد فهموا ما يعنيه، فأضاف ـ وهو يضحك مزهوا بذكائه الشرير ـ: نذبح شاة ونضع دمها على القميص ونعود به إليه لنقول له : إن ذئبا افترسه ونحن بعيدون عنه، وها هو قميصه عليه دمه ، فهللوا جميعا مرحبين بهذا الحل، وأقبلوا على أخيهم يهنئونه على ذكائه، فقال لهم: يظن أنه ذكى ـ يقصد يعقوب ـ ولكنا أذكى منه، فعادوا يضحكون ويشدون على يده. ثم مضوا إلى حيث تركوا قطيعهم من الغنم، فأخذوا شاة فذبحوها ولطخوا بدمها قميص

(١) ابن كثير، المرجع السابق، ص ٣٠٢

يوسف. ولعلهم فى غمرة فرحهم بالتخلص منه احتفلوا بأن سلخوا الشاة ثم أشعلوا نارا وشَوَوْهَا وتحلقوا حولها يأكلون ما نضج منها، وكأنهم لايتعجلون العودة إلى أبيهم، وإنما تعمدوا أن يتأخروا إلى أن حان وقت العشاء، يقول تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً﴾[1].

والتوقيت هنا لم يأت عفوا أو مصادفة، فالقرآن الكريم لا يهتم بذكر مثل هذه التفاصيل الدقيقة إلا إذا كان لذلك سبب ومغزى، وهو هنا استغلال ظلام الليل فى إخفاء تعبيرات وجوههم وما تحمله نظراتهم من مشاعر لم يكن بوسع أبيهم أن يتحقق منها مع خفوت الضوء المنبعث من الوسائل التى كانت تستخدم فى الإضاءة فى تلك الأيام. ولنا أن نتخيلهم وقد اقتربوا من بيت أبيهم فتبادلوا النظرات ثم الإيماءات، وسرعان ما طأطأوا رءوسهم أسفا، وخفضوا أكتافهم وهنا وحزنا، وتعثرت خطواتهم على الأرض وكأنهم فقدوا السيطرة على أقدامهم من فرط اللوعة والأسى، وتظاهروا بالإجهاش بالبكاء إلى أن وصلوا إلى حيث يجلس أبوهم، الذى ما أن رآهم حتى نظر إليهم فى تساؤل بعد أن لاحظ أن يوسف ليس معهم، فنظروا إليه وهم يحاولون السيطرة على تعبيرات وجوههم، وأن يجعلوا نظراتهم ثابتة أمام نظرته، معتقدين أن خفوت الضوء فى المكان كفيل بإخفاء قلقهم وتوترهم، ثم انبرى أحدهم قائلا ـ ولعله رأوبين ـ: إنهم ذهبوا ليتسابقوا وتركوا يوسف عند متاعهم فأكله الذئب، فلما لاحظوا أن أباهم ينظر إليهم فى شك استطرد رأوبين قائلا فى حماس المريب: نحن نعلم أنك لا تصدقنا حتى لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا فى ذلك؛ لأنك أبديت خشيتك من أن يأكله الذئب، فأكله، فأنت معذور فى تكذيبك لنا، لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا فى أمرنا هذا[2].

وهنا نلاحظ كيف أن القرآن الكريم صور بدقة متناهية حال المجرم، وهو يحاول أن يخفى جريمته، أو يتنصل منها ويلقى بتبعتها على غيره فيقول كلاما ينم عن اضطرابه، ويشى بتناقضه.

الدليل المزور:

تحرك أحدهم فاقترب من أبيه وبيده قميص يوسف وعليه الدم المكذوب الذى

(١) سورة يوسف، من الآية: ١٦

(٢) ابن كثير، المرجع السابق، ص ٣٠٣

لطخوه به ليقولوا إنه دمه، ونظر إلى يعقوب فى ثبات أقرب إلى الوقاحة وهو يقدم له القميص، فمد هذا يده فأخذه وقلبه بين يديه يفحصه بحثا عن أثر مخالب الذئب وأسنانه، ولكنه وجده سليما لا ثقب فيه أو قطع، فوضعه جانبا. وعبارة القرآن فى هذا الصدد فذة فى بلاغتها؛ فقد نكر الله تعالى الدم ووصفه باسم الكذب بعينه، فالعرب تضع المصدر موضع الصفة للمبالغة، كما يقولون: شاهد عدل. وقوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ ﴾[1] ليصور للقارىء والسامع أنه موضوع على ظاهره وضعا متكلفا، ولو كان من أثر افتراس الذئب له لكان القميص ممزقا والدم متغلغلا فى كل جزء منه[2] وهكذا فإنهم لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها وهى سلامة القميص من التخريق، ولما تأمل يعقوب ـ عليه السلام ـ القميص فلم يجد فيه خرقا ولا أثرا استدل بذلك على كذبهم، وقال لهم: متى كان هذا الذئب حكيما؟! يأكل يوسف ولا يخرق القميص؟!. وقد استدل الفقهاء بهذه الآية فى إعمال الأمارات فى مسائل من الفقه كالقسامة وغيرها، وأجمعوا على أن يعقوب استدل على كذبهم بصحة القميص، وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح، وهى قوة التهمة، ولاخلاف بالحكم بها، قال ابن العربى[3]: وقد حكم يعقوب بأنهم كذابون مذنبون فى جريمة اختفاء أخيهم يوسف، وذلك فى قوله لهم: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾[4]

وهذا إضراب عن تكذيب صريح تقديره: إن الذئب لم يأكله، بل سولت أنفسكم الأمارة بالسوء أمرا إمرا، وكيدا نكرا، وزينته فى قلوبكم فطوعته لكم حتى اقترفتموه[5].

كان يمكن ـ بل كان يجب ـ أن تعتبر الجريمة قد تمت عند هذا الحد، وهو

(١) سورة يوسف، من الآية: ١٨

(٢) رشيد رضا، المرجع السابق، ص ٢٢٠

(٣) القرطبى، المرجع السابق، ص ١٥٠

(٤) سورة يوسف، من الآية: ١٨

(٥) رشيد رضا، المرجع السابق ص ٢٢١

الصواب، حيث تتابعت المشاهد فى القرآن الكريم ابتداء بقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾[1]

وانتهاء بقوله تعالى: ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾[2].

ثم يبدأ مشهد جديد تدور أحداثه عند الجب، حيث ألقى الإخوة الأشرار أخاهم يوسف فيه ثم عادوا بقميصه إلى أبيهم على النحو الذى أسلفناه. ولكن بعض المفسرين تأثروا بما ورد فى التوراة متعلقا بالمشهد الثانى الذى بدأ بمجىء السيارة أو القافلة ورفع واردها ليوسف من الجب فاستأنفوا الكلام؛ ليضيفوا إلى المشهد الأول تفاصيل جديدة مستمدة من التوراة، الأمر الذى أوشك أن يصيب القصة القرآنية بالاضطراب، وذلك عند تفسيرهم قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (19) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾[3].

فقد قال محمد بن إسحق: لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك، ينظرون ما يصنع وما يصنع به، فساق الله له سيارة، فنزلوا قريبا من ذلك البئر، وأرسلوا واردهم ـ وهو الذى يتطلب لهم الماء ـ فلما جاء تلك البئر، وأدلى دلوه فيها، تشبث يوسف ـ عليه السلام ـ فيها، فأخرجه واستبشر به. وأضاف العوفى عن ابن عباس قوله: إن الذين باعوا يوسف هم إخوته الذين أسروا شأنه، أى أخفوا أمره، من هو ومن أين، وكتموا أن يكون أخاهم، وكتم يوسف ـ هو الآخر ـ شأنه مخافة أن يقتله إخوته، وفضل أن يبيعوه. فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه: يا بشرى هذا غلام يباع، فباعه إخوته[4]. وممن يؤيدون هذا الرأى ابن كثير[5] الذى قال فى موضع آخر: إن الأقوى هو أن إخوته هم

(1) سورة يوسف: ١٥

(2) سورة يوسف: ١٨

(3) سورة يوسف: ١٩، ٢٠

(4) الطبرى، المرجع السابق، ص ١٠١

(5) المرجع السابق، ص ٣٠٥

الذين باعوه بثمن بخس؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾[1] الذى أراد به إخوته لا أولئك السيارة؛ لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه من الزاهدين لما اشتروه، فرجح من هذا أن الضمير فى (وَشَرَوْهُ) إنما هو لإخوته.

وقال مجاهد: إخوة يوسف أحد عشر رجلا باعوه حين أخرجه المدلى بدلوه، وعن ابن عباس بنحوه، قال: فباعه إخوته بثمن بخس. ولعلنا قد لاحظنا فيما نسب إلى مجاهد قوله إن إخوة يوسف كانوا أحد عشر رجلا، وهو خطأ؛ لأن الابن الحادى عشر، وهو بنيامين الأخ الشقيق ليوسف لم يكن معهم فى ذلك اليوم، كما أنه لم يكن رجلا بل كان لا يزال طفلا؛ لأنه كان أصغر من يوسف.

أما الذين قالوا إن الذين باعوا يوسف هم السيارة لا إخوته فمنهم قتادة الذى قال: وشروه بثمن بخس هم السيارة الذين باعوه، وكذلك مجاهد الذى قال: إن الضمير فى قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ عائد على السيارة وليس على إخوة يوسف، فهو يقول فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾[2] إن صاحب الدلو ومن معه قالوا لأصحابهم: إنما استبضعناه خيفة أن يشركوهم فيه إن علموا بثمنه، وتبعهم إخوته يقولون للمدلى وأصحابه: استوثق منه لا يأبق حتى وقفوه بمصر، فقال: من يبتاعنى ويبشر؟ فاشتراه الملك، والملك مسلم! وقال السدى: إنه لما اشتراه الرجلان فرقا من الرفقة أن يقولوا: اشتريناه، فيسألونهم الشركة، فقالا: إن سألونا ما هذا؟ قلنا: بضاعة استبضعناه أهل الماء، فذلك قوله: ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾[2] ويقول القرطبى وكأنه لا يرجح رأيا على آخر[3]: ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾[2] الهاء كناية عن يوسف ـ عليه السلام ـ فأما الواو فكناية عن إخوته، وقيل: عن التجار الذين اشتروه، وقيل: عن الوارد وأصحابه. أما الزمخشرى[4]

(١) سورة يوسف، من الآية: ٢٠

(٢) سورة يوسف، من الآية: ١٩

(٣) المرجع السابق، ص١٥٤

(٤) الكشاف، المرجع السابق، ص ٣٠٩

فيقول فى تفسيره لـ (أسروه): إن الضمير للوارد وأصحابه، أخفوه من الرفقة، وقيل: أخفوا أمر وجدانهم له فى الجب، قالوا لهم: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر. كذلك فسر قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾[1] ممن يرغب عما فى يده فيبيعه بما طَفَّ من الثمن؛ لأنهم التقطوه، والملتقط للشىء متهاون به لا يبالى بم باعه، ولأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه من يده؛ فيبيعه من أول مساوم بأوكس الثمن. وهو رأى الشيخ رشيد رضا[2] حيث يقول فى تفسير ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾[3] أى: أخفوه من الناس لئلا يدعيه أحد من أهل ذلك المكان؛ لأجل أن يكون بضاعة لهم من جملة تجارتهم. والبضاعة ما يقطع من المال، ويفرز للاتجار به، مشتق من البضع وهو الشق والقطع، ومنه البضعة والبضع من العدد، وهى ثلاث إلى تسع، والبضعة من اللحم هى القطعة. وما قيل من أن الذين أسروه هم الوارد الذى استخرجه ومن كان معه دون سائر السيارة هو على خلاف الظاهر، وكذلك ما قيل من أن الضمير فى **(وأسروه)** يعود إلى إخوة يوسف.

هذا هو التفسير الأصح؛ لأنه يلتزم بتتابع المشاهد فى القرآن الكريم، فالمشهد الأول ينتهى بقول يعقوب : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾[4] ليبدأ المشهد الثانى بأبطال آخرين ليس بينهم إخوة يوسف، وذلك على خلاف القصة التوراتية التى جاء فيها : أن إخوة يوسف ـ بعد أن ألقوه فى البئر ـ جلسوا ليأكلوا الطعام، فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة من جلعاد، وجمالهم حاملة كثيراء وبلسانا ولادنا ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر، فقال يهوذا لأخويه : ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفى دمه؟ تعالوا نبيعه للإسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه؛ لأنه أخونا ولحمنا، فسمع له إخوته. واجتاز رجال ميدانيون تجار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر، وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة فأتوا يوسف إلى مصر. ورجع رأوبين إلى البئر، وإذا يوسف ليس فى البئر، فمزق ثيابه، ثم رجع إلى إخوته وقال: الولد ليس موجودا، وأنا إلى أين أذهب؟! فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيسا من المعزى وغمسوا القميص فى

(١) سورة يوسف، من الآية : ٢٠
(٢) تفسير المنار، المرجع السابق، ص ٢٢٣
(٣) سورة يوسف، من الآية: ١٩
(٤) سورة يوسف، من الآية: ١٨

الدم وأرسلوا القميص الملون وأحضروه إلى أبيهم، وقالوا: وجدنا هذا، حَقِّقْ أقميصُ ابنك هو أم لا؟ فتحققه وقال: قميص ابنى، وحش ردىء أكله، افترس يوسف افتراسا، فمزق يعقوب ثيابه، ووضع مسحا على حقويه وناح على ابنه أياما كثيرة، فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه، فأبى أن يتعزى وقال: إنى أنزل إلى ابنى نائحا إلى الهاوية، وبكى عليه أبوه.» فلعلنا بذلك نكون عرفنا من أين استقى بعض المفسرين أقوالهم التى لا تتفق وظاهر الآيات فى هذه القصة.

القرار:

انتهى يعقوب ـ عليه السلام ـ من التحقيق فى الجريمة إلى استبعاد الدليل المزور الذى قدمه أولاده وأفهمهم أنهم كذبوا بقولهم: إن الذئب أكله، وأن الأمر على خلاف ذلك، وهو أنهم دبروا للتخلص من أخيهم، وبقى أن يحكم عليهم بما يستحقونه من عقاب. ولكن أى عقاب يوقع عليهم؟ إنه لم يثبت له أنهم قتلوا يوسف، ولو كانوا قتلوه ما احتاجوا إلى أن يضعوا على قميصه دما كذبا، إذن فالقدر المتيقن فى حقهم أنهم أخفوه عنه فى مكان ما، ولذلك فإن يعقوب لم يحدد لهم ما فعلوه بيوسف مكتفيا بالقول: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾[1] ولم يعين هذا الأمر. هذا من ناحية التهمة، أما من ناحية العقوبة فبماذا يحكم أب على أبنائه فى مثل هذه الحالة؟! هل يحكم بنفيهم فيرحلوا عنه إلى أى مكان بحيث لا يراهم؟ أم يحكم بضربهم أو بحرمانهم من أن يرثوه؟ أم بغير ذلك؟! لم يكن ليخفى على يعقوب تعذر ـ إن لم يكن استحالة ـ توقيع أى عقوبة على أبنائه العشرة الأشرار! ثم إنهم أولاده أولا وأخيرا. وأطرق يعقوب طويلا يفكر فيما يمكنه أن يفعله، ثم رفع بصره إليهم وقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[1] أى أن أمرى معكم ومع ربى فهو أن أصبر صبرا جميلا لا يشوه جماله جزع اليائسين من رَوْح الله، القانطين من رحمته، ولا الشكوى إلى غير الله ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[1] من هذه المصيبة، لا أستعين على احتمالها غيره

---

(١) سورة يوسف، من الآية: ١٨

أحدا منكم ولا من غيركم.[1] فنظروا إليه فى بلادة وبرود كما لو كانوا لم يفهموا ما يعنيه، وقد غاب عنهم أنه وإن كان قد عجز عن أن يفعل بهم شيئا فإنه ترك أمرهم إلى الله تعالى، وأومأ إليهم أن انصوفوا، ثم أشاح بوجهه عنهم، فتبادلوا نظرات خبيثة اختلط فيها الارتياح بالسرور وهم يتركون المكان ولسان حالهم يقول: ليقل ما يشاء، المهم أننا تخلصنا من يوسف وإلى الأبد، ولن نلبث أن نسترضيه ـ يقصدون أباهم ـ فيعفو عنا ونتقاسم كل حبه بعد أن كان يؤثر يوسف بمعظمه.

ولكن هل فازوا حقا بحب يعقوب بعد أن اختفى يوسف؟! كلا بالطبع؛ وذلك لسبب غاب عنهم نتيجة لغيرتهم من يوسف وحقدهم عليه، وهذا السبب هو أن جريمتهم أصابت قلب يعقوب بجرح عميق، بدا كما لو كان لا يتوقف عن النزف بما يقترن به من آلام مبرحة لم تكن لتترك له فرصة ليحب أو ليكره. وعلى الرغم من أنه تجمل بالصبر، إلا أن صبره لم يكن يمنعه من أن يبكى على ابنه الصغير الذى كاد أن يصبح نبيا مثله ومثل جده إسحق وجده الأكبر إبراهيم ـ عليهم السلام ـ لولا أن وأد أبناؤه الحمقى هذا الأمل. وكان يعقوب يخشى أن تنقطع النبوة بموته من بيت إبراهيم، خاصة وأنه لم يفكر أبدا فى احتمال أن يخلفه واحد من هؤلاء الأشرار الذين تمالأوا على التخلص من أخيهم؟!

وهكذا فشل إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ فى إحراز الهدف الذى ارتكبوا الجريمة من أجله، وهو أن يخلو لهم وجه أبيهم فلا ينافسهم فيه يوسف، فظل كلما تكلم ذكر يوسف حتى بدت ذكراه كما لو كانت كابوسا يؤرقهم وشبحا يطاردهم، وبخاصة وهم فى حضرة أبيهم، مما جعلهم يتجنبونه حتى لا يواجهوا جريمتهم، وهم الذين كانوا يطمعون فى الاستئثار بحبه، فإذا فاض بهم الكيل تأففوا وتبرموا وأغلظوا له فى القول لتتسع الفجوة بينهم وبينه، وبدلا من أن ينسوا يوسف ويعفوه من حسدهم وحقدهم وهو الغائب الذى لا شأن له بهم، عادوا يجترون هذا الحقد حتى بات يعذبهم. ولقد بدا حقدهم على يوسف

(١) رشيد رضا، المرجع السابق، ص ٢٢١

واضحا جليا يوم أن وجه الاتهام لأحدهم بسرقة صواع الملك، حيث قالوا إن كان قد سرق فقد سرق أخ له من قبل، أى أن يوسف كان سارقا، يريدون أن يسيئوا إليه على الرغم من أنهم تخلصوا منه، ولكنه الحقد عليه الذى لم يفارق قلوبهم، وهم أول من يعلم أنه ما سرق يوما!

وهنا كان قد حان وقت العقاب الذى اختاره الله تعالى لهم فى الدنيا، غير ما كان سيعاقبهم به في الآخرة لولا أنهم تابوا، وهو عقاب نفسى أشد كثيرا من العقاب المادى. ذلك أن الله تعالى أراد لهم أن ترتد سهامهم إلى نحورهم، فقد حسدوا يوسف وتمنوا زوال النعمة عنه وصيرورتها إليهم، وقاموا بإلقائه فى الجب لكى يختفى إلى الأبد، فكان أن التقطته القافلة المتوجهة إلى مصر وحملته إليها، حيث واجه خطوبا ومصائب ما بين اتهام كاذب بمحاولة الاعتداء على زوجة سيده العزيز، إلى وضعه فى السجن سنين طويلة، وأخيرا انقشعت الغمة وبدأ يجنى ثمار صبره الطويل، وأصبح أثيرا لدى الملك بعد أن برئت ساحته من التهمة الظالمة، وتولى الوزارة. وهكذا ضاعف له الله فى النعم. وإن أشد ما يؤلم الحسود الحقود هو أن يرى غريمه الذى اختصه بحسده وقد احتفظ بما أنعم الله عليه، فما بالنا إذا رآه وقد ضاعف الله له من النعم حتى بوأه مكانة عالية؟! إنه يوشك أن يموت كمدا وحسرة، ويشتد حقده حتى يظن أن سيقضى عليه. وهذا بالضبط ما حدث لإخوة يوسف، واستمع إليهم وهم يقولون ليوسف لما كشف لهم عن شخصيته ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾[1]

فستجد فى كلامهم نبرة الحسد لم تزل، ولكن ماذا بمقدورهم أن يفعلوه بعد كل الذى اقترفوه فى حقه؟! لا شىء، لأن الله أكبر وأعظم وأقوى منهم، إذن فلا سبيل أمامهم ـ وهم الأضعف ـ إلا أن يعترفوا بأنهم كانوا خاطئين. فيقول لهم يوسف ـ وقد رأى كيف أن الله عاقبهم بأن جعله الأعلى وهم الأسفل يقفون أمامه صاغرين أذلاء ـ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[2].

(١) سورة يوسف، الآية: ٩١

(٢) سورة يوسف، من الآية: ٩٢

وهكذا تكون معاملة الأخ المظلوم لإخوته الذين ظلموه، ما دام أن الله أنصفه ونصره عليهم واعترفوا له بأنهم أخطأوا فى حقه، وكذلك إذا ظلموه فإنه يجب عليه أن يصبر ويستعين بالله إلى أن يرى حكم الله فيهم، أما اللدد فى الخصومة ورد الظلم بظلم مثله أو أشد منه فلا طائل من ورائه غير المزيد من العداوة والكراهية وما تؤدى إليه من قطع صلة الرحم التى أمرنا الله بالحرص عليها والتمسك بها.

خلاصة:

نخلص من قصة هذه الجريمة الشنعاء إلى الآتى:

أولا ـ أن الحسد يوجد لدى الإخوة نحو بعضهم البعض، وأنه قد يدفعهم إلى ارتكاب الجريمة فى حق بعضهم، وهو ما سبق أن رأيناه فى الفصل الأول حيث قتل قابيل أخاه هابيل، ورأيناه فى هذا الفصل حيث قرر بعض إخوة يوسف قتله فى أول الأمر، لولا أن تدخل أحدهم فاقترح أن يلقوا به فى غيابة الجب طالما أن ذلك سيحقق لهم غرضهم وهو التخلص من يوسف. وهذا يعنى أن تعدد الشركاء فى الجريمة يمكن أن يغير من مسارها، بحيث يعدل مرتكبوها عن القتل إلى ما هو أخف. وذلك بخلاف ما حدث من قابيل الذى كان وحده فمضى فى تنفيذ ما أقسم على اقترافه من جرم دون أن يراجعه أحد.

ثانيا ـ أن الصبر على أذى الإخوة أفضل من التصدى لهم ومبادلتهم حسدا بحسد وإساءة بإساءة، خاصة فى الحالة التى يتحالف فيها الإخوة ضد أخيهم صاحب النعمة؛ لأن خطرهم يكون شديدا، وكيدهم يكون عظيما. وأن المحسود لو تحلى بالصبر فإن الله تعالى سينصره على أعدائه، فلا يملكون إلا أن يرضوا بما قسمه الله له ولهم. وقد يعترفون بخطئهم ويلتمسون المغفرة من الله بعد أن يتوبوا إليه فيغفر لهم كما فعل مع إخوة يوسف.

ثالثا ـ أن الجريمة لاتفيد، وليس هناك سوى الوبال والخسران تعود به على مرتكبها، فبينما ظن إخوة يوسف أن اختفاء يوسف سيجعل أباهم يهتم بهم

ويبذل لهم من الحب ما كان يبذله لأخيهم الصغير اليتيم جاءت النتيجة بخلاف ما كانوا يظنون فقد صرفه الحزن على يوسف عن كل شيء إلا البكاء حتى ابيضت عيناه من الحزن، وبدلا من أن ترفرف السعادة عليهم وعلى أسرهم رفرف الحزن وتفشت الكآبة، فكان ذلك بمثابة عقاب لهم؛ لأنهم ظلوا يواجهون جريمتهم مع كل دمعة من دموع أبيهم، وكل إجهاشة يجهش بها فى يومه وليله، وكلما رأوه وهو يتحسس طريقه فى البيت أو خارجه فيتعثر تارة ويقع أخرى تحركت ضمائرهم من سباتها العميق.

رابعا ـ أنه ليس هناك ما يسمى الجريمة الكاملة؛ ذلك لأن المجرم مهما خطط ودبر من أجل أن لايترك ما يدل على ارتكابه للجريمة، فإنه لابد أن يخطىء لينكشف أمره. وها هم إخوة يوسف يحاولون أن يرتكبوا جريمة كاملة فيفشلون؛ فقد ظنوا أن أباهم حين أبدى خشيته من أن يتركوا يوسف فيأكله الذئب قدم لهم بذلك الحل الأمثل لمشكلتهم، فما أن ألقوا بيوسف فى الجب حتى ذبحوا شاةً ثم ألقوا بدمائها على قميص يوسف؛ لكى يقدموه لأبيهم قائلين إن الذئب قد أكله، وهذا دمه، ولكنهم نسوا أن الذئب لا يجرد الإنسان من قميصه حين يريد أن يأكله، وإنما يغرس مخالبه وأنيابه فى لحمه مخترقا ثيابه التى تخضبها الدماء من الداخل والخارج متخللة النسيج والثقوب.

وهكذا استطاع يعقوب أن يكشف أمرهم.

الفصل الثالث

المتهم البرىء

تمهيد

على الرغم من أن الأنبياء جميعا تعرضوا لاعتداءات تصل إلى حد الجريمة، ابتداء من القذف والسب مرورا بالضرب ومختلف أنواع الإيذاء، وانتهاء بالقتل أو الشروع فيه، إلا أن القرآن الكريم لم يخص نبيا منهم بذكر جريمتين وقعتا عليه ـ وكان مجنياً عليه فيهما ـ غير يوسف ـ عليه السلام ـ فقد رأينا فى الفصل السابق كيف تآمر إخوته عليه؛ لينزعوه من أبيه، وهو بعد غلام صغير، لا حول له ولا قوة، حتى نجحوا فى ذلك، ثم أخذوه إلى حيث يقع الجب الذى كانوا قد اتفقوا على إلقائه فيه. ثم كيف التقطته قافلة الإسماعيليين وحملته إلى مصر وهو لا يدرى ماذا سيكون مصيره. ثم حدث أن عرض للبيع في سوق العبيد حيث اشتراه عزيز مصر وصحبه إلى قصره. وكانت هذه هى الجريمة الأولى.

أما الجريمة الثانية فقد حدثت بعد أن قضى فى قصر العزيز مدة من الزمن وصلت به إلى مرحلة البلوغ التى انتقل بها إلى طور الفتوة، حيث برز حسنه وتجسدت وضاءته، واكتسب جسمه قوة واتساقا، فلفت نظر امرأة العزيز التى حاولت أن تثير حواسه وتلهب مشاعره لكى يضاجعها، ولكنه أبى، فما كان منها إلا أن اتهمته بأنه حاول أن يغتصبها، ودعت إلى معاقبته بالسجن أو بالتعذيب، وبالفعل أودع السجن ليقضى فيه سنوات دون ذنب أو جريرة اللهم إلا لإرضاء المرأة المفتونة التى أغضبها أن لا يستجيب لها بأن يزنى بها، وحتى لا يفتضح كذبها أمام الناس، حيث ادعت أنه هو الذى حاول أن يغتصبها فأبت، ولحفظ ماء وجه زوجها الموظف الكبير، فلا يقال إن زوجته هى الجانية وليس الشاب الجميل يوسف الذى فتنها حبا حتى فقدت سيطرتها على نفسها، فأقدمت على دعوته

ليضاجعها ولكنه أبى. ومن ثم يثور الجدل حول ما دفعها إلى سلوك هذا الطريق، ودور زوجها فيما حدث!

جريمة امرأة العزيز:

ونعود إلى قصة هذه الجريمة فى القرآن الكريم فنجد أنها ـ على الرغم من اختصارها الشديد شأنها فى ذلك شأن كل القصص القرآنى ـ فإنها مع ذلك جاءت مكتملة من حيث اشتمالها على كل عناصر الجريمة، مثل ظروف الجانى (أو الجانية)، والباعث لديها على ارتكاب الجريمة، وكيفية التدبير لارتكابها، والحوار الذى دار بين الجانى والضحية، وأسلوب الاستدلال على الفاعل الحقيقى، ومسرح الجريمة، وغير ذلك من الملابسات التى تسبق الجريمة أو تعاصرها، ومنها شخصية العزيز وما كان عليه من ضعف شديد أمام زوجته الماكرة. وقبل كل شىء فإن القرآن الكريم بإيراده هذه القصة أكد حقيقة هامة طالما غفل عنها الناس، وهى أن النساء لسن دائما المجنى عليهن فى الجرائم الجنسية وبالذات الاغتصاب، وإنما قد يحرضن على وقوعه بما يمتلكن من أساليب الغواية ووسائل الإثارة؛ لذلك يجب أن لا تؤخذ اتهاماتهن للرجال بالاعتداء عليهن باعتبارها حقائق غير قابلة للنقاش أو البحث والتمحيص، وإنما ينبغى التزام الحذر التام إزاء مثل هذه الاتهامات خاصة مع ما هو معروف عن النساء من قدرة على الكيد المتقن والتلفيق المحكم. كما بين لنا كيف أن بعض النساء لا يختلفن عن الرجال فيما يصدر عنهم من تصرفات تتسم بالعنف والتهور، أو بالطيش والرعونة إذا ما انتابهم الإحساس بالرغبة الجنسية، وهو ما فعلته امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام.

كذلك قدم لنا صورة فريدة عن المجتمع الذى عاشت فيه المرأة وزوجها العزيز، وكيف أنه كان مجتمعا تتفشى فيه الرذيلة، أو على الأقل فى الطبقة العليا منه، أو كما تسمى أحيانا طبقة الصفوة التى تتكون من الحكام وأعوانهم ومساعديهم وأقاربهم، كما يتفشى فيه الظلم والقهر والاستبداد، صحيح أنه فى

الوقت الذى وقعت فيه الجريمة كانت مصر تحت حكم الهكسوس الذين غزوا مصر سنة ١٧٣٠ قبل الميلاد، وأقاموا فيها طوال قرن ونصف (وفى رأى آخر قرنين ونصف)، مما يحتمل معه أن تكون هذه الصفوة الفاسدة منتمية إليهم. ولكن ذلك لا يمنع من وجود مصريين تعاونوا مع الهكسوس وخالطوهم على المستويين الفردى والأسرى شأن كثير من الانتهازيين والوصوليين والمنافقين فى أيامنا هذه، الذين لم يتورعوا عن التعامل مع الإسرائيليين الذين يحتلون جزءا عزيزا من أرض المسلمين، ومن قبلهم الإنجليز أثناء احتلالهم لمصر، ومن قبل الإنجليز الفرنسيون أثناء حملة بونابرت وما بعدها. فذوو النفوس الضعيفة موجودون فى كل زمان ومكان، فلا يقولن أحد من المرضى بحب الفراعنة إنهم كانوا استثناء من هذا الوضع!

وقصة هذه الجريمة النكراء كما وردت فى القرآن الكريم فى سورة يوسف[١]: أنه بعد أن التقطت القافلة يوسف من الجب وحملته إلى مصر لتبيعه فيها على أنه عبد، اشتراه العزيز، وهو لقب، قيل إنه كان يطلق على كبير وزراء الملك. وجاء فى سفر التكوين[٢] أنه كان يطلق على رئيس الشرط وحامية الملك وناظر السجون، أو مانسميه الآن وزير الداخلية. وهذا الخلاف بشأن وظيفة العزيز يُبينُ لنا عن الحكمة التى من أجلها لم يهتم القرآن بذكر الأسماء أو المناصب أو الاختصاصات الوظيفية وغيرها؛ لأنها مما لايفيد كثيراً، أو لا يفيد بالمرة فى مثل هذه الأحوال؛ لأن القرآن ليس كتاب تاريخ أو سجلا للحوادث، وإنما ورد به القصص لسببين:

الأول ـ إثبات معجزة القرآن وأنه ليس من وضع الرسول محمد ﷺ الذى لم يكن لديه علم بالأحداث التى اشتمل عليها القصص، ولا بالوقائع التى تناولها، بل إن ما جاء من هذا القصص فى كتب الآخرين كاليهود مثلا عابه الخلط الواضح والتناقض الفاضح، مما يؤكد أن اليهود غيروا وبدلوا فى التوراة خدمة

(١) الآيات من ٢١ إلى ٥٣

(٢) الإصحاح ٣٧

لمصالحهم الدنيوية، واستجابة لما أملته عليهم أهواؤهم، وهو ما ينفى عنه تهمة النقل عنهم، التى وجهها إليه كثير من المستشرقين والمبشرين النصارى الذين أعماهم التعصب عن ملاحظة الاختلاف الواضح بين ما ورد فى التوراة وما جاء في القرآن.

الثانى ـ أن يستخلص الناس من هذا القصص العظات والعبر، ويتعلموا منها كيف يتصرفون إزاء المواقف المماثلة بما يحول دون تعرضهم لما تعرض له أبطال هذا القصص، أو وقوعهم فيما وقعوا فيه من أخطاء. والمعلوم أن القرآن الكريم استخدم أكثر من أسلوب فى تهذيب الناس وتربيتهم وتعليمهم، منها النصح والتوجيه والإرشاد، وهى أساليب مباشرة، أما الأساليب غير المباشرة فمنها القصص الذى وإن بدا أنه يهدف إلى الترويح عن النفس إلا أنه فى الحقيقة يؤدى وظيفة أخرى هامة، لا يدرك أهميتها إلا من يحسنون إعمال النظر، ومن هم على درجة عالية من الذكاء والفطنة؛ فهم الذين يملكون القدرة على استخلاص العظة بأنفسهم، والتعرف على موضع النصيحة بعقولهم.

وقائع القضية:

لما اشترى العزيز يوسف أخذه إلى داره ليقدمه إلى زوجته قائلا لها: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[1]

وقول العزيز: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾[1]:

يقصد به في أعمال البيت وما يرتبط به من شئون، وأستبعد أن يكون قد قصد ما ذهب إليه الشيخ رشيد رضا[2] من إضافة شئون الدولة العامة؛ لأن هذا لا يدخل فى نطاق قدرة العزيز أو صلاحياته، وإنما أمره موكول إلى الملك الذى يستقل بالحق في تعيين الموظفين كبارا وصغارا، بل إن العزيز نفسه لم يكن يملك أن يبقى فى منصبه، والدليل على ذلك أن يوسف حل محله فيما بعد، وأصبح

---

(١) يوسف: ٢١

(٢) تفسير المنار، ج ١٢ ص ٢٢٥

عزيزا لمصر، وحتى لو أن العزيز كان قد مات قبل أن يسند الملك هذا المنصب إلى يوسف، فإن ذلك لم يحدث بسبب وصية تركها العزيز للملك بتعيين يوسف فى هذا المنصب، ولكن لأن الملك تعرف بنفسه على قدرات يوسف ومواهبه، وليس لأى سبب آخر. ثم أضاف العزيز: ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾[1] ولقد تصورت العزيز وهو يقول ذلك، وكان واقفا أو جالسا يحدث زوجته، ثم التفت إلى يوسف ونظر إليه مليا، وقد علت وجهه ابتسامة رقيقة تفيض بالمودة، بينما امتزج العطف فى نظرته بالشفقة على الغلام الصغير الجميل الذى لا حول له ولا قوة، والذى كانت تبدو عليه مخايل الذكاء والنجابة فضلا عن الأدب الذى كان يمتزج بمسحة من الحزن النبيل الذى لم يفارقه منذ أن تركه إخوته فى الجب؛ لكى يحرموه من حب أبيه وحدبه عليه ورفقه به، وليستأثروا هم بكل هذا، كما غلب على ظنهم!.

ويذهب أغلب المفسرين إلى القول بأن العزيز لم يكن له ولد ولم يأت النساء[2]، أى عقيما لا يولد له[3] كما قيل إنه كان حصورا[4].

وليس من السهل أن يصرح رجل فى مكانة العزيز بما يتمناه من اتخاذ عبد جديد - لم يمض على شرائه له إلا سويعات - ولدا له ولزوجته، وهو الذى لم يعرف عنه شيئا، ولم يختبره فى مواقف مختلفة ويعجم عوده. ولقد برر جمهور المفسرين هذا التصرف من جانب العزيز بأنه يرجع إلى أنه كان على درجة عالية من الفراسة مكنته من أن يستنتج ما عليه عبده الجديد من كرم محتد وطيب أصل وحسن أدب وجميل طباع، فضلا عن جمال الخلقة، ورفيع الخلق. غير أنى أختلف معهم فيما ذهبوا إليه؛ لأن تصرف العزيز مع زوجته الفاسدة يدل على افتقاره الواضح إلى هذه الصفة، وإلا لكان بمقدوره أن يدرك ما هى عليه من فساد وشر دون حاجة إلى شهادة أحد أقاربها يوم أن دخل البيت فرآها تطارد فتاها وهى فى حالة شبق شديد تعترى - عادة - من هن من هذا النوع من النساء.

---

(١) سورة يوسف، من الآية: ٢١

(٢) الطبرى (جامع البيان فى تفسير القرآن) ج ١٢، ص ١٠٤

(٣) الزمخشرى (الكشاف) المجلد الثانى، ص ٣١٠

(٤) القرطبى، المرجع السابق، ص ١٩٠

أو لبادر إلى إبعاد يوسف عن البيت بعد أن أدان الشاهد زوجته بالاعتداء على يوسف، أو لأدرك أن ما اقترحته من سجن يوسف وتعذيبه إنما هو بدافع من الرغبة فى الانتقام منه؛ لأنه رفض أن يضاجعها مما عدته إهانة لأنوثتها واستخفافا بمكانتها الاجتماعية، وأنها زوجة العزيز!!

فلماذا ـ إذن ـ تمنى العزيز أن يتخذا من يوسف ولدا؟! الذى أرجحه أن السبب يرجع إلى ذلك الإحساس الغامض الذى انتاب العزيز وجعله يتعاطف مع الفتى الجميل الرقيق الذى لا حول له ولا قوة؛ فقد شعر أنه مثله لا يختلف عنه فى شيء رغم منصبه الخطير، فكلاهما عبد مملوك، فهو ـ أى العزيز ـ ملكته زوجته اللعوب، فأصبح عبدا لها بسبب ضعفه وقلة حيلته وهوانه على نفسه بعد أن كشفت عجزه عن القيام بالواجب الذى تفرضه عليه الزوجية مع حبه الشديد لها. وكانت صغيرة جميلة ماكرة لعوبًا أحسنت استغلال الظروف، فعرفت كيف تسيطر عليه وتسخره لتحقيق كل ما تصبو إليه، فبات يعانى من إحساس قوى بالدونية، وشعور طاغ بالإحباط، وانتهى به الحال إلى أن أصبح عبدا ذليلا لها. أما يوسف فإنه صار عبدا بمقتضى نظام جائر يسمح للإنسان بأن يشترى ويتملك أخاه الإنسان فيفعل به ما يشاء دون أن يكون له أن يعترض أو يمتنع، أو حتى أن يسأل لماذا؟!.

وربما يكون العزيز قد أراد ـ بالإعراب عن تمنيه أن يتخذا يوسف ولدا ـ أن ينبهها ـ بأسلوب لبق ـ إلى أن يوسف فى عمر ولدهما، لو أنه كان قدر لهما أن ينجبا، وبالتالى يجب عليها أن تتعامل معه بنفس الأسلوب الذى تتعامل به الأم مع ابنها من حيث العطف والسمو والطهارة والشرف، وكل ما يليق بمقام الأمومة.

ولا شك أن يوسف لما سمع هذا القول من العزيز نظر إليه فى امتنان ورضا وفكره مشغول بالله يشكر له أن قيض له هذا الرجل الكريم لكى يعوضه بعضا مما فقده من حنان الأب وعطفه، ويبعث فيه إحساسا بالطمأنينة والأمان، ويعيد إليه ثقته فى الناس بعد أن غدر به إخوته وهم أقرب الناس إليه وفعلوا به ما فعلوا،

فبيع بيع السلعة القليلة القيمة بعد أن ظل وقتا معروضا فى سوق النخاسة تتفحصه أنظار المشترين، مما أوشك أن يفقده إحساسه بآدميته، وأصابه خوف شديد من أن يشتريه شخص قاس أو منحرف أو شره إلى المال يعيد بيعه ليحصل على ربح أكبر. وهكذا إلى أن اشتراه العزيز وصحبه إلى داره وهو يترفق به ويشفق عليه مما هو فيه، ثم ها هو يقول لزوجه هذا الكلام الطيب الرقيق. أما هى فقد أخذت تنظر إليه كما لو كانت تتفحصه وقد لفت نظرها بوسامته وحسنه ووجهه الصبوح، بتعبيراته الرقيقة المفعمة بالطيبة والسماحة، ونظرته التى تفيض بالبراءة والهدوء وصفاء النفس، ثم تهبط بنظرتها فى بطء تتأمل قوامه الممشوق، وجسمه السليم الذى يخلو من العيوب، ويبشر برجولة كاملة، بينما هو يتلافى التقاء عينيه بعينيها، وقد اعتراه خجل أصابه باضطراب تلاحظه هى فتبتسم فى دهشة مرحة ماكرة، وترد على ما قاله زوجها بإيماءة غامضة، بينما هى تسحب نظرتها عن الغلام الجميل فى بطء.

وليس من شك فى أن إرادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ كانت قد سبقت إرادة الجميع: يوسف والعزيز وامرأته، إلى أن إقامة يوسف ستكون فى قصر العزيز المدة التى حددها الله؛ لأنه سيكون المسرح الذى ستجرى عليه الأحداث الهامة فى حياة يوسف ـ عليه السلام ـ والتى سيكون ختامها تحقيق الرؤيا التى سبق له أن رآها. لكن لماذا قصر العزيز بالذات وقد كان هناك قصور أخرى كثيرة يقيم بها رجال من أهل الحكم ومن الصفوة يمكن أن يكون فيها جميعا، أو فى بعضها نساء مثل امرأة العزيز يملن إلى يوسف ويحاولن التغرير به وغوايته لكى يضاجعهن فيأبى فيفعلن كما فعلت امرأة العزيز لما اتهمته أمام زوجها، فيسعى أزواجهن أو إخوتهن أو أقاربهن من ذوى النفوذ والسلطان أو ممن هم على صلة بهؤلاء، من أجل الزج به فى السجن، حيث يلتقى بالرجلين اللذين فسر لهما رؤياهما، ثم تتوالى بقية الأحداث؟!

ما نرجحه هو أن الله تعالى جعل إقامة يوسف فى قصر العزيز لسبب هام للغاية يرتبط بالنهاية التى سبق أن بشرت بها الرؤيا التى رآها، وهى أنه سيكون

رجلا ذا شأن، يسجد له أعضاء أسرته، وهو ما لا يكون إلا بالنسبة للحكام الذين مهما بلغت علاقتهم بأقربائهم من حميمية ومودة وحب، فإن للتقاليد - أو ما يسمى بالبروتوكول - حكمها الذى لا يستثنى منه أحد، طالما أن اللقاءات تمت فى العلن، مثل قاعة الحكم أو الملك، فيكون على هؤلاء الأقارب أن يسجدوا كما يسجد سائر الناس.

لذلك كان ضروريا أن يتم تدريب يوسف على ممارسة شئون الحكم أو الوزارة، حتى إذا جاء اليوم الذى يقع فيه اختيار الملك عليه لتولى شئون الحكم استطاع أن يقوم بعمله على الوجه الأكمل من كافة جوانبه، سواء من حيث آلية العمل ذاته، أو من حيث ما يكتنف القيام به من أسرار وألاعيب ومؤامرات.

وبطبيعة الحال، لا يوجد ما هو أفضل من قصر العزيز كمكان أو مدرسة يتعلم فيها يوسف كيف يكون حاكما، وحاكما ناجحا. فالعزيز باعتباره رأس السلطة الإدارية يستقبل فى قصره معاونيه على اختلافهم؛ لكى يطلعوه على سير الأمور فى مصالحهم، ويتلقوا تعليماته أو يستمعوا إلى نصائحه. كما أن هؤلاء الأعوان والمرءوسين كانوا يلبون ما يوجهه إليهم العزيز من دعوات لحضور ما يقيمه من احتفالات فى قصره، وفى الحالتين فإن يوسف - الفتى الأثير لدى العزيز - يسمع ويلاحظ ما يقال أو يحدث، ويتعلم، حتى ولو كان وجوده فى القاعات أو الغرف التى يجتمع فيها العزيز بأعوانه من الوزراء وكبار الموظفين لايستغرق إلا وقتا قصيرا هو الذى تستغرقه خدمته لسيده ولضيوفه. يضاف إلى ذلك ما كان يسمعه يدور من أحاديث بين الخدم تتناول العزيز وزواره من الكبار، وتتطرق إلى ما قد يكون هناك من أسرار الحكم وألاعيب الحكام، وهو مالم يكن سيتاح له معرفته فى أى مكان آخر.

ولعل لغة قوم يوسف - وأصلهم من العراق، وهم الذين هاجروا مع إبراهيم عليه السلام لما رفض دين أهله وأمره أبوه آزر أن يفارقه - كانت قريبة أو مماثلة للغة الهكسوس أو الرعاة الذين كانوا يحكمون مصر يومئذ، وقيل إنهم هم

العماليق الذين ترجع أصولهم إلى الجزيرة العربية[1] والذين كانت لغتهم العربية القديمة والتى تنتمى هى والعبرية إلى عائلة لغوية واحدة هى عائلة اللغات السامية التى تشمل اللغة الحبشية أيضا؛ ولذلك كان سهلا عليه أن يتعامل مع سيده العزيز وامرأته اللذين كانا من الهكسوس، شأن كل هيئة الحكم، من الملك إلى الموظفين إلى رؤساء الجند وقادتهم. بل وقد يكون لشراء العزيز ليوسف علاقة بأصله العبرى، فضلا عن مزاياه الأخرى؛ ذلك لأن الغزاة إذا احتلوا بلدا وحكموه فإنهم يفضلون الاستعانة بخدم وأعوان من غير الوطنيين، خوفا مما قد يقوم به هؤلاء من أعمال تجسس أو تخريب أو اغتيال أو تسهيل اغتيال مخدوميهم من الغزاة. وهناك من يرى أن كثيرا من العبرانيين كانوا قد تسللوا إلى مصر قبل غزو الهكسوس لها وأقاموا فيها، وذلك قبل أن يأتى إليها يوسف بوقت طويل، ويحتمل أن يكونوا قد قاموا بدور فى غزو هؤلاء لمصر. كذلك يقال إن كثيرين منهم دخلوا مصر مع الهكسوس، وعملوا فى خدمتهم؛ لذلك فإن من المحتمل أن الرجلين اللذين التقى بهما يوسف فى السجن كانا من الخدم العبرانيين الذين التحقوا بخدمة الملك. مما سهل عليه التخاطب معهما وفهم كلامهما عن رؤياهما، ثم تفسيره لها. وكذلك لما عاد إليه أحدهما ـ وهو الساقى ـ يروى له الرؤيا التى رآها الملك ويطلب منه أن يفسرها له.

سن يوسف يوم أن اشتراه العزيز:

وعلى الرغم من أنه سبق أن بحثنا فيما كانت عليه سن يوسف يوم أن ألقى به إخوته فى الجب، وعرضنا ما ذهب إليه المفسرون فى هذا الصدد، ثم رجحنا رأى من قالوا إنه كان فى الثانية عشرة للأسباب التى أوردناها، فإن الطبيعة الخاصة للاتهام الذى وجهته امرأة العزيز إلى يوسف بأنه حاول الاعتداء عليها يقتضى مزيدا من البحث فى مسألة السن؛ لارتباطها بإمكانية وقوع الاعتداء ـ وهو ذو طبيعة جنسية ـ من عدمه. وطالما أننا افترضنا أن سن يوسف يوم أن

---

(١) محمد عزة دروزة (تاريخ موجات الجنس العربى، فى وادى النيل: مصر والسودان، قبل العروبة الصريحة) ص ١١٩ وما يليها.

ألقى به فى الجب كانت الثانية عشرة، فإن البحث سيجرى بشأن سنه يوم أن اتهمته المرأة اللعوب بمحاولة اغتصابها، ولايساورنا أى شك فى أن سن يوسف يوم أن اشتراه العزيز كانت الثانية عشرة أيضا؛ حيث إن إحضار القافلة له إلى مصر من موقع الجب الذى عثر عليه فيه لم يستغرق شهرا وربما أقل؛ نظرا لقرب المسافة بين مصر والشام أو فلسطين الآن، حيث كان يوسف يقيم مع أبيه وحيث يقع الجب. وكما اختلف المفسرون بشأن سن يوسف يوم أن ألقى به فى الجب فقد اختلفوا أيضا بشأن سنه فى اليوم الذى اتهمته فيه امرأة العزيز بمحاولة الاعتداء عليها. ولا توجد مشكلة بالنسبة للفقهاء الذين قالوا إن سنه يوم أن ألقى به إخوته فى الجب كانت سبعة عشر عاما، وهو ما جاء فى التوراة، حيث إنه فى هذه السن يكون يوسف قد بلغ الحلم، وبالتالى يكون صالحا لأن يحقق الغاية التى رمت إليها امرأة العزيز بغوايتها له، وهى الجماع، ولكن المشكلة تقوم إذا كانت سنه يوم أن اشتراه زوجها دون السابعة عشرة، أى الثانية عشرة، وهو ما افترضه فريق من المفسرين وأخذنا به، فعندئذ يكون يوسف غير صالح لتحقيق الهدف من المراودة، وبالتالى فإنه تكون قد مضت مدة من الزمن بين مجيئه إلى بيت العزيز ومراودة زوجته له. ومن المفسرين الذين حاولوا أن يصلوا إلى تحديد لسن يوسف يوم أن راودته المرأة الطبرى[1] الذى اعتبر أن المرأة راودت يوسف بعد أن بلغ أشده، أى لما بلغ منتهى شدته وقوته فى شبابه، وذلك فيما بين ثمانى عشرة سنة إلى ستين سنة، وقيل أربعين سنة. كما ذكر آراء المفسرين فى هذا الصدد مثل مجاهد الذى قال: إن الأشد بلوغ ثلاث وثلاثين سنة، والضحاك الذى اعتبرها عشرين سنة، وابن عباس قال بضعا وثلاثين سنة، وقال آخرون: أربعون سنة. ولم يرجح الطبرى رأيا مما أورده، فقد انتهى إلى القول: «وجائز أن يكون ذلك وهو ابن ثمانى عشرة سنة، وجائز أن يكون أتاه وهو ابن عشرين سنة، وجائز أن يكون أتاه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، ولا دلالة له فى كتاب الله ولا أثر عن الرسول ﷺ ولا فى إجماع الأمة على أى ذلك كان. كذلك

(١) المرجع السابق، ص ١٠٤

الزمخشرى[1] لم يحدد متى يكون بلوغ الأشد، فقد قال: «قيل فى الأشد ثمانى عشرة سنة، وعشرون، وثلاث وثلاثون، وأربعون، وقيل أقصاه اثنتان وستون. وقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك بن أنس: الأشد بلوغ الحلم[2]» أما المفسرون المحدثون، ومنهم محمد رشيد رضا[3] فقد قال فى تفسير الأشد: إن المقصود به بلوغ الرشد، وكمال قوته وشدتها باستكمال النمو البدنى، وأن هذه السن فى عرف الأطباء تتم فى خمس وعشرين سنة، ولكن لأهل اللغة ورواة التفسير فيها أقوال: فعن عكرمة أنها خمس وعشرون سنة، وعن ابن عباس أنها ثلاث وثلاثون سنة، ولعله أخذه من قوله تعالى فى كمال البنية الإنسانية: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً ﴾[4] فجعلها درجتين: بلوغ الأشد، وبلوغ الأربعين، وهى سن الاستواء.

ومعنى هذا أن يوسف ـ يوم أن راودته امرأة العزيز ـ كان فى سن تتراوح بين البلوغ والثانية والستين بحسب قول من قالوا إن الأشد يكون فى هذه السن المتأخرة أيضا، وهو ما لا يمكن تصوره بأى حال؛ لأنه لو صح لاستحال أن تراوده امرأة العزيز التى كانت تكبره، ولو راودته ما استطاع أن يمتنع عليها لعجزه، لا عن مقاومتها فحسب، أن كانت قادرة على مطاردته، بل ولثقته فى أنها لن تصل معه إلى شىء! فلابد إذًا من أن تكون المراودة قد حدثت فى سن مبكرة عن ذلك، كأن تكون عند بلوغ يوسف الحلم أو بعد ذلك بقليل. فإذا أخذنا بالقول الأول وهو بلوغ الحلم، يكون يوسف قد أمضى من عمره ثلاث سنين ـ كحد أدنى ـ فى بيت العزيز قبل أن تصبو إليه امرأته وتشغف به حبا فتراوده عن نفسه. أما إذا أخذنا بالقول الثانى وهوأن بلوغ الأشد يكون فى سن الخامسة والعشرين، أو فى الثالثة والثلاثين، أو الأربعين، فإن معنى ذلك أن

(١) المرجع السابق، ص ٣١٠
(٢) القرطبى، المرجع السابق، ص ١٦٢
(٣) تفسير المنار، المرجع السابق، ص ٢٢٥
(٤) الأحقاف: ١٥

يوسف عاش مع امرأة العزيز ـ من يوم مجيئه إلى بيتها إلى يوم مراودتها له عن نفسه ـ مدة تتراوح بين ثلاث عشرة سنة وثمانية وعشرين سنة، دون أن تتحرك مشاعرها نحوه، أو أن هذه المشاعر احتاجت إلى هذا الوقت الطويل جدا لكى تنمو إلى أن بلغت ذروتها فى حادثة المراودة! مع الأخذ بعين الاعتبار ما سبق أن قلناه عن سن المرأة بعد كل هذه السنين. وعلى ذلك، فإن كلا القولين محل نظر للأسباب الآتية:

أولا ـ أنه إذا كان الجمال الفائق الذى اختص به الله تعالى يوسف هو ما حرك مشاعر زوجة العزيز نحوه وسلبها لبها وما زال بها حتى أفقدها صوابها حتى أقدمت على مطاردته فى إصرار لا يليق بمن كانت مثلها بعد أن فشلت فى مراودتها له عن نفسه، فإن هذا العامل وهو الجمال موجود لدى يوسف منذ أن رأته بعد أن أحضره زوجها إلى الدار. وإذ كان يوسف وقتئذ غلاما فى الثانية عشرة من عمره لا يصلح لتحقيق الهدف الذى رمت المرأة إلى بلوغه بمراودتها له، فإن الأمر لم يكن يتطلب غير الانتظار أربع سنوات فقط يكون يوسف بعدها ـ وربما قبلها بسنة ـ قد بلغ الحلم، وأصبح قادرا على تحقيق ما كانت المرأة تصبو إليه؛ ففى السابعة عشرة وأحيانا قبلها يمتلك الذكر القدرة على التعامل مع النساء جنسيا، كما أن صغر سنه على هذا النحو يجعله أسلس قيادا وأسرع استجابة مدفوعا بقوة ما لديه من شهوة إلى النساء، ورغبة فى خوض التجربة التى يثبت بها الشباب فى هذه السن لأنفسهم أنهم قد أصبحوا فى عداد الرجال.

ثانيا ـ أن القرآن استخدم كلمة «فتى» فى معرض حديثه عن مراودة امرأة العزيز ليوسف فقال: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1]

مما يدل على أن هذه الكلمة وكلمة «غلام» تعبران عن مرحلتين عمريتين مختلفتين تعقب إحداهما الأخرى، كما أعقبت المراودة الانتشال من الجب وشراء العزيز له، وإحضاره إلى بيته.

(١) الآية ٣٠ من سورة يوسف

وفى لسان العرب، الفتى: الشاب. وقال القتيبى: ليس الفتى بمعنى الشاب والحدث، وإنما هو بمعنى الكامل الجزل من الرجال، وإن كان للكلمة معنى آخر دعا بعض المفسرين إلى ترجيحه فى حالتنا هذه وهو (العبد) ففى حديث النبى ﷺ أنه قال: «**لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى، ولكن ليقل فتاى وفتاتى**» أى: غلامى وجاريتى، كأنه كره ذكر العبودية لغير الله. غير أنه فات أصحاب هذا الرأى الانتباه إلى أن الرسول ﷺ قال ذلك فى القرن الأول الهجرى، السابع الميلادى، أى بعد الوقت الذى عاش فيه يوسف بما يزيد على العشرين قرنا، وبالتالى فإن استخدام الناس لكلمة (عبد) ظل سائدا من قديم الزمن إلى اليوم الذى نهى فيه الرسول ﷺ عن ذلك، ولو كان الأمر خلاف ذلك ما كانت هناك حاجة إلى أن ينهى المسلمين عن إطلاق صفة العبد على مماليكهم. ومع ذلك فليس ما يمنع من أن يكون الرسول ﷺ قد استلهم فى حديثه هذا ما ورد بسورة يوسف فى وصف النسوة ليوسف، على اعتبار أن ذلك هو نوع الأدب المرغوب فى معاملة السادة لمماليكهم، وهناك معنى آخر لكلمة (فتى) وهو الخادم؛ فقد سمَّى الله تعالى صاحب موسى ـ عليه السلام ـ الذى صحبه فى البحر فتاه، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ ﴾[(١)]

قال: لأنه كان يخدمه فى سفره، ودليله قوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾[(٢)].

وليس ما يمنع من اجتماع المعنيين أو الثلاثة ـ وهى الشاب والعبد والخادم ـ ولكن على شريطة أن يكون الخادم أو العبد شابا أو فتى، وعندئذ يصح إطلاق أى هذه الصفات عليه. ويقول سيد قطب[(٣)]: إن كلمة «فتى» وإن كانت تقال بمعنى عبد، ولكنها لا تقال إلا ولها حقيقة من مدلولها من سن يوسف، وهو ما ترجحه شواهد الحال. ولقد بينا كيف أن بعض المفسرين ذهبوا إلى القول أن يوسف ـ عليه السلام ـ كان فى سن تتراوح بين الثالثة والثلاثين والأربعين، وهى

(١) الكهف: ٦٠

(٢) الكهف: ٦٢

(٣) فى ظلال القرآن، الجزء ١٢، صفحة، ١٩٨٠

التى يبلغ فيها الإنسان أشده، ويطلق العرب على الرجل فى هذه المرحلة من العمر وصف (الكهل) وذلك يوم أن راودته امرأة العزيز عن نفسه، وهو ما استبعدناه للأسباب التى سنوردها فيما بعد. فإذا كان الأمر كذلك فمن باب أولى امرأة العزيز التى لابد أنها كانت قد تجاوزت الأربعين، حيث إن يوسف كان فى الثانية عشرة من عمره يوم أن اشتراه زوجها، ويصف العرب المرأة فى هذه السن بالكهلة، ويقال: امرأة كهلة إذا انتهى شبابها. وذلك عند استكمالها ثلاثا وثلاثين سنة (لسان العرب) فهل كان شباب امرأة العزيز قد انتهى فعلا؟! وإذا كان قد انتهى فما هو الفضل الذى ينسب إلى يوسف لرفضه الاستجابة لها وهذا هو المتوقع من أى رجل غيره؟!

أما المقريزى[1] وهو من الفريق الذى يتفق مع ما ورد فى التوراة بأن سن يوسف يوم أن ألقى به إخوته فى الجب كانت سبع عشرة سنة، فإنه يرى أن يوسف أقام فى بيت العزيز بعد أن اشتراه اثنى عشر شهرا، ثم راودته امرأته عن نفسه فاستعصم، وكذبت عليه إلى أن حبس ومكث فى السجن عشر سنين. ومعنى هذا أن يوسف كان فى الثامنة عشرة يوم أن راودته امرأة العزيز. ونحن وإن كنا نتفق مع المقريزى بشأن سن يوسف يوم المراودة إلا إننا نختلف معه بشأن سنه يوم أن ألقى به فى الجب. صحيح أن قصر المدة التى انقضت بين شراء العزيز ليوسف ومراودة زوجته له تغنينا عن البحث فى الأسباب التى جعلت هذه المراودة تتأخر فلا تحدث إلا بعد بضع سنين، وليس سنة واحدة كما زعم المقريزى! ولكن الوصول إلى الحقيقة أو حتى الاقتراب منها يهون فى سبيله أى جهد. وكذلك اتساق الآراء وتكاملها فإنه ـ بدوره ـ يتطلب المثابرة على البحث والإصرار على تتبع الحقيقة.

ثالثا ـ أن سن زوجة العزيز غير معروفة، وإن كان من الواضح أنها كانت تكبر يوسف بكثير، فيوم أن أحضره زوجها إلى الدار قال لها: أو نتخذه ولدا، وهو ما يمكن أن نستنتج منه أنها كانت فى مرحلة من العمر تجعلها تناسب أن تكون أما لغلام فى الثانية عشرة، وإلا ما تحدث زوجها بصيغة الجمع فقال: (نتخذه)! فإذا

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ١، ص ٢٤٧

افترضنا أنها تزوجت العزيز فى السن التى تكون فيها قادرة على الإنجاب، والتى تبدأ فى الرابعة عشرة، فمعنى ذلك أنها كانت تكبر يوسف بهذا العدد من السنين ـ على أقل تقدير ـ فإذا أضفنا إلى الاثنتى عشرة سنة ـ وهى عمر يوسف ـ أربع سنوات أو خمسا هى التى انقضت عليه فى بيت العزيز حتى اليوم الذى راودته امرأته فيه، فمعنى ذلك أنها كانت قد بلغت الثلاثين من عمرها أو نحو ذلك.

أما إذا كان يوسف قد بلغ أشده فى الخامسة والعشرين، فى قول، وفى الثالثة والثلاثين فى قول آخر، فإنها حسب القول الأول تكون قد بلغت الخامسة والثلاثين، أو تجاوزتها يوم أن دعته إليها فأبى، فلاحقته تريد أن تكرهه على مضاجعتها. أما حسب القول الثانى فإنها تكون قد بلغت الثالثة والأربعين أو تجاوزتها، وهو افتراض يصعب قبوله لما هو معروف من أن المرأة حين تبلغ هذه السن لا تتصرف بمثل هذا الطيش الذى تصرفت به امرأة العزيز مع يوسف!

والملاحظ أن الغالبية العظمى من المفسرين لم يهتموا ببيان سن امرأة العزيز، سواء يوم أن اشترى يوسف، أو يوم أن راودته عن نفسه، وربما يرجع ذلك إلى أن التوراة لم يرد بها شيء فى هذا الصدد. ومن المفسرين القلائل الذين بحثوا فى هذا الأمر الشهيد سيد قطب[1] الذى قال: «وعلى كل حال فالمتوقع عن رئيس وزراء مصر ـ يقصد العزيز ـ ألا تقل سنه عن أربعين سنة، وأن تكون سن زوجه حينئذ حوالى الثلاثين*. ونتوقع كذلك أن تكون سنها أربعين سنة عندما يكون يوسف فى الخامسة والعشرين أو حواليها، وهى السن التى نرجح أن الحادثة وقعت فيها». ولا ندرى لماذا جعل سيد قطب الفرق فى السن بين العزيز وزوجه عشر سنين فقط؟! وإن كنا نرجح أن يكون قد اعتمد على ما هو شائع فى هذا الصدد وهو أن يكون متوسط الفرق فى السن بين الزوجين عشر سنين، ولكن المعروف أيضا أن كثيرين وبخاصة من علية الناس وصفوة القوم، وبخاصة

---

(١) المرجع السابق، ص ١٩٧٩

* قيل: إن اسمها كان راعيل، وقيل: زليخا، وقيل غير ذلك. انظر: الموسوعة الإسلامية الميسرة، المجلد الثانى، ص ١٢٤٩.

من يعملون بالسياسة يتزوجون من إناث يصغرنهم بأكثر من عشر سنين، وربما بعشرين أو بخمسة وعشرين سنة، والأمثلة كثيرة ـ قديما وحديثا ـ ولعل ما كانت عليه العلاقة بين العزيز وزوجه ترجح أن يكون الفرق فى السن بينهما كبيرا وليس عشر سنين فقط. ولعل كبر سن العزيز مع عجزه الجنسى يفسران لماذا كان ضعيفا أمام زوجه اللعوب التى قيل إن اسمها كان زليخا، التى نرجح أن يكون سنها يوم أن راودت يوسف عن نفسه تتراوح بين الثلاثين والأربعين. بينما كانت سن يوسف تتراوح بين السابعة عشرة والعشرين.

نخلص من ذلك إلى أن يوسف ـ عليه السلام ـ كان فى حوالى الثانية عشرة من عمره يوم أن اشتراه العزيز وأخذه إلى بيته، وأن زوجته كانت على مشارف الثلاثين، جميلة تفيض أنوثة وجاذبية، وتتميز ـ شأنها فى ذلك شأن نساء القصور المترفات ـ بنعومة بشرتها، وتناسق قوامها، ورشاقته، وبالدلال، وخلو البال، فهى لا هم لها إلا جمالها وأنوثتها ومظهرها، من لحظة أن تفتح عينيها إلى أن تعود إلى فراشها فى وقت متأخر من الليل، بعد أن تكون نالت حظها من المرح واللهو. وبطبيعة الحال، فإن هذه المرأة الحضرية الجميلة، وحياتها الغريبة لفتت انتباه الغلام البدوى يوسف الذى ولد وتربى فى البادية بكل خشونتها وقسوتها، وحيث تتعرض النساء مثل الرجال لحرارة الشمس صيفا وللبرد القارس شتاء؛ فتتأثر أجسامهن وتجف بشرتهن، وتكتسب لونا شديد السمرة مع خشونة ملمس، كما أن أحجامهن ضئيلة، وأجسامهن نحيلة أميل إلى القصر، لا يظهر من مفاتنهن شىء؛ لأنهن يرتدين ثيابا خشنة فضفاضة تبدأ من رءوسهن إلى أرجلهن، وقد يضعن على وجوههن ما يخفى أنوفهن وشفاههن حتى رقابهن فلا يرى الرجل منهن غير عيونهن التى تكاد تكون الوحيدة التى تحظى باهتمامهن؛ حيث يُزَيِّنَّهَا بالكحل حتى يبرزن جمالها؛ لذلك فقد كانت المرة الأولى فى حياة يوسف التى تقع فيها عيناه على امرأة ترتدى ثوبا رقيقا للغاية يشى بما تحته، بل ولا رأى أصباغا مختلفة، منها الأحمر والأزرق والأبيض والوردى، تتوزع على العينين والخدود والشفاه فى تناسق عجيب، ولا شم رائحة عطر، غير البخور

التى عادة ما كانوا يحرقونها داخل خيامهم لتخفف من رائحة الوبر والصوف اللذين تصنع منهما الخيام، والفراش، وتظل لمدة طويلة تحمل رائحة الإبل والغنم، والتى كانت الحرارة الشديدة فى الصيف تضاعف من انبعاثها منها ومن ثيابهم المصنوعة من نفس المادة. أما هذا الذى تضمخ امرأة العزيز جسمها به من عطور فتفوح رائحتها الطيبة حيثما ذهبت فهو مما لا عهد له به.

كذلك، فإنه لم يكن قد خطر على باله فى يوم من الأيام أن هناك أناسا يعيشون فى مثل هذا الترف، فى نومهم وطعامهم وشرابهم وثيابهم وأدواتهم وسلوكهم وعلاقاتهم، ولا تصور أن فى الدنيا قصورا منيفة واسعة الأرجاء، تحيط بها الحدائق الغناء، التى تتخللها قنوات صغيرة أنيقة ينساب فيها الماء رقراقا عذبا إذا سقطت عليه الشمس تألق وكأنه خيوط من فضة تتثنى وتتراقص، بينما البلابل والطيور الصداحة تغرد وتشقشق وهى تنتقل من شجرة إلى شجرة فى طمأنينة ودلال. ولا شك أنه أخذ يتجول فى المكان وقد علت وجهه الدهشة، ولا شك أيضا فى أن الخدم الذين يعملون فى القصر قد لفت نظرهم حسن وجمال وانبهار الغلام البدوى على السواء، فأخذوا يتابعونه بنظراتهم كما لو كانوا يرون مخلوقا من غير البشر، ثم ما لبثوا ـ لما تعاملوا معه ـ أن أدركوا أنه بشر من مستوى راق جدا، حيث فاقت أخلاقه وكافة سجاياه وخصاله جمال خلقته، وأعجبوا وتعجبوا بأدبه الجم، وبالهدوء الذى يناسب من هم أكبر منه سنا بكثير، وبراءته وإحسانه الظن بالناس وميله إلى مساعدتهم والعطف عليهم وتقديم العون لهم، وترفعه عن الصغائر، مع تواضع شديد، ورقة وبشاشة. كما لاحظوا إخلاصه فى العمل، وحرصه على الوقت، وتمسكه بالنظام، وطاعته لمن هو أكبر منه أو أكثر خبرة فأحبوه وأحاطوه بالرعاية والاهتمام. وربما يكون العزيز قد أوصى رئيسهم به، وكذلك امرأته التى كان قد طلب منها أن تكرم مثواه، فأوصت بعدم تكليفه بما لا يطيق، والرفق به فيما يعهد به إليه من عمل، كما داومت على دعوته ليمثل أمامها لتطمئن عليه، ولتعرف ما إذا كان هناك ما يضايقه، بينما هى تبتسم له فى مودة ورقة، وترنو إليه فى إعجاب ودلال، بينما

وقف هو أمامها وقد اتجه بنظره إلى الأرض فى تعبير مهذب عما يشعر به من حياء، وهى تمعن فيه النظر فى دهشة يخالطها الإشفاق المشبع بالإعجاب بالغلام الجميل. وقد تسأله فى تعجب عما يجعله لا ينظر إليها فلا يجد إجابة يرد بها على سؤالها، بل يزداد اضطرابا وخجلا، فلا تملك إلا أن تغفر له امتناعه عن الرد وتصرفه فى رقة وهى تتبعه بنظرتها المتفحصة قائلة لنفسها: إنه لا يزال صغيرا خجولا، ولكنه لن يلبث أن ينضج ويبلغ الحلم وعندئذ سيتغير ويجد فى النظر إليها ـ ولو خلسة ـ متعة كبيرة.

وبالفعل بلغ يوسف الحلم، وانتقل من طور الطفولة إلى طور الشباب والرجولة، فطالت قامته، واكتسب جسمه قوة وصلابة، وبرزت عضلاته، وتغير صوته فأصبح أعمق وأعرض وأعلى، ونما شاربه خفيفا فوق فمه، واتصل بلحيته الأنيقة، وازداد شعر رأسه طولا ينسدل على كتفيه وكأنه خيوط من حرير نقى، والأهم من هذا كله مشاعره وأحاسيسه وإدراكه لكثير من الأمور على وجه يختلف تماما عن إدراكه السابق لها، إدراك الرجل المكتمل الرجولة لدور الأنثى فى حياته، وتأثيرها فى مشاعره وأحاسيسه. ويقول سيد قطب[1]: إن محنة يوسف ـ عليه السلام ـ لم تبدأ يوم أن راودته امرأة العزيز عن نفسه، وإنما بدأت يوم أن بلغ الحلم بكل ما يحمله من تغيرات عنيفة وعميقة، حيث وجد نفسه فى القصر الكبير بين نساء جميلات، على رأسهن زوجة العزيز، وفى مواجهة عادات غريبة عليه، وصور من السلوك لا عهد له بها، فجعله كل ذلك يعانى بشدة فى محاولة لكبح جماح مشاعره التى حفزتها المثيرات التى تحيط به، والتى عبرت عنها المرأة وهى تراوده عن نفسه، ثم النسوة اللاتى شاركنها المراودة أصدق تعبير. فهذه هى المحنة الطويلة التى مر بها يوسف، ونجا منها ومن تأثيراتها ومغرياتها وميوعتها ووسائلها الخبيثة. ولسنه وسن المرأة التى يعيش معها تحت سقف واحد كل هذه المدة قيمة فى تقدير مدى الفتنة، وخطورة المحنة، والصمود لها هذا الأمد الطويل. فليس من شك أن المرأة التى صبرت طويلا

(١) المرجع السابق، ص ١٩٨٠

حتى يبلغ يوسف الحلم بدأت تفكر جديا فى الحصول على مكافأتها على هذا الصبر الممض، فلم يبدأ الأمر بالمراودة، كما قد يغلب على الظن، وإنما سبقتها فترة من الترقب، قامت المرأة خلالها بملاحظة الفتى، واستطلاع موقفه منها، وشعوره نحوها؛ لتعرف ما إذا كان مهتما بها راغبا فيها أم لا؟! خاصة وأنه مجرد خادم أو عبد لديها، مما يجعلها تتحفظ فى إبداء رغبتها فيه، وذلك على خلاف ما إذا كانت مثله، أو كان مثلها، فإن كشفها عن مشاعرها نحوه لا يقلل من مكانتها أو ينال من كرامتها. ولكن الفتى الجميل لم يُعِرْهَا من الاهتمام أكثر مما يعيره الخادم الأمين لسيدته التى سبق لزوجها أن أعرب عن أمله فى أن يتخذه ولدا. ومع ذلك فقد ظل الأمل يراودها فى أن تتحرك مشاعره نحوها فى يوم ما، فيقبل عليها معبرا عن رغبته فيها، وبذلك توفر على نفسها الحرج، ولكنه لم يفعل، واستمر يعاملها باحترام وتقدير من لا يلتفت إلى الأنوثة الطاغية، ولا يهتم بالمفاتن المثيرة، فهو ينفذ ما تأمره به، ويؤدى عمله بأمانة، ثم يأوى إلى المكان المخصص له يخلو فيه إلى نفسه؛ ليستعيد ما حدث له، ويفكر فى أبيه الذى تركه دون سابق إنذار، والذى يعلم مدى حبه له وتعلقه به، ويحاول أن يتصور ما يمكن أن يكون قد أصابه بعد فراقه له، ثم يتجه إلى الله بالصلاة والدعاء وقلبه مفعم بالأمل فى أن ينجيه مما هو فيه، ويحقق الرؤيا التى سبق أن رآها. وقد يتبادل حديثا قليلا مع زملائه الخدم، شأنه فى ذلك شأن الخدم فى كل زمان ومكان، وهى الأحاديث التى تدور غالبا حول الدار وأصحابها، وزوارهم والجيران وغيرهم، وهو ما لم يكن يحظى باهتمام يوسف. أما سيدته امرأة العزيز فإنها كانت تخلو إلى نفسها فتفكر فيه: ماذا يفعل؟ وفيم يفكر؟ وبمن يهتم؟ وما هو شعوره نحوها؟ وهل يحبها أم لا؟ وما هو السبيل لمعرفة ذلك؟! ولماذا يقتصد فى حديثه معها، ويتعمد دائما أن لايرفع عينيه لتلتقى نظراته بنظراتها؟! وهل هو الحب يريد أن يخفيه عنها؟ أم الخجل منها؟ أم الاحترام الشديد لها؟ والتعظيم لمكانتها؟! وبمضى الوقت كان حبها له يشتد، واهتمامها به يتضاعف، ولكن باءت بالفشل كل محاولاتها لتقريبه إليها، وجعله يشعر بما تكنه

له من حب وعطف، كما باءت بالفشل محاولاتها للتقرب إليه، ورفع الكلفة بينهما تمهيدا للكشف عن مشاعره نحوها، أو تكشف هى عن مشاعرها نحوه.

وهكذا كانت المرأة تقضى كثيرا من الوقت فى التفكير فى الفتى الذى لم تلاحظ عليه أدنى ميل إليها، رغم وجودهما فى بيت واحد معظم الوقت، وقد يكونان وحدهما مما جعلها تنتقل إلى المرحلة التالية، وهى مرحلة الملاطفة والتعبير عن الإعجاب والمودة، ولا بأس من اللجوء إلى أساليب الإثارة، سواء بالعبارة أو بالحركة أو بالنظرة الواضحة الدلالة على ما تكنه له، وما تريده منه. ولكن الفتى لم يتأثر بشىء من ذلك. وبدلا من أن تضيق به المرأة وتنصرف عنه خاصة وأنه خادمها فتقول لنفسها ـ ولو على سبيل المكابرة ـ: من يكون حتى أفعل كل ما فعلت لكى أجتذبه إلىَّ وأثير لديه الرغبة فىَّ ثم يصر على عزوفه ورفضه بينما كثير من رجال الدولة والمجتمع يتمنون أن أتعطف وأتنازل فأخصهم بابتسامة أو إيماءة تجدد لديهم الأمل فى الفوز بى. ولكن لأنها كانت امرأة عنيدة مكابرة لاتقبل الهزيمة ـ خاصة إذا تعلقت بأنوثتها ـ فقد أصرت على أن تنال مأربها منه ولو بالطلب الصريح، ضاربة عرض الحائط بكل الاعتبارات التى ظلت تمنعها من سلوك هذا السبيل. وليس ما يمنع من أن تكون الحاجة الشديدة إلى الجنس قد ضاعفت من عنادها، وقوت من إصرارها، فقد كان زوجها ـ العزيز ـ على ما يبدو أكبر منها سنا، تشغله عنها أعباء وظيفته الهامة، مما يحتمل معه أن يكون قد قصر فى قيامه بما يفرضه عليه الزواج من واجبات، أو أن يكون حصورا ـ كما أسلفنا ـ فاتخذت زوجته من ذلك سببا للتسلط عليه، وتغليب إرادتها على إرادته، كما نرجح أنه كان ضعيف الشخصية، شأنه فى ذلك شأن الغالبية العظمى من الرجال الذين يختارهم الملوك والرؤساء ليشغلوا المناصب الكبرى فى الدولة.

امرأة العزيز تبدأ فى تنفيذ جريمتها:

إلى أن كان ذات يوم، عندما استدعت المرأة خادمها الشاب إلى داخل البيت،

فى غياب زوجها العزيز، وربما أغلب الخدم، سواء بتدبير منها، أو بمحض المصادفة، بعـد أن فـاض صبرهـا، فعقدت العزم على حسم الموقف بأى شكل، ضاربة عرض الحائط بكل الاعتبارات التى حالت بينها وبين اتخاذ هذه الخطوة فى وقت مبكر، بدلا من أن تظل نهبا لأوهامها ومشاعرها الحسية التى لم تعد تتحملها. ولما دخل يوسف إلى البيت لاحظ أنها فى أكمل زينتها، كما لو كانت ذاهبة إلى حفل كبير، وقد ارتدت ثوبا رقيقا للغاية شف عمـا تحته، الأمر الذى جعله يدير وجهه فى خجل، وانتابته حيرة شديدة يتساءل فيما بينه وبين نفسه عما استدعته السيدة مـن أجـله. أمـا هـى فقـد أخذت ترمقه فـى اهتمام وترقب، وكأنها تنتظر أن يقـول شيئا بشـأن ثيابها أو زينتها، فتلتقط منـه الخيط وتمضى بالحـديث مبحرة فى المناطق الوعرة، مما يحقق ما تهدف إليه من محاصرته بشتى ضروب الإثارة، إلى أن ينهار أمامها، فتتلاعب به كيف شاءت، ولو على سبيل شفاء غيظها منه؛ لما أظهره نحوهـا مـن لامبالاة بل إهمال سبب لها آلاما مبرحـة، وأرّق مضجعها، ونغص عليها حياتها.

ولكنه لـزم الصمت وهـو يتجنب النظر إليها وهـى على هذه الحال الواضحة فى دلالتها على ما تريده مما جعلها ترمقه فـى دهشة، وهـى تتساءل فيما بينها وبين نفسها: مـن أى مـادة خـلق هـذا الإنسان؟! بل هـل هو إنسان حقا؟ أم مخلوق مـن عـالم آخـر؟ ليس له قلب يخفق للجمال، أو شعور يتحرك أمام الأنوثة، ويتفاعل مع الفتنة؟! ومـع ذلك فقد غـالبت ضيقها، ولـم تفقد الأمل فى أن تذيب الجليد، مستخدمة كل ما تعرفه من أساليب الغواية، وفنون الإغراء والإثارة، فابتسمت له فى مودة، وكأن إهماله لها لـم يضايقها، وتحركت من مكانها ولكن دون أن تقترب منه كثيرا، وبـدأت تراوده ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا ﴾[1].

(1) سورة يوسف، من الآية: ٢٣

المراودة:

يقول الزمخشري[1]: المراودة: مفاعلة من راد يرود: إذا جاء وذهب، كأن المعنى: خادعته عن نفسه، أي: فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه. وهو عبارة عن التحمل لمواقعته إياها. وبمعنى آخر أنها خادعته عـن نفسه لأجل أن يريد منها ما تريد هي منه، وذلك بأن تلطفت في الطلب[2]. واستخدام كلمة (المراودة) في هذا المقام إنما أريد به بيان أسلوب المرأة في الإيقاع بالرجل، فهي ترغب في أن يضاجعها، ولكنها لا تصرح له بهذا، وإنما تأتي من الحركات والإشارات ما يوحي إليه بما ترغب فيه، حتى إذا استجاب بدا وكأنه هو الذي أراد أن يضاجعها، فإما أن توافقه على ما يريد وإما أن تحاول تأكيد أن الرغبة رغبته وليست رغبتها فتتمنع وتتردد، وفي ذلك قيل: إن النساء يتمنعن وهن الراغبات.

وبدأت فتحدثت إليه بصوت خافت خاضع، بكلام رقيق ناعم، اقترن بنظرة ساحرة صوبتها إليه من عينيها الوسنانتين، ضاعف الكحل المرسوم بعناية من سحرها، وذلك الطلاء الأزرق الذي وضعته على جفنيها فأضفى على نظراتها عمقا وغموضا، بينما الحمرة تلون وجنتيها، لا يعرف منها الناظر ما إذا كانت طبيعية أم صناعية، بينما شفتاها اللتان طلتهما بلون أحمر قان تتحركان في بطء ودلال، والكلمات الهامسة التي اختلطت بالأنفاس المتهدجة تنساب من بينهما وكأنها لحن عذب يأتي من بعيد. أما عطرها فقد ملأ المكان بعبقه، فكأنه حديقة امتلأت بآلاف الزهور والورود، تنبعث منها مئات الروائح فتمتزج وتختلط لتصنع عطرا واحدا فريدا لا عهد للفتى يوسف به، حتى ولا في هذا القصر، فقد استخدمته من أجله هو فقط، وضمخت به جسمها كله. وضحكت وهي تنظر إليه مقبلة مدبرة ليراها من مختلف الزوايا، تميل تارة وتتثنى أخرى كما لو كانت فراشة هائمة في الغرفة الواسعة الغارقة في العطر والضوء الخافت الذي يتسلل

(١) المرجع السابق، ص ٣١٠

(٢) رشيد رضا، المرجع السابق.

على استحياء من خلال الستائر الرقيقة، بينما هو ينظر إليها فى توجس امتزج بالدهشة والحيرة لا يدرى ماذا يفعل. وتغاضت هى عن تعبيرات وجهه هذه، ورأت أن تضاعف من جرعة الإثارة، فلا يزال فى جعبتها الكثير، والفتى يستحق أى جهد تبذله بعد كل هذا الصبر! وأخذت تدور وتلف لاهثة ضاحكة تدنو منه حتى تكاد تلمسه، ثم تنأى عنه وهى تستفزه بنظرتها المتسائلة اللائمة المتوسلة، ولكنه يتهرب من عينيها، ويتململ فى مكانه كما لو كان يفكر فى الانصراف وقد ازداد توجسه، بل خوفه منها، أو من نفسه. وتلاحظ هى ذلك فتقطب فى قلق، ثم تشرد بنظرتها كما لو كانت تفكر فى شىء ما، وفى رشاقة وأثناء إغرائها له تتجه إلى الأبواب تغلقها بابا وراء الآخر، وفى كل مرة تلقى نحوه بنظرة من فوق كتفها لترى رد فعله، أو لتطمئن إلى أنه لايزال معها فى الغرفة، فيرمقها فى تساؤل وقد اعتراه قلق شديد، يتساءل بينه وبين نفسه إن كانت جادة حقا فيما تفعله؟! ولم يكن يوسف بالغر الذى ليس لديه أدنى فكرة عما يكون بين النساء والرجال، فهو منذ أن جىء به إلى هذا القصر وهو يسمع ويرى العجب مما يقع بين الرجال والنساء، ولما بلغ الحلم أمسى يمعن النظر فيه، ينظر إليه بعين عقيدته لا بعين حواسه فينكره أشد الإنكار. فما بالها وهى تريد منه الآن أن يفعل معها ما يبغضه؟!

الدعوة الصريحة إلى المضاجعة (هيت لك):

وبينما كانت المرأة المتوترة تغلق الأبواب أخذت تفكر فيما يجب عليها عمله بعد أن نفدت كل سهامها فيما عدا السهم الأخير، وتأكدت من عدم جدوى المراودة، فالفتى لم يبد تجاوبا بحيث يقدم على فعل ما تريده هى أن يفعله فتكون هى المطلوبة لا الطالبة. وبعد أن انتهت من غلق الباب الأخير دارت دورة واسعة وهى تلهث من شدة الانفعال، تضحك فى مرح عصبى، وما أن اقتربت منه حتى اندفعت إليه ليفاجأ بها تحيط عنقه بذراعيها، وتلصق صدرها بصدره، وهى تهتف به فى خفوت وأنفاسها تلفح وجهه: (هيت لك) أى: هلم أقبل، وبادر، ومعناها الصريح: هيا ضاجعنى، ولكن القرآن الكريم فضل استخدام كلمة

(هيت) لكى يكون التعبير نزيها راقيا، وإن كان لا يشترط أن تكون هى نفسها قد استخدمت نفس العبارة.

ويفاجأ بها يوسف تعانقه وهى تهمس فى وجهه بهذه الكلمة أو ما فى معناها، فانتابته حيرة لم يدر معها ماذا يفعل، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه أمام هذا الموقف الذى لم يسبق له أن واجهه، فأمسك بساعديها اللتين مدتهما فوق كتفيه يدفع صدرها عنه وهو يشيح بوجهه قائلا: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾[1]

أى: أعوذ بالله وأتحصن به. ويضيف قائلا وهو يستجمع قواه ليستمر فى إبعادها عنه: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾[1]

يقصد ـ فى رأى جمهور المفسرين ـ زوجها العزيز الذى اشتراه وجاء به إلى بيته، وأحسن معاملته، وأوصاها بأن تكرم مثواه، بل وتمنى لو اتخذاه ولدا. وإن كان بعض المفسرين رأى أنه إنما قصد بكلمة (ربى) الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى أحسن مثواه. وليس ما يمنع من اجتماع المعنيين، حيث إن العزيز لم يفعل ما فعله إلا لأن الله تعالى أراد ذلك رعاية ليوسف وتعويضا له عما لقيه من إخوته ومن الأعراب الذين عثروا عليه فى الجب، ثم عرضوه للبيع كعبد. وبالتالى فإنه لن يجزى الزوج على إحسانه بالشر فيخونه فى أهله ويزنى بزوجته. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1] لأنفسهم وللناس كالخيانة والتعدى على أعراضهم وشرفهم.

وإذا كان يوسف قد نزه نفسه عما دعته إليه المرأة من خيانة وهو الفتى العبد، فكأنه عرض بها بما يتضمنه التعريض من احتقار؛ لأنها الزوجة التى يفترض فيها أن تكون حريصة على عرضها، أمينة على شرف زوجها!! ولكن المرأة العنيدة تغاضت عما يرمى إليه بقوله هذا، وأصرت على أن تمضى فيما شرعت فيه مهما كلفها ذلك من إهدار لكرامتها وحط من مكانتها وهى ابنة الحسب والنسب، وزوجة الوزير الكبير. فأخذت تقاوم إبعاده لها وهى فى أوج التوتر وقمة الرغبة تتلاحق أنفاسها المتقطعة وهى ترنو إليه فى توسل لائم، تتملص بيديها من يديه

(١) سورة يوسف، من الآية: ٢٣

لتعاود الاندفاع إليه وتطوق عنقه بذراعيها وهو يأبى أن يدعها تفعل ذلك، ينظر إليها - بدوره - فى توسل، ولكن من أجل أن تهدأ وتكف عما تفعله! وتلهث المرأة الماكرة وهى تومىء إليه بعينيها بما يفيد أنها تعبت ويئست، وفى نفس الوقت تلين يديها فى قبضتيه كما لو كانت صرفت نظرا عن الصراع طالما أنه لا يرغب فيها، ويصدقها يوسف فيترك يديها وهو يلهث بشدة، ويشرع فى التراجع لكى يبتعد عنها، ولكنه يفاجأ بها تهاجمه من جديد فى لهفة وشوق وإصرار وهى تهمهم وتزمجر وكأنها تقول له: هل صدقت أنى سأتركك؟! وهمت به!

معنى الهم فى قوله تعالى: ﴿هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾:

حصر جميع المفسرين القدامى والمحدثين اهتمامهم فى واقعة الهم هذه، هَمُّ المرأة أو هَمُّ يوسف. يقول الزمخشرى[1]: هم بالأمر: إذا قصده وعزم عليه. ومنه الهمام، وهو الذى هم بأمر فأمضاه، ولم ينكل عنه. أما ابن كثير فيقول: الهمُّ بالشىء فى كلام العرب: حديث المرء نفسه بمواقعة ما لم يواقع[2]. وقيل: الهمُّ: حركة طبع من غير تصميم للعقد على الفعل، وما كان من هذا القبيل لا يؤخذ به العبد، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء وتناول الطعام اللذيذ، فإذا لم يأكل ولم يشرب، ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤاخذ بما هجس فى النفس. أما الشيخ محمد رشيد رضا[3] فيقول تفسيرا لِهَمِّ امرأة العزيز بيوسف: إن أهل اللغة أجمعوا على أن الهمَّ لا يكون إلا بالأعمال، لا بالشخوص والأعيان. ومعناه: مقاربة فعل تعارض فيه المقتضى، أو الدافع مع المانع فلم يقع لرجحان المانع. والمعروف أن رجحان المانع على الدافع قد يكون راجعا إلى إرادة الشخص نفسه، كأن يرى أن يعدل عن المضى فيما شرع فيه تجنبا لعواقبه، وهو ما فعله يوسف - عليه السلام - كذلك قد يكون التراجع عن المعنى فى مقارفة الفعل سببه شخص آخر، كما هو الحال فى هم امرأة العزيز،

(١) المرجع السابق، ص ٣١١
(٢) المرجع السابق، ص ٣٠٨
(٣) المرجع السابق، ص ٣٠٩

فالمعروف أن المرأة بحكم طبيعتها تقف فى همها عند حد إظهار الاستعداد لمخالطة الرجل، إما صراحة أو ضمنا. فى حين أن الرجل هو الذى يملك وحده أن ينتقل من مرحلة الهم، أو الشروع إلى مرحلة التنفيذ؛ لأنه هو الذى يملك أداته، فإذا وافقته المرأة على إتمام المخالطة انتقلت بدورها إلى مرحلة التنفيذ ولكن بالتبعية.
ولرواة الإسرائيليات الكثير من الأقوال والحكايات فى هذا الموضوع بلغوا فيها حد الإسفاف، سواء فى تفسير كلمة (همت به) أو فى تفسير (هم بها)، نسبوا بعضا منها إلى يوسف - عليه السلام - ونسبوا البعض الآخر إلى امرأة العزيز موهمين الناس أن هذا صدر عنهما فعلا، بينما الحقيقة خلاف ذلك، فلم يثبت عن أى طريق أن يوسف وامرأة العزيز تكلما بأكثر مما ورد بالقرآن الكريم، وهو الكلام الذى يفيد فى بيان أبعاد الواقعة وملابساتها، ويساعد على استخلاص العظة والعبرة منها. ومن هؤلاء السدى الذى قال إن امرأة العزيز قالت ليوسف: يا يوسف ما أحسن شعرك! فقال: هو أول ما ينتثر من جسدى. فقالت: يا يوسف ما أحسن وجهك! قال: هو للتراب يأكله، فلم تزل حتى أطمعته، فهمّت به، وهمّ بها، فدخلا البيت، وغلقت الأبواب، وذهب ليحل سراويله، فإذا هو بصورة يعقوب قائما فى البيت قد عض على أصبعه يقول: يا يوسف تواقعها! فإنما مثلك ما لم تواقعها مثل الطير فى جو السماء لا يطاق، ومثلك إذا واقعتها مثله إذا مات ووقع إلى الأرض، لا يستطيع أن يدفع عن نفسه، ومثلك ما لم تواقعها مثل الثور الصعب الذى لا يعمل عليه، ومثلك إن واقعتها مثل الثور حين يموت، فدخل النمل فى أصل قرنيه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه. فربط سراويله - يعنى يوسف - وذهب ليخرج يشتد فأدركته فأخذت بمؤخرة قميصه من خلفه فخرقته حتى أخرجته منه وسقط، وطرحه يوسف واشتد نحو الباب[1] ويبدو من كلام السدى أنه نسى أن هناك امرأة فى حالة شبق غير عادية تنتظر غير بعيد من فتاها الذى أضناها طول انتظاره، فإذا به يكف عن حل سراويله ليحدق فى مكان ما من الغرفة كما لو كان ينصت إلى شخص ما وهو يكلمه، ثم فجأة يثبت

(١) الطبرى، المرجع السابق، ص ١٠٨

سراويله ويولى مدبرا فقامت فطاردته!! ونسى أيضا أن رؤية يوسف لبرهان ربه لايشترط أن يحدث بهذه الطريقة الساذجة، خاصة وأنه نبى أو على الأقل من بيت نبوة، وينتظر أن يكون نبيا! وهناك من الرجال من هم دونه إيمانا واجهوا مثل هذا الموقف، وأفلتوا منه لمجرد تذكرهم لنهى الله عن الزنا، وما توعد به من يقترف هذه الجريمة.

أما ابن إسحق فقال فى هم امرأة العزيز بيوسف: إنها أكبت عليه تطمعه مرة وتخيفه أخرى، وتدعوه إلى لذة من حاجة الرجال فى جمالها وحسنها وملكها وهو شاب مستقبل يجد من شبق الرجال ما يجد الرجل حتى رق لها؛ مما يرى من كلفتها به، ولم يتخوف منها حتى هم بها وهمت به حتى حلوا فى بعض بيوته.

أما ابن عباس فقد نسبوا إليه أقوالا مختلفة فى تفسيره (لهمت به وهم بها)، منها قوله: إنها استلقت ليوسف وجلس بين رجليها. وفى قول آخر: استلقت له وحل ثيابه. وفى قول ثالث إنها استلقت على قفاها وقعد بين رجليها لينزع ثيابه. وعن مجاهد أن يوسف جلس منها مجلس الرجل من امرأته. وقال القاسم بن أبى برة: أما همها به فاستلقت له، وأما همه بها فإنه قعد بين رجليها ونزع ثيابه. وعن سعيد بن جبير قال: أطلق تكة سراويله[1] وهناك فريق آخر ممن تأولوا القرآن بآرائهم قالوا فى تفسير (همت به وهم بها) أقوالا مختلفة. فقال بعضهم: إن معنى همت المرأة بيوسف وهم بها يوسف أن يضربها، أو ينالها بمكروه لهمها به مما أرادته من المكروه، لولا أن يوسف رأى برهان ربه وكفه ذلك عما هم به من أذاها، لا أنها ارتدعت من قبل نفسها. ودللوا على صحة ذلك بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾[2].

قالوا: فالسوء هو ما كان هم به من أذاها، وهو غير الفحشاء. وقال آخرون: إن معنى (ولقد همت به) فتناهى الخبر عنها، ثم ابتدىء الخبر عن يوسف فقيل

(١) الطبرى، المرجع السابق، ص ١٠٩
(٢) يوسف: ٢٤

(وهم بها) يوسف لولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها، كأنهم وجهوا معنى الكلام إلى أن يوسف لم يهم بها، وإن الله إنما أخبر أن يوسف لولا رؤيته برهان ربه لَهَمَّ بها، ولكنه رأى برهان ربه فلم يهم بها. كما قيل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] ولكن يرد على أصحاب هذين الرأيين بأن العرب لاتقدم جواب لولا قبلها، فلا تقول: لقد قمت لولا زيد، وهى تريد: لولا زيد لقد قمت، فضلا عن خلافهما مع جميع أهل العلم بتأويل القرآن الذين منهم يؤخذ تأويله.

وليس من شك فى أن الدافع لدى هذا الفريق وغيره إلى هذه الأقوال دافع نبيل هو تنزيه يوسف ـ عليه السلام ـ عن فعل الشروع فى مضاجعة امرأة العزيز مما جعلهم يتأولون معنى الهم. ومنهم ابن كثير الذى قال: إن هم يوسف كان هم خطرات: حديث النفس[2] وقال غيره: هم بضربها، وقال آخرون: تمناها زوجة. وفى الطبرى أن البعض قالوا: إن المرأة همت بيوسف وهم يوسف بها، غير أن همهما كان تمثيلا منهما بين الفعل والترك، لا عزما ولا إرادة. قالوا: ولا حرج فى حديث النفس ولا فى ذكر القلب إذا لم يكن معهما عزم ولا فعل[3] ومن المفسرين الذين فسروا ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ أنها همت بالبطش به لرفضه الاستجابة لها لما دعته إلى مضاجعتها قائلة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ الشيخ محمد رشيد رضا[4] الذى قال: «وتالله لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه أمرها، وهى فى نظرها سيدته وهو عبدها، ولقد أذلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه، ومن شأن المرأة أن تكون مطلوبة لا طالبة، ومُرَاوَدَةً عن نفسها لا مُرَاوِدَةً، حتى أن حماة الأنوف من كبراء الرجال ليطأطئون الرءوس لفقيرات الحسان ربات الجمال ويبذلون لهن ما يعتزون به من الجاه والمال» ويفسر ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ بأن يوسف همَّ بدفع هجومها عليه دفاعا عن نفسه، وهو أمر مشروع وجد مقتضيه مقترنا بالمانع منه وهو رؤيته برهان ربه فلم ينفذه،

(١) النساء: ٨٣

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠٨

(٣) المرجع السابق، ص ١١٠

(٤) المرجع السابق، ص ٢٣٠

فكان الفرق بين همها وهمه أنها أرادت الانتقام منه شفاء لغيظها من خيبتها، وإهانته لها، فلما رأى أمارة وثوبها عليه استعد للدفاع عن نفسه وهَمَّ بها، فكان موقفهما موقف المواثبة والاستعداد للمضاربة، ولكنه رأى من برهان ربه وعصمته ما لم تر هى مثله، فألهمه أن الفرار من هذا الموقف هو الخير الذى تتم به حكمته - سبحانه وتعالى - فيما أعده له، فلجأ إلى الفرار ترجيحا للمانع على المقتضى، وتبعته هى مرجحة للمقتضى على المانع حتى صار جزما.

ولقد وجه سيد قطب[1] إلى هذا الرأى نقدا جديرا بالاعتبار حيث قال: إن تفسير رشيد رضا الهم بأنه هم بالضرب ورد الضرب مسألة لا دليل عليها فى العبارة، فهى مجرد رأى لمحاولة البعد بيوسف عن هم الفعل أو هم الميل إليه فى تلك الواقعة. وفيه تكلف وإبعاد عن مدلول النص.

كذلك ثار خلاف بين الفقهاء بشأن ما إذا كان يوسف - عليه السلام - نبيا وقت أن همت به امرأة العزيز، فقال ابن عطية[2]: إنه لم يصح أن كان نبيا ولا تظاهرت به رواية، وإذا كان كذلك فهو مؤمن أوتى حكما وعلما، ويجوز عليه الهمُّ الذى هو إرادة الشىء دون مواقعته، وأن يستصحب الخاطر الردىء على ما فى ذلك من الخطيئة، وإن فرضناه نبيا فى ذلك الوقت فلا يجوز عليه غندى إلا الهم الذى هو خاطر، ولا يصح عليه شىء مما ذكر من حل تكته ونحوه؛ لأن العصمة مع النبوة. وما روى عن أنه قيل له: «**تكون فى ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء**» فإنما معناه العدة بالنبوة فيما بعد.

ويقول القرطبى:[3] إن قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ ﴾[4] يدل على أنه كان نبيا، وهو قول جماعة من العلماء. وإذا كان نبيا فلم يبق إلا أن يكون الهم الذى هم به ما يخطر فى النفس ولا يثبت فى الصدر، وهو الذى رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق، إذ لا قدرة للمكلف على دفعه.

(١) المرجع السابق، ص ١٩٨١
(٢) القرطبى: المرجع السابق، ص ١٦٧
(٣) المرجع السابق، ص ١٦٨
(٤) سورة يوسف، من الآية: ١٥

وقــد أخبر الله تعالى عن حال يوسف من حين بلوغه فقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[1] وخبر الله تعالى صدق، ووصفه صحيح، وكلامه حق، فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنا ومقدماته، وخيانة السيد والجار والأجنبى فى أهله، فما تعرض لامرأة العزيز ولا أجاب إلى المراودة، بل أدبر عنها وفر منها، حكمة خص بها، وعملا بمقتضى ما علمه الله.

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قالت الملائكة: رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة ـ وهو أبصر به ـ فقال: ارقبوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من أجلى**». وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ مخبرا عن ربه: «**إذا هم عبدى بسيئة فلم يعملها كتبت حسنة**». فإن كان ما يهم به العبد من السيئة يكتب له بتركها حسنة فلا ذنب، وفى الصحيح: «**إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلم به**». أما علماء الصوفية فقالوا: إن فائدة قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[1] إنما أعطاه ذلك إبان غلبة الشهوة لتكون له سببا للعصمة.

وهكذا نلاحظ أن العلماء لم يختلفوا بشأن هَمِّ امرأة العزيز، وهو أنه كان بالفعل، وذلك بأن وضعت نفسها بحيث تكون فى متناول يوسف فيضاجعها إن شاء. ولكنهم اختلفوا بشأن همه بها، فمنهم من قال إنه جلس بين رجليها وبدأ فى حل سراويله، ومنهم من اكتفى بجلوسه بين رجليها دون حل السراويل. أما الفريق الآخر فقد نزه يوسف عن أن يصل إلى هذا الحد، باعتبار أنه نبى معصوم، وفسر همه بأنه كان هم خطرات أو حديث نفس لم يتجاوز إلى الفعل!

ولكن للزمخشرى رأى[2]، وإن اتفق مع رأى الفريق الأول، غير أنه يختلف عنه فى أنه ـ أى الزمخشرى ـ لم يصل إلى الحد الذى بلغه هذا الفريق حين

(١) سورة يوسف، من الآية: ٢٢
(٢) المرجع السابق، ص ٣١١

صور يوسف فى صورة من شرع فى حل سراويله أو حلها فعلا حتى ظهرت أَلْيَتَاهُ - أى خصيتاه - والمرأة نائمة على ظهرها وقد قعد بين رجليها! وإنما قدم صورة مهذبة، وتتفق مع السير العادى والتطور الطبيعى لمثل هذه الواقعة التى طرفاها امرأة العزيز وخادمها. فهو يقول فى تفسير ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ﴾[1] معناه: ولقد همت بمخالطته ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾[1] وهم بمخالطتها ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾[1] جواب لولا محذوف تقديره: لو لا أن رأى برهان ربه لخالطها، فحذف؛ لأن قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا ﴾[1] يدل عليه، كقولك: هممت بقتله لولا أنى خفت الله، معناه: لولا أنى خفت الله لقتلته. فإن قلت: كيف جاز على نبى الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصد إليها؟ قلت: المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقوته ميلا يشبه الهم به والقصد إليه، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التى تكاد تذهب بالعقول والعزائم وهو يكسر ما به ويرده بالنظر فى برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم. ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هَمًّا لشدته لما كان صاحبه ممدوحا عند الله بالامتناع؛ لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته، ولو كان همه كهمها عن عزيمة لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين. ويجوز أن يريد بقوله ﴿وَهَمَّ بِهَا ﴾[1]: وشارف أن يهم بها.

ويتفق سيد قطب[2] مع الزمخشرى فى هذا الرأى فهو يقول: «أما الذى خطر لى وأنا أراجع النصوص هنا، وأراجع الظروف التى عاش فيها يوسف، فى داخل القصر مع هذه المرأة الناضجة فترة من الزمن طويلة، وقبل أن يؤتى الحكم والعلم وبعد ما أوتيهما. الذى خطر لى أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ هو نهاية موقف طويل من الإغراء، بعد ما أبى يوسف فى أول الأمر واستعصم.. وهو تصوير واقعى صادق لحالة النفس البشرية الصالحة فى المقاومة والضعف، ثم الاعتصام بالله فى النهاية والنجاة...

(١) سورة يوسف، من الآية: ٢٤

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٨١

ولكن السياق القرآنى لم يفصل فى تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبة؛ لأن المنهج القرآنى لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضا يستغرق أكثر من مساحته المناسبة فى محيط القصة، وفى محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك. فذكر طرفى الموقف بين الاعتصام فى أوله والاعتصام فى نهايته، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعا. هذا ما خطر لنا ونحن نواجه النصوص، ونتصور الظروف. وهو أقرب إلى الطبيعة البشرية، وإلى العصمة النبوية. وما كان يوسف سوى بشر. نعم إنه بشر مختار. ومن ثم لم يتجاوز همه الميل النفسى فى لحظة من اللحظات. فلما أن رأى برهان ربه الذى نبض فى ضميره وقلبه ـ بعد لحظة الضعف الطارئة ـ عاد إلى الاعتصام والتأبى ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[1].

وفى رأينا أن ما ذهب إليه كل من الزمخشرى وسيد قطب هو الصحيح؛ وذلك لعدة أسباب:

أولها : أن عصمة الأنبياء لا تنفى عنهم طبيعتهم البشرية، وبالتالى فإنهم يتأثرون بما يتأثر به الناس، غير أن إرادتهم القوية وإحاطتهم بما لم يحط به الناس من صفات الله تعالى الذى اصطفاهم من دون خلقه جميعا وأدبهم وعلمهم وآتاهم الحكمة تجعل نظرتهم إلى الأمور تختلف عن نظرة غيرهم، فبالنسبة للزنا ـ مثلا ـ فإنهم يرون عاقبته الشديدة بوضوح وجلاء، بحيث تتضاءل أمامها اللذة السريعة التى يوفرها الزنا.

ثانيها : أنهم بصفتهم أنبياء ورسلا يحملون على عاتقهم مسئولية ثقيلة، يدركون بجلاء فداحة الأضرار التى تصيبهم إذا هم أخلوا بها، وعظم الأجر الذى ينالونه إن هم قاموا بها على وجهها الأكمل، وهو أجر تتضاءل أمامه أى متعة أو لذة يمكن أن يوفرها الزنا أو غيره. وعليه فليس ما يمنع من أن يفاجأوا

(١) سورة يوسف، من الآية: ٢٤

بموقف أو تصرف فيتأثرون به رغم إرادتهم، ولكنهم سرعان ما يتمالكون أنفسهم ويسيطرون على مشاعرهم ويردون الزمام إلى العقل والمنطق، فيتخلصون مما ألم بهم.

ثالثها : أن تصور البعض للعصمة على أنها حالة من الاستعصاء على كل المؤثرات السيئة ينفرد بها الأنبياء دون البشر جميعا تقيهم الزلل والخطأ بحيث تبدو أشبه بالقميص الواقى من الرصاص الذى يرتديه الحكام، فإنه تصور يسىء إلى الأنبياء ولا يحسن إليهم؛ لأنه يعنى أنه لولا العصمة لكانوا إزاء هذه المواقف وتلك التصرفات مثل بقية الناس، وبالتالى لا يكون لهم أى فضل فى الابتعاد عن المعاصى وعدم مقارفة الآثام. ولعل ذلك التصور المسرف فى الخطأ بدا واضحا فيما ادعاه كثير من العلماء من أن يوسف لما أوشك على مضاجعة امرأة العزيز بأن حل تكة سراويله، وقعد بين رجلى المرأة تتابعت البراهين من مختلف الأشكال لكى تصرفه عما شرع فيه إلى حد أن الله تعالى أهاب بجبريل ـ عليه السلام ـ أن يدرك يوسف قبل أن يرتكب المعصية!

ولقد كان يوسف جميلا، أو كما قال عنه الرسول ﷺ: «**إن الله اختصه بشطر الحسن**» فجمع بذلك بين جمال الخلقة وجمال الأخلاق، ولو شاء الله تعالى لاكتفى بالنسبة له بهذا النوع الأخير من الجمال، ولكنه أضاف إليه جمال الخلقة وهو مالم يفعله مع غيره من الأنبياء. والمقصود بجمال الخلقة ليس الوجه فقط بل كل ما يتكون منه جسم الإنسان بما فى ذلك الإحساس والشعور والوعى السليم والإدراك الصحيح فضلا عن الرجولة، وإلا لكان مَلكًا كريما كما قالت عنه النسوة، ومثله ليس مكانه الأرض التى نعيش عليها، وإنما مكانه فى السماء مع الملائكة. لقد كان بشرا لا يختلف عن البشر أمثاله إلا فى قوة الإرادة وبعد النظر والتقدير الصائب للأمور، والصلة بالله الذى اصطفاه، فليس ما يمنع من أن يتأثر وقتيا ولبرهة كأنها الومضة، بتصرفات امرأة شغفها حبا وعاشت سنوات تتمناه وتحلم باليوم الذى تروى فيه غليلها منه. ولقد بينا ما صدر عنها من أفعال أثناء مراودتها له عن نفسه، وكيف أنه صمد أمامها كالطود، فما كان منها إلا أن

دعته إليها هاتفة به وكل خلجة فى جسدها تتوق إليه قائلة له: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[1] ولكنه أبى واستعصم، وعندئذ همت به!

تصوير العلماء لـ (الهم):

يلاحظ من يقرأ ما قاله العلماء عن هَمِّ امرأة العزيز بيوسف أنهم جميعا صوروها وقد استلقت له على قفاها فى استعداد شديد الوضوح والصراحة لمضاجعته. وهو تصور بالغ السذاجة؛ لأنه - من ناحية - لا يعبر عن معنى الهم، ومن ناحية أخرى يتعارض مع التطور الطبيعى للأحداث فى مثل هذه الحالة. أما من حيث افتقاره إلى معنى الهمِّ فلأن الهمَّ فعل إيجابى، أو كما يطلق عليه فى القانون: شروع، ومعناه البدء فى تنفيذ الأفعال التى يتكون منها الركن المادى للجريمة، والاستلقاء على القفا لا يدخل فى هذه الأفعال؛ حيث إن جريمة الزنا لا تقع إلا بالإيلاج، أو كما وصفها رسول الله ﷺ دخول عضو الذكر فى عضو الأنثى كالمرود فى المكحلة، ومع ذلك فإن تصرف المرأة على هذا الوجه يمكن أن يطلق عليه وصف الأعمال التحضيرية للجريمة؛ لأنها لا تملك التنفيذ، وإنما الرجل هو الذى يملكه.

ومن حيث التطور الطبيعى للأمور - فى مثل هذه الحالة التى بدأت فيها المرأة بالمراودة ثم أتبعتها بالدعوة الصريحة إلى الجماع - فإن المرحلة التالية تكون بإتيان أفعال من شأنها أن تفقد يوسف - وهو شاب مراهق شديد الحساسية إزاءها - ما لديه من مقاومة، خاصة وأن المرأة ناضجة ومجربة تعرف كيف تتدرج بفريستها من مرحلة إلى أخرى حتى تقضى على ما قد يكون لديها من تردد أو تمنع، وليس مثل العناق والضم ومحاولة تبادل القبلات ما هو أنجع فى التأثير وأقوى فى الإثارة، حتى من استلقائها على قفاها، لأن الاستلقاء بهذا الشكل قد لا يحدث التأثير المطلوب، بل قد يحدث تأثيرا عكسيا. وهى أمام شاب يرفض صراحة دعوتها إياه إلى الجماع، فلابد إذن من استدراجه بأن تعرض عليه ما هو دون الجماع ولكنه مؤد إليه لا محالة. وهذا هو ما نرجح أن يكون قد حدث

(1) سورة يوسف، من الآية: ٢٣

وأحدث التأثير الشديد والعميق فى الفتى يوسف الذى وإن ظل يقاومها ويحاول أن يبعدها عنه، فإن عناقها له والتصاقها به وإلحاحها عليه بالكلام والنظرات أثار فيه تلك الرغبة الجامحة الطاغية التى يعجز عن الصمود لها وكبح جماحها أقوى الرجال إرادة وأكثرهم حكمة واتزانا. واستغلت المرأة حيرة الشاب أمام إقبالها عليه وعناقها له، لا يدرى كيف يدفعها دون أن يلمس جسدها الناعم المتثنى، وكلما حاول أن يتخلص من ذراعيها اللتين تطوقان عنقه انتهزت الفرصة فالتصقت به بشدة، فى مواضع أخرى، بينما هو يشيح عنها حتى لا تصل بشفتيها إلى شفتيه، ويتراجع وهو يتعثر يهمهم فى توسل، ويحذر فى أسى، ويتأفف فى ضيق، وقد نال منه هجومها الشديد حتى هم بها، أى شرع فى الاستجابة لجسمها بجسمه مدفوعا برغبة مجنونة لا قبل له بها، وشعرت به المرأة فتنفست فى ارتياح، ورنت إليه فى سعادة وكأنها تقول له: أخيرا؟!. ولكنها بوغتت به ـ فى اللحظة التى اطمأنت فيها إلى استجابته ـ يدفعها عنه فى حزم وإصرار، وقد عقد العزم على أن لايفعل ما تريده، ونظرت إليه فى دهشة تريد أن تعرف السبب فى هذا التغير المفاجىء، ولكنه استمر فى دفعه لها لتبقى بعيدة عنه، وكلما تقدمت تراجع وقد بدا عليه الانزعاج الشديد والخوف والندم، وتتلفت حولها باحثة عما سبب له هذا الخوف، ولكنها لم تجد شيئا ولا لاحظت وجود أحد، وكيف تلاحظ ما لا يلاحظه غير الأنبياء؟! فما الذى جعل يوسف يتصرف على هذا النحو؟!

رؤية يوسف برهان ربه:

لقد رأى يوسف برهان ربه، وهو البرهان الذى تعددت بشأنه أقوال المفسرين، كذلك أخطأوا فيما قالوه تفسيرا لقوله تعالى: ﴿ لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾[1].

حيث تصوروا هذا البرهان تصورا ماديا بعيدا كل البعد عن حالة النبوة، من ذلك قول بعضهم إنه رأى صورة أبيه متمثلة فى سقف الغرفة. وقال البعض الآخر إنه رأى صورة سيده العزيز مرسومة على الجدار، أو صورة ملك يعظه

(١) سورة يوسف، من الآية: ٢٤

بآيات من القرآن. وغير ذلك من الصور التى رسمتها أخيلة بعض رواة التفسير بالمأثور بما لا يدل عليه دليل من اللغة ولا العقل ولا الطبع ولا الشرع، ولم يرو فى خبر مرفوع إلى النبى ﷺ فى الصحاح ولا فيما دونها.[1] وليس بشرط أن يكون معنى كلمة (رأى) فى الآية المشاهدة بالبصر، التى تصح بالنسبة لآحاد الناس ولكنها لاتصح بالنسبة للأنبياء الذين اختصهم الله تعالى بطرق وأساليب، وميزهم بقدرات وإمكانات تفردوا بها عن غيرهم من الناس، وبالتالى يكون يوسف ـ عليه السلام ـ قد رأى برهان ربه فى داخل نفسه وليس خارجها.

ويقول سيد قطب[2]: إن يوسف رأى برهان ربه الذى نبض فى ضميره وقلبه بعد لحظة الضعف الطارئة. وولى يوسف الأدبار متجها إلى الأبواب التى سبق لها أن أغلقتها يفتحها الواحد بعد الآخر، ثم ينطلق لا يلوى على شىء! وأصيبت المرأة بدهشة شديدة وهى تراه يفعل ذلك، فتتساءل فيما بينها وبين نفسها عما أصابه، واعتراها إحساس قوى بالغضب والغيظ، ولم لا وقد كانت قاب قوسين أو أدنى من بلوغ مأربها؟! وهمهمت تقول: أبعد كل هذا الذى فعلته مع هذا العبد يسخر منى ويخدعنى وهو يتظاهر بالاستجابة ثم يولى الأدبار هاربا منى كما لو كنت مصابة بمرض معد أو كنت شيئا مقززا؟!. واستجمعت قواها وعزمت على مطاردته إلى أن تقبض عليه وتنكل به، أو يتعقل ويستأنف ما كانا قد بدآ فيه! ولو أن هذه المرأة كانت قد عرفت شخصية يوسف معرفة جيدة وأدركت ما هو عليه من أخلاق حميدة وخصال كريمة لواجهت إخفاق محاولتها وفشل مسعاها وما ترتب عليهما من إحساس مؤلم بالإحباط بطريقة مختلفة تماما، كأن تنسحب فى هدوء إلى غرفة أخرى لتخلو إلى نفسها فتبكى بحرارة وكأنها إنما تغسل خطيئتها، أو تزيل إحساسها بالعار مما فعلته، أو أن تعتذر للفتى عن إساءتها الظن به والشك فى أخلاقه، وتشكره على أن نبهها إلى الخطأ الذى وقعت فيه، أو أن تتظاهر بأنها إنما أرادت أن تختبره لتعرف مدى إخلاصه لزوجها، واحترامه للبيت

---

(١) محمد رشيد رضا، المرجع السابق، ص٢٣٠

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٨٢

الذى آواه، وهو ما تفعله بعض النساء حين يصبن بالفشل فى محاولتهن إقامة علاقة من هذا النوع مع بعض الرجال. ولكن امرأة العزيز ـ على الرغم من كل ما تحملته من صبر وما عانته من انتظار أن تأتى المبادرة من جانت الفتى ـ لم تطق ما أظهره من رفض ـ بل استنكار ـ لسلوكها، ولم تتحمل أن تراه وهو يرمقها فى اشمئزاز من كلامها أو حتى إشفاق عليها وقد انحدرت إلى هذا المستوى، فلا فرق بين الاشمئزاز والإشفاق فى مثل هذه الحالة؛ لأن الإشفاق إذا جاء من العبد نحو سيده كان هو والاشمئزاز أو الاحتقار سواء. فأخذتها العزة بالإثم، وبعد أن كانت نظراتها إليه تفيض رقة وضعفا ونداء وخضوعا، وتعبيرات وجهها تحمل معانى الإعجاب والمودة الشديدة والعطف العميق والدلال، انقلب كل ذلك إلى النقيض، فرمقته فى حدة وقد عقدت ما بين حاجبيها فى تقطيبة شديدة، وقد جحظت عيناها وبلغ اتساع إنسانيهما أقصاه، ترمقه فى غضب وحقد وقسوة، وكأنها تريد أن تحرقه بهذه النظرات، وجعلت تهمهم فى توتر عصبى شديد جعل جسمها الذى كان لينا ناعما منذ لحظات يكتسب صلابة وخشونة وهو يهتز بشدة، من فرط التأثر، وكأنه يوشك أن يتمزق، بينما نفرت العروق والأوردة فى مختلف أجزائه، وبرزت عضلاته حتى بدت المرأة مثل لبؤة جائعة غاضبة تتحفز للوثب على الفريسة المراوغة التى أعيتها جريا ووثبا من هنا إلى هناك دون أن تتمكن من الإمساك بها، إلى أن واجهتها أخيرا وليس بينها وبينها غير خطوات يمكنها أن تقطعها فى وثبة واحدة لتنشب مخالبها فى عنقها وصدرها فتمزقهما تمزيقا. ومع أنفاسها التى أخذت تتلاحق بسرعة حتى كادت أن تتقطع انطلق صوتها المتحشرج يحمل كل عبارات التوعد والغضب والحنق للعبد العنيد تذكره بعبوديته، وكونه لايساوى أكثر من بضعة دراهم ستضحى بها وتسحقه تحت قدميها سحقا، كما ولو كان حشرة، وتسأله من يكون بالنسبة لها هى ابنة الأكابر، وزوج الوزير الكبير، وأين أهله وعشيرته، أم تراه لقيطا لا أب له ولا أهل؟! ويسمع يوسف كل ذلك فلا يرد عليها، بل يحرص على ألا تصل إليه

قبل أن يصل هو إلى الباب الأخير فيفتحه وينطلق هاربا خارج البيت، ولكنها ظلت تطارده صارخة غاضبة تريد أن تفتك به انتقاما منه.

محاولة يوسف الهرب:

في الآية ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾[1]:

ومعناه أنهما تسابقا إلى الباب! أى أن كلا منهما أراد أن يصل إليه قبل الآخر! ونفهم أن يفعل يوسف ذلك لكى يفتح الباب ويخرج منه إلى خارج البيت هاربا منها، ولكن لماذا أرادت هى أن تسبقه إلى الباب؟! الجواب: أنها فى غمرة غضبها وشدة ثورتها وحنقها أرادت أن تسبقه إلى الباب لتقطع عليه الطريق؛ لكيلا يخرج ويظل داخل البيت، إما لكى تستمر فى محاولتها غوايته لكى يضاجعها، أو للحيلولة دون رؤية الناس له وهو يفر من البيت خائفا فيظن الناس بها الظنون. ولحقت به المرأة، لا يفصلها عنه غير مسافة تعادل طول ذراعها وبخطوة زائدة تمكنت من الإمساك بقميصه، ثم أخذت تجذبه منه فى عنف وغضب لتمنعه من الوصول إلى مدخل البيت حيث يوجد باب الدخول، فمزقت القميص لشدة جذبها له بينما استمر هو فى التقدم إلى الأمام يقاوم جذبها له، حتى خرج إلى مدخل البيت وهى وراءه لا تزال تجذبه؛ ليفاجأ كلاهما برؤية العزيز وقد دخل من الباب، فلما رأته المرأة أسرعت تقوله له: ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2] وهذا التصرف السريع من جانبها يدل على سرعة بديهتها وشدة ذكائها حيث تحولت ـ بسرعة ـ تعبيرات وجهها ونظرتها لكى تبدو فى صورة الخائفة المرتعبة التى جاءتها النجدة فى وقت لم تكن تتوقعها فيه. ولم تكتف بذلك بل تعمدت أن توحى لزوجها بما يجب أن يتخذه حيال المعتدى من إجراءات كالسجن أو الضرب الموجع، وكأنها قد افترضت أن زوجها قد صدق ما قالته، وأنه لن يراجعها بشأنه، وما عليه إلا أن يعاقب الفتى. وهذا شأن النساء من هذا النوع، اللواتى يسلس أزواجهن لهن القياد ويصدقونهن فى كل ما يقلن، حتى ولو كذبهن واقع الحال.

(١) سورة يوسف، من الآية: ٢٥

(٢) سورة يوسف، من الآية: ٢٥

شهادة قريب الزوجة:

أما يوسف فقد فوجىء بها تقول ذلك، فبادر إلى الدفاع عن نفسه قائلا إنها هى التى راودته عن نفسه. فكيف واجه الزوج هذا التناقض فى أقوال الطرفين؟ وماذا فعل ليتثبت من صدق أحدهما وكذب الآخر؟ امتلأت كتب التفسير بأقوال كثيرة قامت على اجتهادات لا تستند إلى قرآن ولا سنة، ولا تتفق مع السياق الذى جاء الكلام فيه موصولا حيث قال: ﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾[1].

مما نرجح معه أن يكون واحدا من أهلها كان قد صحب زوجها إلى البيت فرأى معه ما رأى هو. والشهادة تعنى المشاهدة الفعلية أو العلم بما حدث، غير أن العلم هنا مستبعد لعدة أسباب، منها ما حدث بعد ذلك من قيام الزوج بوضع يوسف فى السجن على الرغم مما ثبت من براءته من التهمة التى وجهتها إليه المرأة، مما يدل على أن العزيز إما أنه خضع لزوجته فيما أرادته كشأن الأزواج الضعاف دائما، أو أنه سجن يوسف ذرا للرماد فى العيون، وحتى لا يصدق الناس أن زوجته هى التى راودته عن نفسه فيحكمون عليها بالخيانة وعليه بالدياثة والانقياد لزوجته، مما قد ينعكس على وضعه كوزير كبير يعجز عن إدارة بيته، فكيف يقدر على إدارة شئون وزارته؟!. ومنها أيضا أن مثله لا يلجأ إلى أهل زوجته ليحتكم إليهم فيما يقع بينه وبينها من خلاف؛ لأن ذلك مما لا يجدى مع أمثالها، بل من شأنه أن يثير حفيظتها عليه فتخاصمه أو تؤنبه وهو لا قبل له لا بهذا ولا بذاك، بل يحرص على إرضائها دائما وبكل الوسائل. يضاف إلى ذلك أنه لا يحب ـ وهو الوزير الكبير ـ أن يظهر أمام أهل زوجته فى صورة الضعيف المتهافت الذى يعجز عن كبح جماح زوجته وتأديبها، كما أن أهل الزوجة كثيرا ما ينحازون إليها فيما يقع بينها وبين زوجها من خلافات، فمن باب أولى امتناعهم عن إدانتها فى أمر مشين كهذا، وحتى لو أنه وجد بينهم من عرف عنه التمسك بالعدل والغيرة على الأخلاق فإنهم عادة ما يتجنبون تدخله فى مثل

---

(١) سورة يوسف، من الآية: ٢٦

هذه الأمور حتى لو كانت صحيحة؛ خوفا من أن يؤدى تدخله إلى ما لاتحمد عقباه، مثل طلاق ابنتهم أو غير ذلك من الإجراءات التى يمكن للزوج أن يتخذها.

كذلك ما قيل من أن هذا الشاهد كان كائنا ليس بإنسى ولا جنى كما قال مجاهد، أو أنه كان صبيا فى المهد، وهى رواية عن ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك، يؤيدها ما رواه أحمد وابن جرير والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «**تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم**» وما رواه ابن جرير عن أبى هريرة قال: «**عيسى ابن مريم، وصاحب يوسف، وصاحب جريج تكلموا فى المهد**» فحديث موقوف، أما الحديث السابق المرفوع إلى رسول الله فضعيف، وقد اختاره ابن جرير، وحكاه ابن كثير بدون تأييد ولا رد.[1] ومن باب أولى ما قاله مجاهد عن الكائن الذى ليس بإنسى ولا جان. ويبلغ تكلف المفسرين أقصاه فيما تخيلوه من قيام محاكمة لزوجة العزيز فى بيت أسرتها حيث حضر الشاهد الذى ادعى بعضهم أنه كان طفلا تكلم فى المهد فقال إنه ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[2]

وذلك دون أن يبينوا كيف حضر هذا الطفل الذى لا يزال فى المهد ولا علاقته بيوسف أو بغيره كالعزيز مثلا أو امرأته، كل ما أرادوا إثباته هو حدوث معجزة لا أكثر، بينما أن الأمر لم يكن يحتاج إلى معجزة وإنما إلى عقل سليم ومنطق قويم وقوة ملاحظة وحضور بديهة وضمير يقظ[3]، فإذا وجد من تتوفر فيه هذه الصفات فلا تكون بيوسف حاجة إلى معجزة. أما تصورهم لقيام محاكمة للزوجة المفتونة فقد جانبوا فيه الصواب بشكل واضح؛ حيث فاتهم إدراك أن أسرة المرأة، بل وطبقة النبلاء والوزراء التى تنتمى إليها لم تكن تقبل أن

---

(١) محمد رشيد رضا، المرجع السابق، ص٢٣٧

(٢) سورة يوسف، الآيتان: ٢٦، ٢٧

(٣) ابن القيم، الطرق الحكمية، ص ٤

تحاكم واحدة منهم فى اتهام وجهه إليها عبد لها أو حتى أن تقابل بين ما نسبته إليه وما نسبه إليها، بل الأكثر من ذلك أن شهادة العبيد على الأحرار لم تكن مما يقبله الناس فضلا عن القضاء، فإذا كانت التهمة تتعلق بمراودة السيدة لعبدها عن نفسه فمن باب أولى، وربما يكون لهذا العرف بعض الوجاهة حيث إنه إذا فتح هذا الباب فلن يغلق أبدا، وستتدفق منه شكاوى العبيد والخدم من سادتهم ذكورا وإناثا إن صدقا وإن كذبا، فتنتشر الفضائح، وتهتز مكانة طبقة الصفوة، ومعها نظام الحكم.

ولقد اقتضى تخيل المفسرين قيام محاكمة لامرأة العزيز فى بيت أسرتها أن يمضوا فى الشوط إلى نهايته، فزعموا أنه قد تم إحضار قميص يوسف ليراه الشاهد، وفى قول آخر: إنه لم ير القميص وإنما سمع وصفا لما أصابه من تمزق فقضى بما قضى! وهو ما نستبعد حدوثه فى الحالتين؛ لأن ذلك يعنى ـ فى الحالة الأولى ـ أن يوسف ـ عليه السلام ـ قد توقع أن تكون هناك محاكمة للزوجة وله أيضا، وأن من سيجرى هذه المحاكمة سيكون من الحكمة وبعد النظر، بل واحترام العدل أيضا بحيث يدرك ما للقميص من أهمية كدليل يرجح اتهام أحد الطرفين للآخر، وبالتالى حرص على الاحتفاظ بالقميص فى مكان أمين لا تصل إليه أيدى الزوجين أو أحد من خدمهما لكى يقدمه لمن سيجرى المحاكمة، وهو تصور مفرط فى السذاجة كما نرى. وفى الحالة الثانية وهى التى سمع فيها الشاهد الذى هو من أهل المرأة بما أصاب قميص يوسف، فإن وصف القميص لا يمكن أن يقوم به إلا واحد من الثلاثة: الزوجان ويوسف، ولما كنا قد استبعدنا أن يكون يوسف قد حضر أمام الشاهد فى بيت أسرة الزوجة ووجه إليها الاتهام بأنها هى التى راودته عن نفسه فإننا نستبعد بالتالى أن يكون هو الذى وصف ما أصاب القميص، بقى الزوجان، أحدهما ـ وهو الزوجة ـ لا يتصور أن تعترف على نفسها بملاحقتها له والإمساك بقميصه وتمزيقه من الخلف، أما الثانى وهو الزوج فقد بينا كيف أن مصلحته وعلاقته بزوجته كانتا تفرضان عليه أن ينكر ما ادعاه يوسف من مراودتها له عن نفسه. فإذا صح ما وجهناه من نقد إلى مزاعم

المفسرين بشأن الشاهد والمحاكمة لم يبق إلا ما ورد بالقرآن متصلا، وهو أن الشاهد كان حاضرا مع الزوج وسمع كُلا من المرأة ويوسف يتهم أحدهما الآخر بالاعتداء عليه فلم يملك - وقد ظن أنهما يحتكمان إليه هو والزوج - إلا أن يقول ما قال بشأن القميص، وربما يكون قد دفعه إلى ذلك ما لاحظه من تردد الزوج فى إبداء الرأى فيما قالاه ورغبته الصادقة فى إقرار العدل وعدم الإضرار بيوسف الذى نرجح أنه كان قد عرف عنه - بحكم تردده على قصر قريبته امرأة العزيز - حسن أخلاقه وجمال طباعه وأمانته وصدقه. فلما وجد الزوج الضعيف الشخصية أنه قال ما قال لم يملك أن يتدخل حتى لا يظهر انحيازه لزوجته وتغاضيه عما حدث منها. ولا شك أن الشاهد كان قد رأى قميص يوسف من الأمام حيث كان يواجهه وهو يدفع عن نفسه اتهام المرأة له؛ ولذلك جاء فى الآية ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[1].

ولعل هذا ما جعل المفسرين يتخيلون حدوث المحاكمة التى رأى فيها الشاهد القميص لأول مرة، أو استمع إلى وصف لما أصابه، على اعتبار أنه فحص الثوب فى الأولى، وهو يقول ما قاله عن موضع التمزق، فلما لم يجده من الأمام ووجده من الخلف أصدر حكمه على المرأة. وكذلك فى الحالة الثانية، أى: سماعه لوصف القميص. بينما الأوفق أن يكون قد رأى المرأة وهى تسابق الفتى إلى الباب وقد سبقها فتعلقت بقميصه من الخلف فتمزق فى يدها ففهم حقيقة الموقف، ولكنه لم يشأ أن يدينها بلا دليل أو حتى قرينة؛ لما يعلمه من حب زوجها الشديد لها وخضوعه التام لرغباتها، مما قد يجعله يخالفه فيما سيقوله بشأن الملاحقة، ويجادله فيما استنتجه مما شاهداه، فقال ما قال بشأن القميص، فأسقط فى يد الزوج فلم يملك رد ما قاله على أمل منه أن يكون القميص سليما من الخلف فلا يدين الرجل الحكيم زوجته، فلما تبين أن القميص قد تمزق لزم الصمت، وقد اعتراه شعور بالأسى، ولكنه أسى العاجز الذى لا يستطيع أن يتخذ أى إجراء قبل زوجته اللعوب الكاذبة، فمضى الرجل فى حديثه إلى

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٨

الاثنين، فقال ليوسف: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾[1] يعنى أن يدعه من كيدها له باتهامه بمحاولة اغتصابها، وأن لايذكر ما حدث لأحد، ولا يعير تهديدها له بالسجن أو العذاب الأليم أى اهتمام بعد ما تبين بوضوح أنها خاطئة وكاذبة. ثم التفت إليه قائلا: ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنبِكِ ﴾[1] حيث اتهمته ظلما، وحاولت أن تراوده عن نفسه ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾[1] أى: من جنس المجرمين مرتكبى الخطايا المتعمدين لها. ولهذا غلب فيه جمع المذكر، فلم يقل من الخاطئات. وتنسب كثير من كتب التفسير هذا الكلام إلى الزوج لا إلى الشاهد على الرغم مما نلاحظه من اتصال الكلام ابتداء من ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾[2]!

وعلى الرغم من التصرف الذى اتخذه الزوج فيما بعد، والذى يبدو لنا أنه لم يكن له محل إذا كان قد قال هذا الكلام لكل من يوسف وامرأته؛ لأنه كلام يفهم منه أن الموضوع قد انتهى عند هذا الحد، وبالتالى فإن ملف القضية قد أغلق. ولكن الذى حدث جعل الملف مفتوحا؛ لأن المرأة الموتورة العنيدة المصرة على بلوغ مأربها من الفتى أرادت ذلك، وجاراها زوجها فيما أرادت. وما ذلك إلا لأن الحكمة التى أرادها الله من كل ما حدث ليوسف لم تكن قد تحققت بعد.

ونتصور أن يوسف أخذ بنصيحة الشاهد له، ومضى إلى المكان المخصص له فى بيت سيده وهو لا يصدق أنه أفلت من الاتهام الخطير الذى وجهته إليه المرأة، وتخلص من مطاردتها له من أجل أن يضاجعها، وأخذ يشكر الله على إنقاذه له ويدعوه أن يخرجه من هذا البيت على خير، وأن يهدى المرأة العاصية ويقيه شرها، ثم تناول قميصه يصلحه ويرتق ما تمزق منه حتى يعود صالحا للاستعمال. وبطبيعة الحال لم يكن بمقدور يوسف أن يترك بيت سيده؛ لأنه كان عبدا مشترى لا يتاح له ترك البيت إلا بإحدى وسيلتين، الأولى: أن يعتقه سيده، والثانية أن يبيعه، ولو كان العزيز بعيد النظر ـ كما قيل عنه ـ لما اشترى يوسف ورغب فى أن يتخذه ولدا لبادر إلى اتخاذ خطوة من الاثنتين خاصة بعد أن ثبت أن زوجته هى

(١) سورة يوسف، من الآية: ٢٩

(٢) سورة يوسف، من الآية: ٢٦

المذنبة المراودة للفتى عن نفسه، وأنها لن تتورع عن أن تعيد الكرة طالما كان الفتى معها، ولكنه لم يفعل لأمر أراده الله تعالى. أما المرأة فإنها انصرفت إلى غرفتها وهى تكاد تتهكم على الشاهد وتسخر مما قاله لها، فلم تستغفر لذنبها كما طلب منها، بل عقدت العزم على أن تنال مأربها من الفتى مهما كانت العواقب.

ولم يكن غريبا أن ينتشر أمر الجريمة النكراء التى ارتكبتها امرأة العزيز فى المدينة؛ فيعلم بها القاصى والدانى، وكيف لا والناس مولعون ـ فى كل زمان ومكان ـ بمعرفة أخبار كبار القوم والمشاهير فى كل علم وفن. وهذا عزيز مصر، الوزير الكبير الذى يلى الملك وولى عهده فى المنزلة، وزوجه الصغيرة السن التى تتدفق أنوثة وجاذبية، يراهما الناس متألقين فى المناسبات المختلفة من وطنية ودينية وقد علت وجهيهما الابتسامات التى تدل على ما هم فيه من سعادة ووفاق، فيتساءلون ـ فى مكر وفضول ـ إن كانا سعيدين حقا أم أنهما يتصنعان السعادة؟! ويتتبعون أخبارهما ليتأكدوا من صحة ذلك. ولم يكن العزيز وزوجته يقيمان وحدهما فى البيت الكبير، وإنما كان معهما ـ فضلا عن يوسف ـ عدد كبير من الخدم على اختلاف تخصصاتهم، منهم من يقوم بأعمال النظافة، ومن يقومون بإعداد الطعام، ومن يقومون بتقديمه، ومن كان عملهم فى خدمة الزوج الوزير، ومن هم فى خدمة الزوجة المدللة، وغير ذلك الكثير من الأعمال التى لا يعرفها إلا سكان القصور. ولا شك أن بعض هؤلاء كان قد لاحظ ما لدى المرأة من ميل إلى الفتى يوسف يجعلها تتعقبه بنظراتها وتهتم بأمره، وتوصى به الآخرين ليقدموا له خير ما لديهم من طعام وشراب، ولا تملك أن تدارى هلعها حين يمرض، وقلقها حين يشكو أو يتبرم، فاستنتج من ذلك وجود علاقة بينها وبين يوسف، ولكنه لما راقب وتحرى وتتبع وتصنت لم يلاحظ ما يدل على وجود أى علاقة بين الاثنين فيما عدا علاقة العبد أو الخادم بسيدته، حرص عليها يوسف وتمسك بها فى لباقة وأدب وكياسة. ولا نظن أن امرأة العزيز قامت بإخلاء القصر من كل من كان به من الخدم فى اليوم الذى عزمت فيه على الإيقاع بيوسف فى حبائلها، وإنما اكتفت بإبعادهم إلى أماكن ملحقة بالقصر كالمطابخ والأماكن

المخصصة لمبيتهم وغير ذلك؛ ظنا منها أن الأمر سيمر فى هدوء مع الفتى المتمرد، ولم يدر بخلدها أن شجارا سيقع ومطاردة محمومة ستجرى، ترتفع خلالها الأصوات لتصل إلى مسامع الخدم، بل فاتها أيضا توقع أن يقوم بعضهم - من الفضوليين - لا بالتصنت وحسب، بل وبالتطلع من خلال ما قد يوجد من فتحات صغيرة فى الأبواب والنوافذ المغلقة؛ ليروا ما يحدث بين السيدة وعبدها الذى أبقت عليه وحده معها، فسمعوا أو شاهدوا ما حدث وتناقلوه وكلهم دهشة من تصرف سيدتهم الغريب، واستنكار لسلوكها الشاذ. وعادة ما يلتقى الخدم، إما فى الأسواق حيث يبتاعون ما يحتاج إليه سادتهم، وإما فى المعابد أو الاحتفالات، وإما الزيارات التى يقومون بها لبعضهم البعض من وراء ظهور سادتهم، فيتبادلون ما لديهم من أخبار تخص هؤلاء السادة. وهكذا وصل خبر امرأة العزيز وفتاها إلى أسماع النساء من زوجات وبنات الطبقة العليا، فاستمعن إليه فى دهشة لا يكدن يصدقنه. ولكن الأخبار توالت تتحدث عن أن المرأة المفتونة لا تزال سادرة فى غيها تلاحق الفتى بحبها وتصر على أن يضاجعها بعد كل ما حدث، ضاربة عرض الحائط بمشاعر زوجها، لا يهمها ما قد يصيب سمعته كنبيل من النبلاء، أو عمله كوزير كبير، فأخذن كلما التقين يتهامسن قائلات:
﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾[1]

وكأنهن يتعجبن من تصرفها هذا وينكرن عليها صدوره عنها. ويقول رشيد رضا[2]: إن هذا الإنكار كان صوريا من أربع نواح:

الأولى: كون المتحدث عنها امرأة عزيز مصر وزير الملك الأكبر فى علو مركزها.

الثانية: كونها تهين نفسها وتحقر مركزها بأن تكون مراودة لرجل عن نفسه، وشأن مثلها - إن سخت بعفتها - أن تكون مُرَاوَدَةً عن نفسها لا مُرَاوِدَةً لغيرها.

ثالثا: أن الذى تراوده عن نفسه هو فتاها ورقيقها.

رابعا: أنها بعد أن افتضح أمرها وعرف به زوجها، وعاملها بالحلم، وأمرها

(١) سورة يوسف، من الآية: ٣٠

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤٠

باستغفار ربها لا تزال مصرة على ذنبها، مستمرة فى مراودتها، وهو ما أفاده قولهن: (تراود) وهو فعل المضارع الدال على الاستمرار، فتلقفنها فى لهفة وتناقلنها فى شماتة وتشفٍّ فى المرأة التى يضمرن لها كل المشاعر غير الطيبة، من كراهية، وحسد وحقد وغيرة. وبطبيعة الحال فإن فضيحتها مع فتاها الذى أذلها برفضه لما دعته إليه كانت فرصة لا تعوض بالنسبة للنساء لكى يسخرن منها وينددن بتصرفها متظاهرات باستنكار فعلتها الشنعاء، التى - ربما - اعتبرنها كذلك لأن المحبوب المتمرد كان عبدا للمرأة، وليس حرا مثلها أو ندا لها ينتمى إلى نفس طبقتها. وتبلغ دقة القرآن الكريم أقصاها حين أطلق على ما رددته النساء عن امرأة العزيز وصف المكر، يعنى أنهن إنما قصدن استفزازها لكى يدفعنها إلى تبرير ما فعلته، فتريهم الشاب الذى شغفت به حبا حتى يلتمسن لها العذر. وكذلك قولهن: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[١]

لم يكنَّ يقصدن به إنكار المنكر وبغض الرذيلة، ولا حب المعروف والانتصار للفضيلة، وإنما قلنه مكرا وحيلة؛ ليصل إليها فيحملها على دعوتهن ليشاهدن الفتى. ويقول الشيخ محمد رشيد رضا[٢]: إن استخدام القرآن لكلمة (نسوة) إنما قصد به بيان أن عددهن كان قليلا، وينقض ما ادعاه بعض المفسرين من أن اللواتى أجبن دعوة امرأة العزيز كن أربعين امرأة قائلا: إنه - أى هذا الادعاء - مردود بالتعبير عن النساء العاذلات كلهن بجمع القلة الذى يُستخدم فى التعبير عنه كلمة «نسوة». وسمعت امرأة العزيز بما قالته النسوة، وغالبا من إحداهن التى تظاهرت باستنكار ما قالت إنها سمعته منهن خاصا بامرأة العزيز، فلم تصدقه، ولامَتْهُنَّ على ذلك. وهى الطريقة الماكرة التى كثيرا ما تلجأ إليها النساء إن هن أردن أن يتأكدن من اتصال الخبر بعلم ضحيتهن مباشرة وبصورة معينة. كذلك قد يكنَّ استخدمن امرأة ممن يترددن على قصور الكبار والأغنياء لأداء بعض الخدمات بين الحين والحين كالماشطة والبلانة وغيرهن. وكان لهن مكانة خاصة تتميز على مكانة الخدم، ومهام إضافية، لا تقل أهمية عن مهامهن الأصلية، مثل الترويح عن السيدات بالحكايات المرحة، وشغل أوقات فراغهن - وما أكثرها - بالنميمة والقيل والقال. وكن - بطبيعة الحال - ينقلن أخبار النساء بعضهن إلى بعض،

(١) سورة يوسف، من الآية: ٣٠

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤١

ولكن النساء لم يكنَّ يصلن فى غضبهن منهن إلى حد منعهن من دخول قصورهن؛ لأن ذلك كان من شأنه أن يحرمهن من وسيلة هامة جدا لمعرفة ما يحدث فى القصور. ولم يكن الأمر يقتصر على تلقى الأخبار، وإنما كان يشمل إرسال ما ترغب النساء فى إبلاغه إلى غريماتهن لإثارة غيرتهن، أو للكيد لهن، أو غير ذلك. وكان اختراع الهاتف وانتشار استعماله سببا فى اختفاء هذه الفئة من النساء.

والتقطت امرأة العزيز الطعم، فأرسلت إلى النسوة تدعوهن للحضور إلى قصرها دون أن تبين لهن سبب الدعوة، وكأنها أرادت أن توهمهن بأنها ستشرح لهن موقفها مما حدث فى محاولة منها لنفى التهمة عن نفسها. وقبل أن يحضرن قامت بإعداد المكان الذى سيجلسن فيه وزودته بوسائد فاخرة مما يستخدم فى الاتكاء عندما يرغب الشخص فى الاسترخاء. ويقول ابن الأثير: إن العامة لا تعرف الاتكاء إلا الميل فى القعود معتمدا على أحد الشقين، ويقال: اتكأ إذا أسند ظهره أو جنبه إلى شىء معتمدا عليه، وكل من اعتمد على شىء فقد اتكأ عليه، وفى السنة أنه ﷺ ما كان يأكل وهو متكىء. ويبدو أن امرأة العزيز تعمدت أن تضع تلك الوسائد الناعمة اللينة فوق الأرائك لكى تغرى النساء المترفات المدللات باستخدامها فيتمددن أو يملن وقد ارتكزن عليها بمرافقهن وأمامهن الفاكهة التى اختارت منها نوعا يحتاج إلى سكين لتقطيعه؛ حتى يتمكن الشخص من أكله جزءًا فجزءًا بالنظر إلى كبر حجم الثمرة، وقدرت المرأة الماكرة أن النسوة سيستخدمن إحدى يديهما فى القبض على الثمرة، ويستخدمن الأخرى فى الإمساك بالسكين لتقطيعها، فإذا كن مسترخيات متكئات على الوسائد، فإنه لابد أن يكون اتكاؤهن على شقهن الأيسر مع الارتكاز على المرفق، وليس على الشق الأيمن حيث يأكلن باليد اليمنى. واختيار هذا الوضع لكى تتخذه النسوة أثناء وجودهن عندها يدل على ما كانت هذه المرأة الشريرة تتمتع به من ذكاء شديد وقدرة فائقة على التدبير والكيد؛ فقد أرادت أن تكون الثمرة فوق الكف شبه رأسية والسكين فوقها، حتى إذا حدث أدنى خلل فى هذا الوضع كأن اضطربت المرأة أو ارتعش جسمها أو اختلج لأى سبب فإن ذلك سيؤدى إلى

انحراف السكين عن الثمرة إلى ما يجاورها من اليد فتقطعه، وكذلك إذا رأت النسوة ما يستدعى النهوض المفاجىء فإنهن سيرتكزن بقوة على السكين وهى فوق الثمرة، فيؤدى الضغط الشديد إلى اختراق السكين لها حتى تشقها وتصل إلى اليد فتقطعها. ولم تفطن النسوة إلى هذا التدبير الشيطانى، وهللن إعجابا بما وفرته لهن من وسائل الراحة، فمنهن من تمددت مسترخية، ومنهن من مالت على شقها، وأمامهن جميعا الفاكهة، بينما طافت هى بهن تعطى كل واحدة منهن سكينا لتقطع به الفاكهة الشهية، وربما التى كان وجودها نادرا أو قليلا، ودعتهن ضاحكة لكى يبادرن إلى تناولها وهى تزينها لهن حتى يركزن انتباههن فيها، فانشغلن بها ضاحكات مسرورات ليفاجأن بها تأمر شخصا ما قائلة: ﴿ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّ ﴾[1].

وذلك لأنها كانت قد أمرته أن ينتظر فى غرفة متفرعة عن الغرفة التى كن يجلسن فيها، فصح أن تقول اخرج عليهن لا ادخل عليهن. فلما نظرن إلى حيث كانت تنظر، وقد توقفت أيديهن عن الحركة والسكاكين فوق الثمار، رأين شابا بارع الجمال، رائع الحسن، ملائكى الطلعة يخرج من الغرفة على استحياء وفى تردد، فأعظمنه وأكبرنه وكأنهن لا يصدقن أنفسهن، وبعد أن كن متكئات شرعن فى النهوض ليجلسن فيمعن النظر فيه، أو ليقفن فيقتربن من هذا المخلوق الفريد فى جماله وحسنه، فلم يشعرن إلا والسكاكين قد قطعت أيديهن فصرخن من الألم وألقين بها وبالثمار، والدماء تنزف من أيديهن. ويبدو أن المرأة الماكرة تعمدت أن تشحذ السكاكين ـ أى تسنها ـ أكثر من المعتاد؛ بحيث تنفذ فى الفاكهة الناعمة لأقل ضغط من أيدى النساء لتنفذ إلى أيديهن الممسكة بالثمار. ومع ذلك ـ وعلى الرغم مما هن فيه من ألم الجرح الذى أحدثته السكاكين ـ لم يملكن أنفسهن من العودة إلى النظر إلى يوسف ـ عليه السلام ـ فى ذهول وهن يقلن: ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾[2] أى ما هكذا يكون البشر ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[2]

عندئذ رمقتهن المرأة فى تشفّ وقد رسمت على وجهها تعبيرا يدل على

(١) سورة يوسف، من الآية: ٣١
(٢) سورة يوسف، من الآية: ٣١

الانتصار، فنظرن إليها فى حيرة لا يدرين بماذا يبررن ماسبق أن قلنه عنها، فما كان منها إلا أن حركت رأسها فى زهو قائلة وكأنها تسخر منهن: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾[1]

تقصد أنهن كن يعتقدن أن يوسف مجرد مملوك اشتراه زوجها بماله كما اشترى غيره، أو ظنن أنه خادم صعلوك دفعها تأثرها بظروفه القاسية إلى أن تعطف عليه وتشمله برعايتها، غير أنها ما لبثت أن مالت إليه ثم تحول الميل إلى حب جارف مس شغاف قلبها. وكانت تعتقد أنه إذا شعر بما تكنه له فسيقبل عليها ويبادلها حبا بحب، فلما لم يفعل لم تجد بدا من أن تراوده عن نفسه. وظلت ترمقهن بحدة وكأنها تنتظر منهن أن يقلن شيئا، بينما يوسف يقف فى مكانه لايستطيع أن ينصرف قبل أن تأذن له سيدته، فلم تملك إلا أن تقول لهن: لقد قطعتن أيديكن لما أذهلكن جماله، وخلب ألبابكن جلاله، فما بالكن وأنا التى أراه كل يوم، بل كل ساعة، بل كل لحظة، أشاهده وهو يروح ويجىء، ويقعد ويقوم، وينام ويستيقظ، ويأكل ويشرب، ويتكلم ويصمت، ويتألم ويفرح، فأتألم معه وأفرح لفرحه، وعندما أستريح فى فراشى أغمض عينىّ على صورته، فإذا استيقظت استيقظت عليها. لقد رأيتموه ملكا كريما، أما أنا فأراه بشرا جميلا، رجلا يفيض رجولة، جسدا لا ملكا، ومضت تعدد ما تحملته من صنوف المعاناة والآلام بسببه، واعترفت قائلة: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾[1].

قالت ذلك بعد أن شعرت بتعاطفهن معها، والتماسهن العذر لها بعد ما شاهدن يوسف وسمعنها تذكر ما عانته بسببه. وانفعلت بشدة وكأنما فاض بها ونضب معين صبرها، ترفع صوتها قائلة وكأنها توجه كلامها إليه أيضا: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[1].

إنها لا تكتفى بإنذاره فحسب، بل تهدده بالسجن وبالإذلال، فكشفت بذلك عن صورة نادرة للمرأة عندما يصل فجورها إلى مداه، بحيث لم تأبه بوجود النسوة، و لا اهتمت بأن ينقلن ما سمعوها تقوله إلى الناس، ولا أقامت

(١) سورة يوسف، من الآية: ٣٢

لاحتمال وصوله إلى علم زوجها وزنا، مما يدل على أن هذا الزوج كان ألعوبة فى يدها، تحركه كيف تشاء، وهو ما أكدته الأحداث فيما بعد. ويفهم مما قاله يوسف لما سمع هذا الكلام ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾[1] أن النسوة أنفسهن قد نصحنه بالاستجابة لما تطلبه سيدته منه، بل وراودنه هن أيضا عن نفسه وكأنهن اعتبرن ذلك مكافأة لهن على تعاطفهن معها لن ترى بأسا فى حصولهن عليها إذا ما نالت هى مأربها من الفتى، أو كأنها وجدت فى مراودتهن له عن نفسه ضغطا إضافيا عليه قد يجعله يغير رأيه.

جدل حول أخلاق المصريين:

ولقد ثار كثير من الجدل حول تصرف امرأة العزيز والنسوة اللاتى ما لبثن أن شاركنها فجورها بعد أن رأين يوسف ـ عليه السلام ـ فقد استدل البعض ـ ومنهم أبو حيان فى البحر المحيط ـ بتصرف المرأة وموقف زوجها العزيز منها على أنه ناشىء عن طبيعة التربة فى مصر وبيئتها؛ فهى لرخاوتها لا ينشأ فيها الأسد، ولو دخل فيها لا يبقى، يعنى أن الرجال كذلك ينشأون على الرخاوة وضعف النخوة والانقياد للنساء.

يقول المقريزى[2]: «و أما أخلاق المصريين فبعضها شبيه ببعض؛ لأن قوى النفس تابعة لمزاج البدن، وأبدانهم سخيفة سريعة التغير، قليلة الصبر والجلد؛ ولذلك أخلاقهم يغلب عليها الاستحالة والتنقل من شىء إلى شىء، والدعة والجبن، والقنوط والشح وقلة الصبر، والرغبة فى العلم، وسرعة الخوف، والحسد، والنميمة، والكذب، والسعى إلى السلطان، وذم الناس، وبالجملة فيغلب عليهم الشرور الدنيئة التى تكون من دناءة الأنفس. وليس هذه الشرور عامة فيهم، ولكنها موجودة فى أكثرهم. ومنهم من خصه الله بالفضل وحسن الخلق، وبرأه من الشرور. ومن أجل توليد أرض مصر الجبن والشرور الدنيئة فى النفس لم تسكنها الأُسُدُ، وإذا دخلت ذلت ولم تتناسل، وكلابها أقل جرأة من

---

(١) سورة يوسف، من الآية: ٣٣

(٢) (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) ج ١، ص ٤٥

كلاب غيرها من البلدان. وكذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره فى البلدان الأخرى ما خلا ما كان فى طبعه ملايمة لهذه الحال كالحمار والأرنب.

وقال أبو الصلت[1] عن أهل مصر: «وأما أخلاقهم فالغالب عليها اتباع الشهوات، والانهماك فى اللذات، والاشتغال بالترهات، والتصديق بالمحالات، وضعف المرائر والعزمات، لهم خبرة بالكيد، وفيهم بالفطرة قوة عليه وتلطف فيه وهداية إليه، لما فى أخلاقهم من الملق والبشاشة التى أربوا فيها على من تقدم وتأخر، وخصوا بالإفراط فيها دون جميع الأمم، حتى صار أمرهم فى ذلك مشهورا، والمثل بهم مضروبا.

ويقول المقريزى[2]: ومن أخلاق أهل مصر قلة الغيرة، وكفاك ما قصه الله - سبحانه وتعالى - من خبر يوسف - عليه السلام - ومراودة امرأة العزيز له عن نفسه، وشهادة شاهد من أهلها عليه بما بين لزوجها منها السوء فلم يعاقبها على ذلك بسوى قوله: استغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين. أما ابن عبد الحكم فإنه برر خضوع الأزواج المصريين لزوجاتهم وقلة غيرتهم عليهن بقصة طريفة جاء فيها: إنه لما غرق فرعون ومعه الجيش الذى كان مكونا من معظم رجال مصر، أثناء قيامه بمطاردة اليهود لم يبق إلا العبيد والأجراء. ولما لم تستطع النساء صبرا عن الرجال لجأن إلى عتق عبيدهن وأجرائهن ليتزوجن بهم، واشترطن عليهم أن لا يفعلوا شيئا إلا بإذنهن، فأجابوهن إلى ذلك، فكان أمر النساء على الرجال، وأن نساء القبط على ذلك إلى أيام المقريزى[3].

ولقد تسببت هذه الأقوال فى إثارة حفيظة كثير من المصريين، وبخاصة هؤلاء الذين يعتقدون أنهم أحفاد المصريين القدماء، ويتيهون زهوا بهذه الرابطة، ويستغلون كل فرصة تسنح لهم للتغنى بإنجازات الأجداد والإشادة بحضارتهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث فى حقيقة هذه العلاقة التى هى فى الواقع

(١) المرجع السابق، ص٤٨

(٢) المرجع السابق، ص ٤٩

(٣) المرجع السابق، ص ٤٩

من صنع الغرب الذى أراد أن يدق أسفينا بين المصريين، يتمثل فى إحياء دعوى الفرعونية، وإغراء فئة من المثقفين بالانتماء لها، والتمسك بها كنقيض لمبدأ الأمة الإسلامية، بل والقومية العربية أيضا. وبالفعل وجد ضالته فى عدد من الناس الذين يفضلون الثرثرة على العمل، ويبحثون عن شىء يزهون به بدلا من أن يجدوا ويجتهدوا، فوجدوا فيما وفره الغرب لهم من معلومات عن المصريين القدماء أمدته بها الكشوف الأثرية التى قام بها علماؤه فى طول مصر وعرضها ما أشبع غرورهم، فراحوا يرفعون عقيرتهم فى كل مناسبة مرددين مزاعمهم بشأن أصولهم الفرعونية، وجندوا أنفسهم للهجوم على كل من تصدر عنه كلمة أو يعبر عن رأى يظنون أن فيه مساسا بالمصريين القدماء. وهو ما حدث فى حالتنا هذه؛ فقد شنوا حملة من النقد اللاذع على الفقهاء الذين قالوا عن المجتمع المصرى الذى عاصره يوسف ـ عليه السلام ـ إنه كان مجتمعا منحلا؛ استنادا إلى ما فعلته امرأة العزيز وصويحباتها. وليس من شك فى أن بعض ما قيل عن الرجال المصريين قد جانبه التوفيق بشكل واضح؛ لأن قائليه عمموا الحكم بحيث شمل جميع الرجال فى كل الحقب التاريخية التى مرت بها مصر، والتى تزيد على أربعة آلاف سنة، تعرضت فيها مصر لتغيرات وتحولات عميقة اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية، انعكست بشدة على الأعراف والتقاليد والعادات والنظم فغيرتها وبدلتها، بحيث جعلت من المستحيل أن يظل الرجال هم الرجال ولا النساء هن النساء.

ومع ذلك، فإن أنصار الفرعونية وقعوا فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الذين أدانوا تلك الحضارة. ففى دفاعهم عن المصريين القدماء استعانوا بنصوص أدبية لحكماء قدامى اشتملت على ما قالوا إنها فضائل كان يتحلى بها المصريون القدماء، واستدلوا بها على ما كانوا يتميزون به من حب للأسرة، واحترام للمرأة، واستقامة، وأمانة، وإخلاص، وصدق، موهمين الناس أن ذلك ما كان سائدا طوال التاريخ الفرعونى الذى امتد إلى أكثر من أربعة آلاف سنة! وهذا أمر مستحيل الحدوث؛ للأسباب التى سبق أن بيناها. ولو شاءوا لأوردنا لهم نصوصا

أخرى اشتملت على أمور مخزية، وأحوال متردية، وتدهور شديد فى أوضاع الأسرة، وفى علاقات أعضائها، وتصور ما تفشى من رذائل، مثل الجريمة، والخيانة، والفساد، والكذب، والحقد، والكراهية، مما أشاع جوا من عدم الثقة، وعدم الطمأنينة، والخوف، ولنقرأ ما ورد بإحدى البرديات منسوبا للحكيم اليائس ـ وسمى كذلك لأنه لم يعثر على اسمه فى البردية التى تركها ـ بعد أن ألقى نظرة على مجتمع أهل عصره، فلم يجد فيه فاشيا إلا الرشوة، والخيانة، والظلم، وعدم الإخلاص، حتى بين أعضاء أسرته هو. ويقول سليم حسن: «لقد كان من نتائج تدهور البلاد وتمزيق أوصالها فى العهد الإقطاعى أن عمت الفوضى، وساءت الأخلاق، وفسدت العقائد الدينية إلى درجة يقصر فيها الوصف، حتى إن الْجَمَّ الغفير من الناس ـ وخاصة المتعلمين منهم ـ قد اعتنقوا مذهب التشكيك، فألقوا بتعاليم آبائهم ظهريا، ورأوا الحياة مسرحا لإشباع الشهوات النفسية... وساءت الأخلاق، ووقع الناس فى الإثم إلى الأذقان»[(١)]. وفى موضع آخر يقول الحكيم اليائس: «لمن أتكلم اليوم؟ الناس يسرقون، وكل إنسان يغتصب متاع جاره. لمن أتكلم اليوم؟ فالخطيئة التى تصيب الأرض لاحد لها»[(٢)]

ويبدو أن تحرر النساء وجرأتهن إلى الدرجة التى تبرر وصف سلوكهن بأنه يفتقر إلى الحياء، كان مستشريا فى كثير من حقب التاريخ المصرى القديم، يدل على ذلك ما نلاحظه من اشتمال وصايا الحكماء إلى أبنائهم على وصية أو أكثر تحذرهم من النساء وغوايتهن للشباب، وبخاصة الذين لم يتزوجوا بعد. فها هو الحكيم بتاح حتب (٢٦٧٠ ق. م) يوصى ابنه قائلا: «وإذا أردت أن تحافظ على الصداقة فى بيت تدخله، سيدا كنت أم خادما أم صاحبا، فاحذر القرب من النساء، فإن المكان الذى يكن فيه ليس بالحسن، ومن الحكمة إذن ألا تحشر

(١) الأدب المصرى القديم ـ أو ـ أدب الفراعنة، ج ١ ص ٢٩٦، مطبوعات (كتاب اليوم) العدد الثانى، القاهرة ١٩٩٠م.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠٠

نفسك معهن، ومن أجل ذلك يذهب ألف رجل إلى الهلاك بسبب متعة قصيرة تضيع كالحلم، ولا يجنى الإنسان من معرفتهن غير الموت»[1].

وفى شكوى خعخبر رع سنب، الذى عاش فى عهد الملك سونسرت الثانى يقول: «إن المصائب تقع اليوم، ومصائب الغد لم تأت بعد، فكل الناس لاهون عن الغد، مع أن كل البلاد فى اضطراب عظيم، وليس بإنسان خاليا من الضر، فإنه يصيب جميع الناس على السواء، والقلوب بالحزن مفعمة، ولا يوجد إنسان عاقل يدرك، ولا إنسان غاضب يتكلم، والناس تستيقظ فى الصباح كل يوم لتتألم»[2].

أما الحكيم آنى فينصح ابنه قائلا: «خذ حذرك من المرأة الأجنبية، تلك التى ليست معروفة فى بلدتها، ولا تغمز لها بعينك، ولا تبغ معها، فهى ماء عميق لا يعرف الرجال التواءاته (تياراته). والمرأة البعيدة عن زوجها تقول لك كل يوم «إنى جميلة» ولذلك فإنها عندما تكون بعيدة عن أعين الرقباء تقف أمامك لتوقعك فى حبائلها. إن ذلك الزنا لجرم عظيم يستحق الإعدام عندما يرتكبه الإنسان. ثم يعلم بذلك الملأ؛ لأن الإنسان يسهل عليه بعد ارتكاب تلك الخطيئة أن يرتكب كل ذنب[3]».

وهكذا يكون أحد الفريقين قد أخطأ فى تصوره للحضارة المصرية القديمة على أنها كانت كلها دياثة فى جانب الرجال، وفجورا وانحلالا فى جانب النساء، بينما أخطأ الفريق الآخر فى تصوره أنها كانت كلها شهامة وغيرة على الشرف فى جانب الرجال، وفضيلة وطهارة فى جانب النساء؛ لأن كلا التصورين بعيد عن الصحة، وإنما الصحيح أن الشعوب تتقلب فى مراحل تاريخها المختلفة بين التماسك والانحلال، والفضيلة والرذيلة، والضعف والقوة، ويبدو هذا أوضح ما يكون فى المجتمعات التى عاشت حضارتها عمرا طويلا أربى على الأربعة آلاف سنة كالمجتمع المصرى القديم.

---

(١) سليم حسن، المرجع السابق، ص١٩٣
(٢) المرجع السابق، ص ٣٠٦
(٣) المرجع السابق، ص ٢٣٤

وكما لاحظنا، فإن لهذه الجريمة ظروفا خاصة لا نعتقد أنها يمكن أن تتوفر لأى جريمة مماثلة فى زماننا هذا، فالمجنى عليه تحول إلى متهم بالشروع فى الاعتداء على سيدته، فلما ظهرت براءته من التهمة لم يفده ذلك بشىء؛ لأنه ظل تحت سيطرتها، تحاول أن تثنيه عما أصر عليه من عدم الاستجابة لما تدعوه إليه من مضاجعتها، وبلغ بها الضيق به مداه، فهددته بالسجن والتعذيب فى حضور النسوة اللاتى شاركنها فى مراودته عن نفسه بعد أن بهرهن جماله، فلم يزده ذلك إلا إصرارا على الرفض ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾[1].

فهو يفضل أن يسجن، مع ما فى ذلك من معاناة وآلام، على أن يستجيب لما تدعوه النساء إليه من الاستمتاع بهن. ثم يقول: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[1].

يعنى: إن لم تحول عنى ما ينصبنه لى من شراك الغواية لم أسلم من الميل إليهن فأصبح بذلك سفيها استخفته أهواء النفس مما جعله يعمل السوء بجهالة، وهو ما يخالف مقتضى الحلم والأناة، أو مقتضى العلم والحكمة ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2] يعنى استجاب إلى ما طلبه منه، فلم يصب إليهن، وعصمه أن يكون من الجاهلين.

ولكن هل يئس المجرمون؟ أو ثابوا إلى رشدهم؟! بالطبع لا، فالمرأة العنيدة أبت إلا أن تنتقم من الفتى الذى أصر على رفض ما طلبته منه، وانضمت إليها النسوة الفاجرات اللاتى طمعن فى مشاركتها فى الاستمتاع به. فماذا بشأن الزوج الذى سبق أن سمع الحكم على زوجته بأنها المذنبة وليس الفتى، فيما نسبته إليه من محاولة الاعتداء عليها، وبالرغم من ذلك تركه تحت سيطرتها لكى تستمر فى الضغط عليه دون أى إحساس بالمسئولية، أو بالغيرة على عرضه، أو الرغبة فى حماية شرفه، مما يدل على أنه كان ديوثا كبيرا لا حياء له ولا نخوة. ولا يعقل أن يكون تصرف هذا الوزير خافيا على الناس، أو على الأقل عن الصفوة التى

(١) سورة يوسف، من الآية: ٣٣

(٢) سورة يوسف، الآية: ٣٤

ينتمى إليها، فمن تصرف النسوة يتبين لنا أن اتخاذ الزوجات للعشاق، وخيانتهن لأزواجهن جهارا نهارا كانت عادة مقبولة من الأزواج، أو على الأقل يتسامحون بشأنها.

طبعا لم ييأس المجرمون، فاجتمعوا للنظر فى أمر الفتى المتمرد، ويظهر من عبارة القرآن البليغة أن ذلك الاجتماع قد حدث فعلا؛ حيث جاء به قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ ﴾(١).

أى لعدد من النساء والرجال؛ لأنهم لو كن نساء فقط كامرأة العزيز والنسوة لقال (وبدا لهن) ولكنه قال (لهم) فيكون الزوج قد انضم إلى النساء، وربما الشاهد الذى سبق أن حكم بأن المرأة هى المذنبة؛ ليتباحثوا فيما يجب عمله مع الفتى خاصة بعد ما رأوا الآيات، والمقصود بها ما شاهدوه من الدلائل على أن يوسف إنسان غير عادى؛ فهو لم يتأثر بغواية المرأة أولا، ثم النسوة فيما بعد ولا ثناه التهديد والوعيد عن موقفه الحازم والحاسم، بل صمد واستعصم. وربما يكون الزوج الديوث قد اعتبر تصرف يوسف على هذا النحو إهانة له؛ لأنه رفض ما عرضته عليه زوجته من مضاجعتها، وحز فى نفسه أن يسبب لها إحباطا، وربما يكون قد نقم عليه أن أحبته المرأة وأذلت نفسها له، بينما هو يذل نفسه لها دون أن تحبه. وإن كان اجتماع هذين الاحتمالين غير مستبعد، فالرجال من أمثال هذا العزيز الذى لم يكن لديه من العزة غير الاسم تختلط لديهم المشاعر غالبا فتطمس أبصارهم، وتعمى بصائرهم، فيرون الفضيلة رذيلة، والرذيلة فضيلة، كما هو حال الشعوب الغربية الآن التى تعتبر ممارسة الجنس فى الأماكن العامة فضيلة، وتعتبر ما يعترى المشاهدين لهذه الممارسات من استنكار رذيلة؛ لأنه نوع من التدخل فى حرية هؤلاء المرضى، وكذلك بالنسبة للواط والزنا والسحاق!!.

ليس ذلك وحسب، بل إن بعض الرجال الذين يتعمدون الزواج من نساء جميلات يفضن بالأنوثة، ويتدفقن بالجاذبية يكونون ممن لديهم ميول استعراضية قوية تجرف أمامها ما يكون لدى الرجال عادة من غيرة على زوجاتهم، تجعلهم يرفضون أن تكشف المرأة عن مفاتنها وتبرز محاسنها. ومن

(١) سورة يوسف، من الآية: ٣٥

هؤلاء الرجال من لا يستنكر توجيه البعض لعبارات المديح ـ بل والغزل ـ إلى زوجته، ويعتبر من لا يفعل ذلك إما متخلفا رجعيا أو حسودا حاقدا.

ويرى بعض المفسرين أن الرجل الذى شهد من قبل ربما يكون قد حضر أيضا للتشاور بشأن ما يجب اتخاذه نحو يوسف. ومهما كان الأمر فإن المشاورات انتهت إلى التسليم للمرأة الفاجرة بما طلبته وسبق لها أن هددت به يوسف وهو السجن، وبطبيعة الحال فقد وافقتها النسوة على ذلك؛ لأنه أصابهن من عناده ما أصابها من إحباط وإهانة للكبرياء، وكذلك الزوج الديوث الذى كانت قد روضته وسيطرت عليه وأصبحت توجهه كيف شاءت، ولكن ماذا بشأن الشاهد الذى سبق أن أدانها؟ ولماذا وافق على وضع يوسف فى السجن؟! هنا نرجع إلى ما سبق أن قلناه من أن حكمه الذى أصدره وأدان به المرأة كان حال دخوله مع زوجها، وليس فيما بعد لما شكاها زوجها لأهلها ـ على حد زعم البعض ـ وأنه أصدره فى اللحظة التى شاهد فيها ما كان من ملاحقة المرأة لفتاها بحيث يمكن القول إنه تسرع فى إصداره لحكمة أرادها الله تعالى، لو أنه كانت هناك محاكمة فى بيت أهل المرأة لأتيح له الوقت للتفكير فى حل آخر ليس فيه إدانة لها، أو على الأقل حل وسط لا يبين منه الجانى من المجنى عليه، بل ربما يكون القرار الذى انتهوا إليه من مشاوراتهم بإيداع يوسف فى السجن قد صدر للتمويه على حكم الإدانة الذى سبق لهذا الرجل أن أصدره، وأنه قيل له إنه لا مفر من أن يوافق عليه ليعالج به الخطأ الذى ارتكبه وأساء به إلى قريبته، حيث استند الناس إليه كدليل على فجورها وفسادها إذ أحبت بل شغفت حبا بمملوك لها وهى التى تملك أن تعشق من تشاء من الرجال ممن هم فى مستواها الاجتماعى والاقتصادى. وليس ببعيد أن تقوم امرأة على هذا القدر من الدهاء والفساد وإتقان الكيد بإقناع قريبها وهى تتصنع الحزن الشديد على سمعتها التى أضر بها حكمه، بأن يوافق على سجن يوسف حتى ينسى الناس الحادثة؛ لأنه طالما ظل فى البيت فلن تتوقف الأقاويل، وربما لن تستطيع أن تقاوم حبها له، وكذلك أقنعت زوجها، فلما وافق الرجلان على المبدأ تحولت إلى الخطوة التالية وهى أن

يكون سجن يوسف غير محدد المدة، وإنما يكون الإفراج عنه بعد أن يتم التأكد من أن الناس قد نسوا الفضيحة. وهكذا بقى الظلم قائما وبأشد مما كان، فالوضع فى السجن ليس مثل العيش فى بيت العزيز، ولكن من وجهة نظر يوسف فإن السجن كان أحب إليه من العيش مع المرأة الفاجرة فى بيت واحد تتردد عليه صويحباتها الفاجرات يشاركنها فى الغواية والضغط عليه، وهكذا تأجل ظهور الحقيقة وبراءة المتهم المظلوم إلى يوم لا يعلمه إلا الله. وسيق يوسف إلى السجن بأمر من العزيز تشيعه امرأته المجرمة بنظرات التشفى المختلط بالحسرة؛ لأنها لم تنل منه ما تريد.

وانتشر فى المدينة خبر سجن فتى العزيز الذى شغف امرأته اللعوب حبا، وتملك العجب الناس من الأوضاع المقلوبة التى تجعل البرىء مذنبا والمذنب بريئا، وقال بعضهم ممن ظلوا على تمسكهم بالفضيلة ونبذهم للرذيلة: إن هذا الفساد لابد أن يورد البلاد موارد التهلكة، ويومئذ لن ينجو من الهلاك أحد.

أما يوسف فقد ألقى به فى السجن ليجد نفسه فى مكان واحد مع رجلين اثنين كانا ينتظران الحكم عليهما ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾(١).

أى: فتيان مملوكان، تبين فيما بعد أنهما مملوكان للملك. وروى عن ابن عباس أن أحدهما خازن طعامه، والآخر ساقيه. وحدث أن رأى كلاهما ـ فى منامه ـ رؤيا، فقصاها على يوسف، فقال الأول إنه رأى نفسه يعصر خمرا، أى يعصر العنب الذى تصنع منه الخمر. وقال الآخر إنه رأى نفسه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه، وطلبا منه أن ينبئهما بتفسير لما رأياه، وعللا طلبهما هذا بأنهما يريان أنه ـ أى يوسف ـ من المحسنين الذين يريدون الخير والنفع للناس. وليس من شك فى أنهما توصلا إلى معرفة ذلك بما لاحظاه على يوسف أثناء وجودهما معه فى السجن من سعة علم، ودماثة خلق، وحرص على العلاقة الطيبة مع الآخرين، سواء كانوا مسجونين مثله، أو حراسا، أو غيرهم.

وكان تفسيره لرؤيا أحدهما أنه سيسقى ربه ـ أى الملك ـ خمرا، وتفسيره لرؤيا الآخر أنه سيصلب فتأكل الطير من رأسه. وأذكر بهذه المناسبة أن خلافا كبيرا نشأ

(١) سورة يوسف، من الآية: ٣٦

بينى وبين بعض المهتمين بتاريخ العقوبة بشأن ما كنت قد أكدته فى بعض ما كتبت من أن المسلمين هم أول من عرف عقوبة السجن بشروطها وأركانها التى نعرفها الآن. أما قبل ذلك فإن الوضع فى السجن لم يكن عقابا بل مجرد إجراء يهدف إلى التحفظ على المتهمين إلى أن تحين محاكمتهم، أو إلى أن يصدر الحكم بشأنهم، واستندت فى ذلك إلى هذه الآيات من سورة يوسف . فيوسف نفسه لم يوضع فى السجن عقابا له على جريمة ارتكبها، وإنما كيدا له من امرأة العزيز، وللأسباب التى سبق أن ذكرتها. كذلك الفتيان اللذان دخلا السجن معه فقد كانا ينتظران الحكم عليهما الذى لم يلبث أن صدر ببراءة أحدهما وإدانة الآخر والحكم بإعدامه صلبا. واغتنم يوسف الفرصة وطلب من الفتى الذى قال له إنه سيقضى ببراءته ويعود إلى عمله ساقيا للملك، أن يتكلم عند الملك بما رأى وسمع وعلم من أمره؛ عسى أن ينصفه ممن ظلموه ويخرجه من السجن. ولكن الفتى الساقى نسى أن يفعل ما طلبه منه يوسف، فظل فى السجن بضع سنين، والبضع من ثلاث سنين إلى تسع، وأكثر ما يطلق على السبع، وعليه أكثر الفقهاء، غير أنهم يذهبون إلى أن السبع هى مدة سجن يوسف من أولها إلى آخرها، فى حين يذهب آخرون إلى القول أن السبع كانت بعد وصيته للساقى، وأنه قضى قبل هذه الوصية خمس سنين فيكون مجموع مكثه فى السجن اثنتى عشرة سنة.

وتتتابع الأحداث، ويرى الملك الرؤيا المعروفة، ويطلب من يفسرها له، وعندئذ يتذكر الساقى يوسف، ويعد الملك بأن يبعث به إلى السجن لكى يأتيه بتفسير للرؤيا التى أقضت مضجعه. ويذهب إلى السجن فيلتقى بيوسف ويقص عليه الرؤيا ويطلب منه تفسيرا لها، فيفعل، ويعود الساقى إلى الملك بما سمعه من يوسف، ولكن الملك يطلب منهم إحضاره لكى يسمع منه بنفسه ويتأكد من علمه وسلامة عقله ومستوى ذكائه. فلما ذهب رسول الملك إلى السجن والتقى بيوسف وأبلغه بما طلبه الملك، قال له: ارجع إلى الملك - قبل شخوصى إليه ووقوفى بين يديه - فاسأله عما يعلمه بشأن النسوة اللاتى قطعن أيديهن، وكأن

يوسف رجح أن الملك لا يعلم شيئا عن السبب الذى من أجله وضع فى السجن، وأراد أن يسأل عنه لكى يعرف أنه ليس مجرما سجن من أجل ذنب اقترفه، وإنما هو مظلوم.

ولا شك أن يوسف ـ عليه السلام ـ كان على حق، فالملك ـ شأنه فى ذلك شأن معظم الحكام فى الماضى وفى الحاضر ـ لم يكن يدرى شيئا عن يوسف، كما أنه لم يُبْدِ أى درجة من الاهتمام بأمره عندما عرض عليه الساقى أن يوفده إليه فى السجن، ولا بعد أن عاد بتأويل يوسف للرؤيا، ولا سأل عن السبب الذى من أجله أودع السجن. على الرغم من أن التأويل الذى عاد به الساقى من عند يوسف كان خطيرا؛ لأنه ينذر بكارثة قريبة مما كان يتوقع معه من الملك أن يستعلم عن هذا السجين العجيب الذى نجح فيما فشل فيه منجموه ومفسرو الأحلام التابعون له. فربما كان لإيداعه فى السجن علاقة بتفسيره للأحلام، كأن يكون دجالا أو محتالا أو غير ذلك!!

ونلاحظ أن يوسف لم يفرح لأنه سيغادر السجن ليقابل الملك، وإنما أراد أن يثبت براءته قبل ذلك؛ لتقديره الصائب لأهمية ذلك، حيث تختلف نظرة الملك إليه بحسب ما إذا كان مجرما أم بريئا ألقى به فى السجن ظلما، وفى هذا التصرف ما يدل على أن يوسف كان صبورا متأنيا، عزيز النفس حريصا على كرامته. ولو كان غير ذلك لكان اشترط لتفسير الرؤيا التى رآها الملك أن يفرج عنه أولا، أو لكان بادر إلى تلبية طلب الملك إحضاره إليه لكى يغادر السجن بسرعة، ثم بعد ذلك يسعى إلى إثبات براءته مما نسب إليه. وليس من شك فى أن تصرف يوسف على النحو الذى تصرف به يدل على ذكاء شديد وبعد نظر وحكمة؛ لأنه بهذا التصرف جعل الملك يُولِى الأمر اهتماما كبيرا، وذلك بخلاف ما إذا كان قد قبل الدعوة وذهب إليه، وفى أثناء وجوده فى حضرته عرض عليه قضيته، فإن الملك كان سيعتبر الأمر منتهيا بخروجه من السجن، وقد يطيب خاطره بكلمات أو بمكافأة، أو يظن أنه يريد أن يتقاضى مقابلا لتفسيره للحلم ـ هو براءته من التهمة التى أودع بسببها السجن ـ فما يكون من الملك إلا أن يقول له: أنت برىء دون أن يبحث فى التهمة المنسوبة إليه. ولكن رفضه للدعوة أثار فضول الملك، ولعله تساءل فى دهشة عن كنه هذا الشخص الذى تتاح له الفرصة

للخروج من السجن بعد أن طال مكثه فيه فيرفض إلا بعد أن يتم البحث فى السبب الذى من أجله أودع فى السجن. كذلك يظهر ذكاء يوسف الشديد ولباقته وكياسته فى التساؤل الذى طرحه، حيث لم يتهم النسوة بشىء، ولا ذكر امرأة العزيز، وإنما أشار إلى واقعة غريبة هى قطع النسوة لأيديهن، فهو عمل يثير الدهشة ويدفع إلى البحث والتحرى لمعرفة لماذا فعلن ذلك، وبالتالى فإن البحث سيقود إلى كل ما حدث، وإلى الفاعلين والمساهمين، فتظهر امرأة العزيز وزوجها والشاهد من أهلها فضلا عن النسوة. ولابد أن الذى جعل يوسف ـ عليه السلام ـ يتصرف على هذا النحو هو إدراكه لما فى ذكر امرأة العزيز وما فعلته من حساسية قد تجعل الملك يرفض إجراء التحقيق حتى لايفتضح أمر أعوانه وزوجاتهم، وبالتالى أمر الفساد المستشرى فى الطبقة العليا التى تضم الأسرة الحاكمة وأعوان الملك. وقد يلجأ الملك إلى اتخاذ إجراءات يهدف بها إلى التمويه والتغطية على ما حدث شأن الحكام الفاسدين أو الضالعين فى الفساد غالبا.

كذلك قد يكون يوسف خشى أن ينحاز الملك إلى العزيز وامرأته والنسوة ضده؛ لأنه عبد عبرانى لايجوز له أن يتهم سادته. وهو موقف كثيرا مايتخذه السادة من الخدم، بل ويتخذه أعضاء بعض الشرائح الاجتماعية والفئات الوظيفية والمهنية ضد من يختصم زميلا لهم، ويبدو ذلك أوضح ما يكون بالنسبة لرجال الشرطة الذين ما إن يشاهدون زميلا لهم يضرب مواطنا حتى يبادروا إلى الانضمام إليه فى ضرب المواطن دون أن يسألوا عن السبب.

وحدث ما أراده يوسف، فقد تحرى الملك ـ على ما يبدو ـ عن أمر النسوة اللاتى قطعن أيديهن ولم يكن قد سمع بالحادث لانشغاله بشئون مملكته، أو بغيرها من الأمور التى يدخل فيها هذا النوع من السلوك المشين، ولم لا والناس على دين ملوكهم؟ فإن كانوا فاسدين فسد الناس، وإن كانوا صالحين صلح الناس. وما أصدق الحكمة الصينية التى تقول: إن السمكة تفسد من رأسها، لا من ذيلها، وإن السلم يمسح من أعلاه لا من أسفله.

ولما تأكد الملك من أن هناك نسوة كن قد قطعن أيديهن، وأن ذلك حدث

بسبب رؤيتهن ليوسف الذى كانت امرأة العزيز قد راودته عن نفسه أولا ثم راودنه هن أيضا بعد أن رأينه، دعاهن إلى القصر ومعهن امرأة العزيز، حيث بدأ بسؤالهن قائلا: ما خطبكن الذى حملكن على مراودته عن نفسه؟ هل كان عن ميل منه إليكن؟ ومغازلة لكن قبلها؟ هل رأيتن منه مواتاة واستجابة بعدها؟ أم ماذا كان سبب إلقائه فى السجن مع المجرمين؟.

أخيرا بدأت محاكمة النسوة، وكان قد مضى زمن طويل، سبع سنين كاملة، وقيل اثنتا عشرة سنة، قضاها يوسف فى السجن، وأمضتها النسوة فى تصريف شئون حياتهن، سواء كانت شخصية أو كانت أسرية، وخضن تجارب كثيرة من هذا النوع ومن غيره، واكتسبن خبرة بالحياة ساهمت فى إنضاجهن بما استخرجنه منها من عظات وما استخلصنه من عبر، فإذا أضفنا إلى كل ذلك تقدمهن فى السن الذى أبعدهن عن الطيش والرعونة والخفة واللامبالاة، واحتمال أن يكون أزواجهن وذوو قرباهن ممن يعملون فى القصر قد أحطنهن علما بما يكنه الملك ليوسف من إعجاب شديد لن يقلل منه أن يكون ما سبق لهن أن اتهمنه به صحيحا؛ لأن مثل هذه الأفعال ليست مما يشين الرجال فى عرف الملك وعرف المحيطين به، وبالتالى فإن يوسف قد يتقلد منصبا رفيعا يجعله قريبا من الملك مسموع الكلمة لديه، بحيث يصبح بمقدوره أن ينتقم لنفسه منهن ومنهم، لتبين لنا أن ما أَجَبْنَ به على سؤال الملك لم يكن غريبا أو غير متوقع، فقد اعترفن بأنهن لم يعلمن عن يوسف أدنى شىء يشينه أو يعيبه ولو كان شيئا صغيرا أو تافها، وهى إجابة ذكية تدل على مكرهن الشديد وكيدهن لصاحبتهن امرأة العزيز. ذلك أنه إذا كان يوسف كذلك فما هى المشكلة إذًا؟!. وكانت المرأة موجودة، فلما سمعت النسوة يشهدن ليوسف أدركت بذكائها الشديد أنهن ينصبن لها شركا، فهى إن نفت ما حدث فستناقض إجابتها إجابتهن، وعندئذ يستمر التحقيق والمواجهة ليثبت فى النهاية كذبها أمام الملك؛ لذلك بادرت إلى الاعتراف على نفسها قائلة: أنا راودته عن نفسه، وهو لم يراودنى كما سبق وادعيت، وهو صادق فيما اتهمنى به من قبل. وبذلك ثبتت براءة يوسف - عليه السلام - ونصاعة صفحته، فغادر السجن مرفوع الرأس ليعهد إليه الملك بمنصب الوزارة الكبرى.

خلاصة:

تكشف لنا هذه الجريمة عن أمور كثيرة، بعضها سبق الجريمة ومهد لها، والبعض الآخر كان مصاحبا لها، والبعض الثالث وقع بعد ارتكابها. وكلها مجتمعة تفيد أن لا شيء يحدث فى هذه الدنيا بدون إرادة الله ومشيئته، فضلا عن علمه، وأن الجريمة ـ وإن طال الوقت ـ لابد أن ينكشف أمرها ويعرف صاحبها، وأن الله سبحانه لابد أن ينصف المظلوم آخر الأمر.

كذلك فإن الوقوع ضحية لجريمة ما هو نوع من الابتلاء يختبر به الله الإنسان ليرى إن كان سيصبر ويحتسب أم سيضيق صدره ويكفر احتجاجا على ما ابتلاه به. ولقد رأينا ما فعله يوسف ـ عليه السلام ـ ليس مع العزيز وامرأته فقط، بل ومع إخوته الذين سبق أن أساءوا إليه وأرادوا له الهلاك. وكيف عفا وصفح عن الجميع بعد أن نصره الله عليهم.

أما بالنسبة لهذه الجريمة فلعلنا لاحظنا ما يلى:

أولا ـ فيما يتعلق بالعوامل التى دفعت امرأة العزيز إلى ارتكابها فإنها ـ على خلاف الجريمتين السابقتين ـ عوامل اجتماعية خارجية، وأخرى شخصية داخلية. أما العوامل الاجتماعية فتتمثل فى التنشئة الاجتماعية لامرأة العزيز، حيث نشأت وترعرعت فى مجتمع فاسد، أو على الأقل الطبقة المترفة فيه، وهى طبقة الحكام وأعوانهم، لاتقيم وزنا للشرف أو للأمانة، فشبت مدللة مفتونة بنفسها، وزادها سوءاً زواجها برجل يكبرها كثيرا. ومثله لا يجرؤ على أن يرفض طلبا لمن كانت فى مثل سنها، ولا أن يوجه لها أمرا، أو يفرض عليها نهيا حتى لا تغضب عليه، أو تطلب منه أن يطلقها لأسباب لا يحب أن يعرفها الناس، كما أنه قد يخشى أن تتجه إلى غيره بعواطفها، وهو ما حدث على أية حال، فحاولت أن تغرر بخادمها الشاب الجميل فتخون زوجها معه.

ثانيا ـ كذلك بيّن لنا القرآن الحال الذى كانت عليه الطبقة العليا فى المجتمع، فى ذلك الوقت، أو ما يسمى بالصفوة، وهم الذين يضمون أهل الحكم

وأعوانهم من كبار رجال الدين والأثرياء وغيرهم. الذين شغلتهم مطامعهم وملذاتهم عن أسرهم فانحرفت زوجاتهم واتخذن العشاق دون خوف أو حياء، يدل على ذلك أن النسوة من هذه الطبقة لما علمن بما كان من زوجة العزيز مع فتاها يوسف لم ينكرن عليها مراودتها له عن نفسه، وإنما أنكرن عليها أنها راودته وهو عبدها وخادمها، ولذلك أرادت أن يشاهدنه حتى يلتمسن لها العذر فيما فعلته، وقد كان، فقد أذهلهن جماله فرغبن فيه وراودنه هن أيضا عن نفسه دون حياء!

كذلك فإن الملك لما سأل النسوة ومعهن امرأة العزيز عما حدث ليوسف واعترفن أمامه بأنهن راودنه عن نفسه لم يبد أى اهتمام بذلك، على الرغم من كثرة عدد النسوة ووجود امرأة العزيز بينهن، بل على رأسهن، مما يدل على أن ذلك كان أمرا عاديا، وإلا لأثار غضب الملك عليهن وعلى أزواجهن أيضا!

ثالثا ـ على الرغم من أن ما حدث ليوسف مع امرأة العزيز ثم مع النسوة ـ ومن قبل ذلك ما حدث له من إخوته حين ألقوا به فى الجب ـ هو مما قدره له الله تعالى، فإن القرآن الكريم اهتم بأن يبين لنا الأسلوب الأمثل الذى يجب على الإنسان الذى يتعرض للظلم أن يتبعه من أجل أن يثبت براءته مما اتهم به. ولقد رأينا كيف أن يوسف ـ عليه السلام ـ لم يبعث إلى الملك بشكواه مما حدث له من امرأة العزيز والنسوة ثم من العزيز نفسه لتقديره الصائب أن اتهامه لهؤلاء ـ وهو العبد الأجنبى ـ قد يغضب الملك، وبالتالى يغضب منه، أو على الأقل يكتفى بتطييب خاطره دون أن يبحث في الأمر ليثبت براءته، ففضَّل يوسف أن يثير فضوله بأن يطلب من رسوله أن يسأله ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾[1]. وهكذا ظهرت الحقيقة لما بحث الملك عن السبب الذى جعل النسوة يقطعن أيديهن واعترفن أمام الملك بما حدث متأثرات بموقف يوسف منهن وحرصه على عدم الإساءة إليهن. وكأن القرآن يعلمنا آداب الشكوى والمخاصمة أمام القضاء.

(١) سورة يوسف، من الآية: ٥٠

وأخيرا، فإن القرآن الكريم ـ فى هذه الجريمة وفى التى سبقتها ـ يعلمنا أنه إذا نصرنا الله على من أساءوا إلينا وحاولوا أن يلحقوا بنا أضرارا من أى نوع، وجب علينا أن نصفح عنهم ونسامحهم اكتفاء بما أصابهم به الله من هزيمة وخزى، بل وأن نحسن إليهم لعلهم يراجعون أنفسهم فيخجلون مما فعلوا، أو على الأقل لا يحاولون الإساءة إلينا من جديد. وفى القصة الكثير من العظات والعبر التى لا تخفى على ذوى الأفهام.

* * *

الفصل الرابع

مجتمع مجرم

تمهيد

رأينا ـ فى الفصول الثلاثة السابقة ـ كيف أن المساهمة فى الجريمة تطورت من الصورة التى يرتكب فيها فرد واحد الجريمة، إلى الصورة التى يرتكبها فيها عشرة أفراد هم إخوة يوسف الذين اتفقوا ونفذوا جريمتهم، إلى الصورة الثالثة التى تواطأت فيها جماعة بكاملها ـ هى طبقة الصفوة ـ على ارتكاب جريمة سجن يوسف ـ عليه السلام ـ لأنه رفض أن يزنى بامرأة سيده العزيز ثم بالنسوة اللاتى دعتهن المرأة اللعوب ليشاهدنه، حتى يلتمسن لها العذر فيما أقدمت عليه من مراودته عن نفسه فما كان منهن إلا أن راودنه هن أيضا عن نفسه!

وفى هذا الفصل نعرض لجريمة فريدة فى نوعها؛ لأنها جريمة مجتمع بأكمله، رضى أفراده جميعا أن يترددوا فى هوة سحيقة من الانحطاط الأخلاقى، لم يسبق لها مثيل، وذلك بارتكاب الفاحشة فيما بينهم، لا فرق بين الذكور والإناث، فهؤلاء يمارسن السحاق فيما بينهن، وأولئك ـ أى الذكور ـ يمارسون اللواط دون خجل أو حياء، وكأن ذلك من الأمور الطبيعية، وهو سلوك لا تعرفه الحيوانات ذاتها مما يجعلنا نسىء إليها بوصفنا لهذا السلوك بالبهيمية أو الحيوانية.

ولقد كان الناس فى كل الدنيا يتساءلون ـ إلى عهد قريب ـ عن الكيفية التى تردى فيها مجتمع قوم لوط ـ عليه السلام ـ بأكمله فى هوة الشذوذ والانحطاط، وكأنهم تعرضوا لوباء فتاك لم يترك منهم أحدا دون أن يصيبه، ولم يصدق كثير من المهتمين بظاهرة الجريمة والانحراف أن تكون عوامل اجتماعية واقتصادية هى

التى أدت إلى ما حدث، إلى أن أخذ هذا الضرب من الشذوذ والجريمة يظهر من جديد وبشكل متزايد فى المجتمعات الغربية، فلم يعد الشواذ يتخفون خجلا وعارا، بل أصبحوا يجاهرون بشذوذهم، ويدعون بلا كلل أو ملل إلى وجوب الاعتراف لهم بحقوقهم، ونظموا المظاهرات الحاشدة تطوف بالشوارع والأحياء، وتتسكع أمام مقار الأحزاب والمؤسسات السياسية محلية ودولية، وكونوا الجمعيات، وأقاموا الأندية، وأصدروا الصحف والمجلات، ونشروا الكتب، وأنتجوا الأفلام التى تتناول أوضاعهم وتبرر شذوذهم، بل وتروج له وتغرى بممارسته. ليس ذلك وحسب، بل إنهم فرضوا أنفسهم على المؤتمرات الدولية وما ينبثق عنها من لجان وورش عمل، يطالبون بالاعتراف لهم بالحق فى الزواج من بعضهم، رجل من رجل وامرأة بامرأة، وهو ما سبق لبعض الكنائس أن اعترفت لهم به. ومن المؤسف حقا أن تستجيب لهم حكومات غربية كثيرة، على رأسها الولايات المتحدة، فتجرى تعديلا فى مفهوم الأسرة الذى وضعته الأمم المتحدة، وعرفت فيه الأسرة بأنها رجل وامرأة وماقد ينجبانه من أولاد، لتجعله أى شخصين يقيمان معا بغض النظر عن اختلاف نوعهما، وما إذا كانا رجلا وامرأة أم رجلا ورجلا أم امرأة وامرأة. ولقد حاولت هذه الدولة أن تفرض على الدول التى شاركت فى المؤتمر الدولى للسكان الذى عقد اجتماعاته فى القاهرة عام ١٩٩٥م هذا التعريف المشين لولا ما قامت به الدول الإسلامية من التصدى للجهود التى بذلها ممثلو الولايات المتحدة من أجل إقرار مفهومهم الجديد للأسرة، فباءت محاولاتهم بالفشل الذريع، ولكنهم لم ييأسوا، فقد كرروا المحاولة فى العام التالى، فى المؤتمر الدولى للمرأة الذى عقد فى بكين، حيث تصدت لهم لا الدول الإسلامية وحسب، بل والدولة المضيفة نفسها - الصين - وغيرها من الدول. وعلى الرغم من أنهم واجهوا نفس الفشل الذى سبق أن واجهوه فى القاهرة، فما زالوا مصرين على فرض هذا التعريف على العالم!

وهكذا لم يعد هناك ما يدعو إلى الدهشة أو يثير العجب بشأن تفشى الشذوذ الجنسى، سواء أكان لواطا أم سحاقا، وشموله لمجتمع بأسره مثل مجتمع قوم

لوط، فها هى أكبر دولة فى العالم تريد أن تجعل من المجتمع الإنسانى بأسره مجتمعا شاذا. ولاندرى لمصلحة من تفعل ذلك؟! اللهم إلا إذا كانت قد أخذت على عاتقها القيام بدور الشيطان فى إفساد الخلائق، وفتح باب المعصية أمامهم على مصراعيه حبا فى إبليس وإخلاصا لتعليماته ومبادئه؟!

لعلنا نكون بذلك قد بينا ـ فى عجالة ـ وضع الشذوذ الجنسى فى عالمنا المعاصر، وما قد ينتهى إليه أمره، فإما أن ينجح أنصاره فى نشره فى العالم، أو ينجح العالم فى التصدى لهم وله.

وقصة جريمة قوم لوط فيها الرد على من قد يعن له أن يسأل: وماذا إذا تفشى الشذوذ الجنسى من لواط وسحاق؟! ولم يضيفوا إليه عبادة الشيطان والشرك بالله والنفاق وكل صور الفساد التى كان بعضها كافيا لأن ينزل الله تعالى عقابه الشديد بمقترفيها، والتى اجتمعت كلها فى المجتمعات الحديثة بدرجات تتفاوت فى الخطورة، بلغت أقصاها فى الغرب، حامى حمى الشذوذ والزنا والبغاء والميسر والخمر والمخدرات وانتهاك الأطفال، ورافع لواء الانحلال والفساد، ثم تتدرج فى الانخفاض فى المجتمعات الأخرى التى يرى بعض حكامها ومترفوها أن ذلك لا يصح حتى لا تعد شعوبهم من المتخلفين عن ركب الحضارة الغربية التى يغضبون بشدة إذا ما وصفت بحضارة الشيطان، وأن زعيمتها الكبرى هى الشيطان نفسه. ولاندرى ما الذى تركته هذه الحضارة للشيطان نفسه بعد كل هذا الذى ذكرناه؟!

صورة المجتمع المجرم فى القرآن الكريم:

قدم القرآن الكريم صورة واضحة جدا ودقيقة للغاية للمجتمع المجرم ـ مجتمع قوم لوط ـ على الرغم من العدد القليل للآيات التى اشتملت على قصة هذا المجتمع، بحيث إنه لو كتبت حكايته بكل تفاصيلها فى مجلد، أو فى كتاب، فإن ملخصها لن يقل بحال، وكذلك لن يزيد عما ورد بالقرآن. وعلى خلاف قصة يوسف ـ عليه السلام ـ التى جاءت فى سورة واحدة، هى السورة التى

تحمل هذا الاسم، فإن قصة قوم لوط وردت فى سبع سور هى: الأعراف، وهود، والحجر، والشعراء، والنمل، والعنكبوت، والقمر، فى آيات بلغ مجموعها ثلاثة وسبعين آية، أكبرها ما ورد فى سورة الحجر إحدى وعشرون آية، تليها سورة الشعراء، ست عشرة آية، ثم سورة هود، إحدى عشرة آية، تليها العنكبوت ثمانى آيات، فالقمر سبع آيات، ثم الأعراف والنمل، وبكل منهما خمس آيات. وفى كل سورة من السور السبع إضافة جديدة للقصة تلقى مزيدا من الضوء على المجتمع المجرم، وعلى العقاب الذى أنزله الله تعالى به. وليس من شك فى أن ذكر الجريمة سبع مرات يدل على خطورتها الشديدة، وأن الله تعالى يريد أن يذكر المؤمنين بها حتى يتجنبوها، ويعملوا دائما من أجل منع حدوثها، خاصة وأن العوامل التى تتفاعل وتؤدى إلى وقوعها موجودة، دائمة.

وفيما يلى نضع الآيات التى تناولت قصة هذا المجتمع المجرم تحت نظر القارئ بحسب ترتيب السور التى وردت بها فى القرآن وذلك لسببين، الأول: أن يرى بنفسه كيف أنها تكمل بعضها بعضا فى اتساق شديد. والسبب الثانى: لكى يعود إليها أثناء قراءته لتحليلنا العلمى لمضمونها:

١ - ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[1].

٢ - ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا

(١) الأعراف: ٨٠ - ٨٤

وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾[1].

٣ ـ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

---

(١) هود: ٧٤ ـ ٨٣

(٢) الحجر: ٥٧ ـ ٧٧

٤ - ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٦٠ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٦١ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٦٢ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٦٣ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٤ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝١٦٦ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ۝١٦٧ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ۝١٦٨ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ۝١٦٩ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝١٧٠ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٧١ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝١٧٢ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝١٧٣ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

٥ - ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٥٧ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾(٢).

٦ - ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٩ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٣٠ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ۝٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ

(١) الشعراء: ١٦٠ ـ ١٧٤.

(٢) النمل: ٥٤ ـ ٥٨.

﴿٣٢ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٣٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[1].

٧ - ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ٣٤ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ٣٥ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ٣٦ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ٣٨ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[2].

وهكذا رسم لنا القرآن صورة واضحة لهؤلاء القوم الذين نسبهم إلى نبيه لوط ـ عليه السلام ـ فبين لنا كيف انحدروا إلى الهوة السحيقة للفاحشة، وكيف كانوا يمارسونها، واعوجاج منطقهم، وفساد تفكيرهم فى وصفهم للوط وأهله، إلى غير ذلك من التفاصيل التى سنتناولها فى موضعها من هذا الفصل. غير أن هناك تفاصيل أخرى ثانوية لم ترد فى القصة القرآنية، والسبب فى ذلك يرجع إلى أن القرآن الكريم ـ جريا على المنهج الذى التزمه فى سرده للأحداث ـ لا يتعرض للتفاصيل التى ليس لها علاقة بمغزى الحدث، ولا تنال من العبرة أو العظة التى أراد الله للناس أن يستخلصوها منه، ولكن المفسرين وغيرهم لم يكتفوا بذلك، وإنما قاموا ـ مدفوعين بالفضول العلمى ـ بالتوسع فى التفسير. غير أنه بالنظر إلى أنه لم يكن تحت أيديهم مادة كافية تعينهم على التوسع وإضافة تفاصيل غلب على ظنهم أنها تفيد الناس، فقد لجأوا إلى الإسرائيليات يستمدون منها ما هم فى حاجة إليه ظنا منهم أنها صالحة فى معظمها، بينما الحقيقة خلاف ذلك. فجاءت إضافاتهم مليئة بالأخطاء والتناقضات، على تفاوت بينهم فى حجم وخطورة هذه الأخطاء. الأمر الذى أوقع كثيرا من الناس ـ وبخاصة من اعتادوا إعمال النظر فيما يقرأونه، وتمحيصه ونقده ـ فى حيرة لم يجدوا منها مخرجا.

---

(١) العنكبوت: ٢٨ ـ ٣٥.

(٢) القمر: ٣٣ ـ ٣٩.

وبالنظر إلى ما أصبح للتفاصيل الإضافية ـ فى كتب التفسير وغيرها ـ من أهمية لدى الناس لأنها ترضى فضولهم. وحيث إن التقدم العلمى فى علوم كثيرة كالتاريخ، والديانات المقارنة، والأنثروبولوجيا، والآثار، وغيرها وفر معلومات كثيرة ـ فضلا عن التقدم الكبير فى مناهج البحث العلمى ـ فإنه أصبح ضروريا مراجعة ما ورد بكتب التفسير فى ضوء هذه التطورات، وتصحيح ما بها من أخطاء وإن بدت بسيطة ـ فى نظر البعض، أو لأنها حسب ظنهم لا تمس بجوهر العقيدة أو تنال من سلامة بنيان الدين واتساقه ـ إلا أن الحقيقة خلاف ذلك تماما. وهو ما ستثبته لنا هذه الدراسة، وبالذات فيما يختص بالأمور الخمسة الآتية، وهى: تحديد من هو المجتمع المجرم فى هذه القصة، وأين وجد، وعلاقة لوط به، والمدة التى لبثها فيه، واللغة التى تحدث بها إليه.

ولقد أوحت لى دراستى لكثير من قصص القرآن بوجود أهداف أخرى لهذا القصص غير العظة والعبرة وتسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أثناء الفترة الحرجة التى مرت بها الدعوة والتى تعرض فيها لاضطهاد المشركين وظلمهم وعنتهم. من بين هذه الأهداف تحدى الله ـ سبحانه وتعالى ـ للمعاندين والمكابرين من الكفرة والمشركين والمنافقين الذى يتهمون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بوضع القرآن، أو أنه افتراه وادعى أن الله تعالى أوحى به إليه فأراد الله بإيراد هذه القصص فى القرآن أن يثبت لهم أن النبى برئ من تهمة وضع القرآن؛ لأنه لم يكن لديه علم بهذا القصص. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن ما أخفاه من تفاصيل هذا القصص لم يكن فى جميع الأحوال بسبب عدم أهميتها لتحقيق الأهداف السالفة الذكر ـ وهى العبرة والعظة والتسلية ـ وإنما أيضا لتكون دليلا على كذب ادعاءاتهم، عندما تظهر فى الوقت المناسب، مثلها مثل آيات الله التى وعد بأن يريها للناس حتى يتبين لهم أنه الحق، وذلك فى قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1]

قال القرطبى تفسيرا لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾[1].

أى: علامات وحدانيتنا وقدرتنا «فى الآفاق» يعنى خراب منازل الأمم

(١) فصلت: ٥٣.

الحالية. وقال قتادة والضحاك: «فى الآفاق» وقائع الله فى الأمم[1]؛ لذلك فإن القصص القرآنى يدخل فى نطاق علم التاريخ؛ لأنه يشتمل على نبأ الأمم السابقة. وفى ذلك يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[2] ومن هذا النبأ قصص الله الحق عن هذه الأمم[3].

كذلك فإن عدم ذكر أسماء الأماكن والأشخاص فى كثير من الأحيان يرجع إلى اختلاف الناس بشأنها، وذلك إما لأنها قد يكون لها أكثر من اسم فى الوقت نفسه، وإما إلى أن أسماءها قد تختلف باختلاف الأزمنة، لو أن القرآن ذكر اسما من أسمائها المتعددة لاختلف الناس حول أيها هو الصحيح؟ ودخلوا فى جدل عقيم قد لا ينتهى إلى شىء، وكذلك إذا ذكر اسما كان يطلق عليها فى زمن معين فإنهم سيجادلون بشأن بداية هذا الزمن وبشأن نهايته، وما إذا كان الاسم أو الصفة قد أطلقت بين البداية والنهاية أو قبل البداية أو بعد النهاية، إلى آخر ما برع فيه أساطين الجدل وعتاة المكابرين فى كل زمان ومكان.

أولا - من هو المجتمع المجرم؟

لم يرد فى القرآن الكريم ما يدل على اسم هذا المجتمع، وهو الاسم الذى إما أن يستمد من اسم الأرض أو الإقليم الذى يقيم عليه، كما هو الحال بالنسبة لمصر التى أخذت اسمها من لون تربتها الحمراء[4]، ثم حمله سكانها عبر العصور، أو من اسم أو صفة لجماعة أو لشعب قديم سبق له أن أقام فى هذا الإقليم، كما هو الحال بالنسبة للسودان الذى أطلق عليه العرب هذا الاسم بسبب لون بشرة سكانه الشديدة السمرة. أو أن ينتسبوا إلى جد قديم مثل عاد أو ثمود

(١) القرطبى، المرجع السابق، ج ١٥ ص ٣٧٤.
(٢) التوبة: ٧٠.
(٣) احمد موسى سالم (قصص القرآن فى مواجهة أدب الرواية والمسرح) ص ١٦٣.
(٤) احمد المجدوب (الوهم والحقيقة فى الفكر المصرى الحديث).

أو تُبَّع وغيرهم، أو الشام التى أطلق العرب عليها هذا لأن موقعها إلى اليسار (أى الشمال) بخلاف المنطقة الواقعة إلى اليمين (أى الجنوب) وذلك بالنسبة للحجاز[1]. وإنما نسبهم الله إلى لوط ـ عليه السلام ـ فى قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾[2].

وبالتالى فإنهم أصبحوا يعرفون بـ (قوم لوط).

وعلى ذلك فليس هناك ما يمنع من البحث عن مكان الإقليم الذى كانوا يوجدون به، والمدينة أو القرية التى كانوا يقيمون بها. وهو ما فعله كثير من المفسرين الذين وجدوا ضالتهم فى التوراة والإسرائيليات، فنقلوه إلى تفاسيرهم وكتبهم ـ فى الغالب ـ دون إعمال نظر أو تمحيص، مما جعله مجرد تكرار لما قاله اليهود بكل ما فيه من أخطاء، بعضها يخالف القرآن الكريم؛ مثل قول بعضهم: إن أبا إبراهيم كان اسمه (تارح) بينما أن اسمه الذى ورد بالقرآن هو (آزر).

ثانيا ـ الإقليم الذى كانت توجد به مدينة قوم لوط:

أما موقع قريتهم أو مدينتهم فقد حدده الله تعالى فى سورة الأنبياء حيث قال: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

قال القرطبى: أرض الشام، وقيل لها مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها، ولأنها معادن الأنبياء. والبركة: ثبوت الخير.

وقال ابن عباس: الأرض المباركة مكة، وقيل: بيت المقدس؛ لأنها منها بعث الله أكثر الأنبياء. وقيل: الأرض المباركة مصر[4]. وفى رأينا أنه ليس ما يمنع من شمول الصفة لهذه الأقاليم الثلاثة، فكلها ظهر فيها وعاش أنبياء ورسل. غير أن

(١) فيليب حتى (تاريخ سورية ولبنان) ج ١ ص ٦٣.
(٢) الأعراف: ٨٠.
(٣) الأنبياء: ٧١.
(٤) القرطبى، المرجع السابق، ج ١١ ص ٣٥.

المقصود بالأرض التى بارك الله فيها للعالمين هنا هو ما أصبح يعرف بالشام؛ لأن الثابت تاريخيا أن إبراهيم ولوطا ـ عليهما السلام ـ هاجرا إليها، أما سفرهما إلى مصر فكان هربا من المجاعة التى حدثت فى الشام فى ذلك الوقت، وما لبثا أن عادا بعد أن انتهت المجاعة. وبالنسبة لمكة فإن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يقم بها، وإنما كان يتردد عليها ليزور ابنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ ثم يعود إلى الشام.

وكان اسم الشام يطلق على الإقليم الذى يضم سوريا ولبنان وفلسطين التى كان اسمها فى الوقت الذى وقعت فيه هذه الجريمة كنعان أو أرض الكنعانيين، وهوشعب سامى (عربى) انتقل إلى هذا الإقليم ليعيش فيه. أما موطنه السابق فهو الجزيرة العربية، وكان انتقاله إلى الشام فى واحدة من الهجرات التى كانت تحدث بين الحين والحين. وكان شعب آخر من البابليين قد سبقه إلى الإقامة فى هذا الإقليم[١]. غير أن اسما آخر ظل يطلق لمدة طويلة على هذا الإقليم وغيره من الأقاليم التى تجاوره هو سورية. ولم يعرف الإقليم باسم فلسطين التى أصلها «فلسطيا» إلا بعد القرن الثالث عشر قبل الميلاد، لما احتل أحد الشعوب الهندو ـ أوربية، الذى يحمل هذا الاسم، قادما من الجزر اليونانية ـ المنطقة الساحلية ـ وهى ذات الفترة تقريبا التى كان يحاول بنو إسرائيل احتلال المنطقة الداخلية بعد خروجهم من مصر بقيادة موسى ـ عليه السلام ـ ومنذ ذلك الحين انتشرت هذه التسمية ـ أى فلسطين ـ وصارت تشمل المنطقة كلها حتى البادية[٢].

فلعلنا عرفنا لماذا لم يذكر القرآن اسم الإقليم الذى انتقل إليه إبراهيم ولوط بعد تركهما لموطنهما، وهل يقول إنه كنعان أم الشام أم سورية أم فلسطين؟ طبعا كان الأصح أن يشير إليه بصفته، وهى: الأرض التى بارك فيها للعالمين.

---

(١) محمد عزة دروزة (تاريخ موجات الجنس العربى، ودولها ومآثرها، فى بلاد الشام: سورية ولبنان والأردن وفلسطين) ص ٣٩.

(٢) فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٦٢.

وتحديد موقع هذه القرية على هذا النحو يظهر مدى فداحة الجرم الذى ارتكبه هؤلاء الناس من ناحية، ويظهر - من ناحية أخرى - أن لا شأن للأرض - من حيث كونها مباركة أم لا - بسلوك الناس، حتى لا يتصور أحد أن وجود المشركين والفاسدين والمنحرفين على الأرض المباركة يتناقض مع كونها كذلك. وكثيرا مانرى بعض الناس ونسمعهم وهم يتساءلون فى دهشة: كيف يمكن أن تكون الأرض مباركة وطاهرة ويقيم فيها مجرمون وفاسدون؟ وكأنهم يشككون فى بركة هذه الأرض. وينسى هؤلاء الناس أن المجرمين وجدوا فى مكة قبل أن يبعث الرسول، وبعد أن بعث، فكان منهم المشركون والمنافقون والمنحرفون من كل نوع، وذلك للسبب الذى ذكرناه، وهو أن الأرض هى الأرض، سواء أكان الله قد باركها أم لا، وأنه من الخطأ أن يتصور البعض أن الأرض التى بارك الله فيها هى عبارة عن مكان يشبه الغرفة المعقمة التى تخلو من كل الجراثيم وأسباب التلوث. فمثلها لا يكون على هذا الكوكب ولكن فى الجنة.

وها نحن نرى التاريخ وهو يعيد نفسه فيقوم اليهود الصهاينة بتدنيس الأرض التى بارك الله فيها، بل وتدنيس المقدسات الإسلامية بكل ما هو فاحش ومنكر من الأفعال. وهم الذين اغتصبوا فلسطين من العرب فى ظروف مأساوية؛ حيث انضمت فئة من هؤلاء إلى أعداء الإسلام من إنجليز وفرنسيين - فى الحرب العالمية الأولى - ضد دولة الخلافة العثمانية بدافع من الحقد والحسد لهذه الدولة، والطمع فى الحكم ولو فى حماية الحراب الصليبية[1].

وبالفعل فقد حصلوا على ما يريدون فأصبحوا حكاما ورؤساء وملوكًا رغم أنف شعوبهم التى كانت قد خدعت فيهم، وفى حماية أعداء الإسلام الذى لا يدعون فرصة تمر دون أن يستغلوها لإذلال المسلمين وانتهاك حرمة مقدساتهم. وها هى إسرائيل تسعى جاهدة للاستيلاء على القدس لتكون عاصمة أبدية لما تسميه إسرائيل الكبرى التى تبين لهم أن الظروف الحالية التى يمر بها المسلمون والعرب هى أفضل ما يمكن أن يتاح لهم لتحقيق هذا الحلم أو الوعد الذى

(١) أحمد المجدوب (الوهم والحقيقة فى الفكر المصرى الحديث).

زعموا أن الله تعالى أعطاه لإبراهيم ـ عليه السلام ـ بعد أن انتقل إلى كنعان قادما من أور الكلدانيين.

رأينا كيف نسب الله تعالى هؤلاء القوم إلى لوط فقال: (قوم لوط). كما رأينا كيف حدد الإقليم الذى كانوا يقيمون فيه بأنه الأرض التى بارك فيها، وهى الأرض التى أصبحت تعرف باسم فلسطين ولازالت. غير أن القرآن الكريم لم يذكر اسم القرية أو المدينة التى كانوا يقيمون بها، أوهكذا يبدو لنا فى الظاهر، بينما أن الحقيقة خلاف ذلك، حيث إن بعض المعلومات التى وردت بالآيات التى تناولت قصة هذه الجريمة النكراء أفادتنا فى تحديد موقع القرية التى كان يقيم بها هؤلاء الناس، والذى يكاد يكون هو موقع قرية (سدوم) التى ورد اسمها بالتوراة على أنها هى قرية هؤلاء الشواذ المجرمين. وواضح من المنهج القرآنى ان اسم القرية ليس بذى أهمية بالنسبة لبعض الأهداف التى من أجلها أورد الله تعالى هذه القصة وغيرها فى القرآن الكريم، وهى استخلاص العظة والعبرة من أحداثها، وتسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكنه ـ أى اسم القرية ـ يمثل بخفائه تحديا للمشركين وللمكابرين والمعاندين لما أنزله الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثالثا ـ مدينة قوم لوط:

يقول القرطبى:[1] إن الله بعث لوطا إلى أمة تسمى سدوم، فهو قد نسبها إلى المدينة أو القرية التى كانت تسمى بهذا الاسم. وهذا ما قاله ابن كثير[2]: «بعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله ـ عز وجل ـ ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش».
وإذا كان كثير من المفسرين الذين قالوا إن مدينة قوم لوط كان اسمها سدوم لم يحددوا مكانها فإن الشيخ محمد رشيد رضا[3] لم يعترف بأن اسم مدينة قوم لوط

---

(١) المرجع السابق، ج ٧ص ٢٤٣.
(٢) المرجع السابق، ج٣ ص ٤٤١.
(٣) المرجع السابق، ج ٨ ص ٤٥٢.

كان سدوم فحسب، بل ومضى يصف المنطقة التى كانت تقع بها، وما كان يوجد بجوارها من مدن، فقال: «وكان فى ذلك المكان - الذى كان يسمى «عمق السديم» وتقول عنه التوراة: «هو بحر الملح» ويقع بالقرب من البحر الميت، الذى سمى بحر لوط أيضا - القرى أو المدن الخمس: سدوم، وعمورة، وأدمة، وصبوبيم، وبالع التى سميت بعد ذلك صوغر بسبب صغرها، فسكن لوط فى عاصمتها «سدوم» التى قيل إنها هى المدينة التى قصدها القرآن بقوله عن أهلها: إنهم كانوا يعملون الخبائث. وكانت «عمورة» تلى سدوم فى الكبر وفى الفساد.

ولكن هناك من رأى أن سدوم لم تكن حيث ذكر رشيد رضا، ومن قبله التوراة، وأنها كانت توجد فى مكان آخر، فقد ذكر ياقوت الحموى[١] أن الميدانى ذكر فى (كتاب الأمثال) أن سدوم هى سرمين، بلدة من أعمال حلب المعروفة عامرة عندهم. وربما يرجع الخلط بين سدوم وسرمين إلى أن هذه الأخيرة ظهرت فيها بعض أفعال الفاحشة فكان قاضيها - الذى قيل عنه إنه كان معروفا بالجور - يحكم على مرتكبى الفاحشة بغرامة مقدارها أربعة دراهم!

وجاء فى القاموس[٢] الإسلامى أن سدوم اليوم بلدة صغيرة تقع فى أقصى الجنوب الغربى للبحر الميت، احتلها اليهود عام ١٩٤٨م، وكانت سدوم مقرا لشركة بوتاس فلسطين التى استولت عليها العصابات الصهيونية.

وهناك رأى يذهب إلى أن البحر الميت المعروف ببحر أو ببحيرة لوط لم يكن موجودا قبل أن يجعل الله عالى سدوم سافلها، وإنما ظهر هذا البحر بسبب الزلزال الذى ضرب سدوم والمنطقة التى تقع بها، فانخفضت إلى ما دون سطح البحر بنحو أربعمائة متر. كما جاءت الأخبار فى بداية عقد الثلاثينيات من هذا القرن بأنهم اكتشفوا آثار مدن قوم لوط على حافة البحر الميت[٣].

---

(١) معجم البلدان، ج ٣ ص ٢٠٠.

(٢) احمد عطية الله، ج ٣ ص ٢٨٥.

(٣) عبد الوهاب النجار -(قصص الأنبياء) الطبعة الثانية، ص ١٤٨.

أما دائرة المعارف الأمريكية فقد جاء بها أن موقع سدوم وعامورة ليس معروفا على سبيل التأكيد، وإن كان أغلب الخبراء يعتقدون أنه يوجد تحت الحافة الجنوبية للبحر الميت والتى ارتفعت مؤخرا وغطت الوادى. ويقع بجوار هذه الحافة جبل (أوسدوم) وهى الكلمة العربية التى تطلق الآن على جبل سدوم الذى يقوم بجوار الحافة الجنوبية للبحر الميت[١].

وأما التوارة فقد جاء فيها أنه لما اختلف إبراهيم مع لوط ـ عليهما السلام ـ اقترح إبراهيم أن يفترقا، فيقيم كل واحد منهما بعيدا عن الآخر «فرفع لوط عينية ورأى كل دائرة الأرض أن جميعها سقى قبلما أخرب الرب سدوم وعمورة كجنة الرب بأرض مصر حينما تجىء إلى صوغر فاختار لوط لنفسه كل دائرة الأردن»[٢] والمقصود بدائرة الأرض ما كان يصل إليه آخر مدى للرؤية عند لوط، أو ما نسميه الأفق. وهو كلام يوحى لمن يقرؤه أن لوطا ـ عليه السلام ـ قرر أن يتملك هذه المساحة الشاسعة من الأرض بما يقوم عليها من مدن وقرى وأنهار ومزارع، ولم لا وقد جاء فى التوراة أن الله تعالى قال لإبراهيم بعد انتقاله إلى كنعان: «واجتاز أبرام فى الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة، وكان الكنعانيون حينئذ فى الأرض. وظهر الرب لأبرام وقال: لنسلك أعطى هذه الأرض»[٣].

أما الحقيقة فهى أن لوطا إنما كان يبحث عن مكان يصلح لأن يقيم فيه ويرعى ماشيته وأغنامه التى كانت كثيرة، فضلا عن خدمه وعبيده وجواريه. ويبدو أنه كان يقف على ربوة عالية تتيح له رؤية القرى أو المدن الخمس وما حولها من أرض خصبة يغطيها الزرع. وكانت المدن الكنعانية صغيرة الحجم قليلة المساحة لا تزيد فى أفضل الأحوال عن ستة عشر فدانا، تحيط بها أسوار تتفاوت فى السمك وفى الارتفاع، وتستقل كل منها عن الأخرى بحكومتها وملكها. وكان انقسام كنعان إلى ممالك ومدن صغرى يجعلها فى حالة حرب بعضها مع بعض فى كثير من الأحيان، وينقصها الاستقرار الداخلى بسبب نزاع النبلاء الطامعين بالسيادة المحلية[٤].

---

(١) The encyclopedia Americana, International edition, Volume 14

(٢) تكوين، إصحاح ١٣.

(٣) إصحاح ١٢.

(٤) فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٨٨، ٨٩.

غير أننا نرجح أن سدوم وعمورة بالذات كانتا أكبر بكثير مما وصف به فيليب حتى المدن الكنعانية. ففيما ورد بالتوراة من أخبار عن المعارك الحربية التى نشبت بين ملوك مدن الدائرة وبين ملوك بعض المدن المجاورة، الذين أوقعوا الهزيمة بملك سدوم واسمه (بارع) وأسروا لوطا، الذى كان قد استقر به المقام فى هذه المدينة. نلاحظ أن هؤلاء الملوك كانوا يحكمون مدنا أو ممالك كبيرة، مثل شنعار وملكها أمرافل، والأسار وملكها أريوك، وعيلام وملكها كدرلعومر، وحوييم وملكها تدغال. مما يجعل من الصعب تصور أن تخوض مدن صغيرة لا تزيد مساحة كل منها على ستة عشر فدانا فى أفضل الأحوال حروبا ضد دول كبيرة وقوية مثل عيلام التى كان ملكها المدعو كدر لعومر قد استولى على العراق الجنوبى ثم زحف على الشام وفرض سلطانه عليها. وتقول التوراة: إن ملوك مدن الدائرة وفى مقدمتهم بارع ملك سدوم وبرشاع ملك عمورة وشناب ملك أدمة وشمئيبر ملك صبوبيم وملك بالع التى هى صوغر كانوا قد خضعوا لكدرلعومر ملك عيلام لمدة اثنتى عشرة سنة، ولكنهم أعلنوا التمرد عليه فى السنة الثالثة عشرة، غير أنه هزمهم بسهولة ففروا من أمامه هاربين وتركوه يستولى على أموالهم ونسائهم[1].

ولما علم إبراهيم ـ عليه السلام ـ بما حدث للوط جمع غلمانه المدربين على القتال ـ وعددهم ثلاثمائة وثمانية عشر رجلا ـ وقادهم إلى دان وانقض على كدرلعومر وحلفائه أثناء نومهم ليلا فكسرهم وتعقب من فر منهم إلى قرب دمشق، واسترجع كل الأملاك، واسترد لوطا وأملاكه والنساء أيضا والشعب. (اختلف المؤرخون بشأن الفترة التى عاش فيها كدرلعومر بين القرن الثالث والعشرين والقرن التاسع عشر قبل الميلاد)[2].

وإذا كنا قد وجدنا أنه من الصعب تصور أن تجابه سدوم وحليفاتها المدن الأربع الأخرى كدرلعومر ملك عيلام وحلفاءه فإن الأشد صعوبة أن نتصور

(١) تكوين، إصحاح ١٤.
(٢) محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ١٢٠.

هزيمة هذا الملك من ثلاثمائة جندى أو حتى أربعمائة هم كل جنود إبراهيم - عليه السلام - أما الحقيقة التى نستخلصها من التوراة ذاتها فهى أنه لم تقع معركة بالمرة، وكل ما حدث أن إبراهيم - عليه السلام - ومعه الثلاثمائة وثمانية عشر رجلا، هم كل أتباعه، فضلا عن عدد غير معروف من الأموريين حلفائه لحقوا بجيش كدر لعومر، حيث كان عدد قليل من الجنود يقودون الأسرى ويحرسون الغنائم، فانقض عليهم ففروا ليلحقوا بالجيش تاركين الأسرى والغنائم. وهذا هو الدليل من التوراة ذاتها، فقد جاء فى الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين: «وقال ملك سدوم لأبرام: أعطنى النفوس، وأما الأملاك فخذها لنفسك، فقال أبرام لملك سدوم: رفعت يدى إلى الرب الإله العلى مالك السماء والأرض لا آخذ لا خيطا ولا شراك نعل ولا من كل ما هو لك، فلا تقول أنا أغنيت أبرام. ليس لى غير الذى أكله الغلمان، وأما نصيب الرجال الذين ذهبوا معى عاذر وأشكول وممرا فهم يأخذون نصيبهم» فهؤلاء كانوا حلفاء لإبراهيم، شاركوا برجالهم فى ملاحقة مؤخرة جيش كدرلعومر. أما ما زعمه مزورو التوراة عن نشوب معركة بين إبراهيم - عليه السلام - وبين جيش عيلام فإنما قصدوا به أن ينسبوا لمن يسمون بالعبرانيين - الذين يدعون انتسابهم إليهم - نصرا كبيرا على جيوش ضخمة سبق لها أن اجتاحت ممالك ومدنا وقرى لا حصر لها.

وتقول التوراة إنه لما عاد إبراهيم خرج ملك سدوم لاستقباله ومعه ملكى صادق ملك شاليم الذى أخرج خبزا وخمرا وكان كاهنا لله العلى، فباركه وقال: مبارك أبرام من الله العلى مالك السموات والأرض الذى أسلم أعداءك فى يدك. وأعطاه عشرا من كل شىء (إبراهيم هو الذى أعطاه). وكانت سدوم وعامورة والمدن الثلاثة الأخرى تقع على مقربة مما كان يعرف بالطريق الدولى العظيم الذى كان يبدأ فى دلتا النيل، ويمتد بطول ساحل سيناء حيث يتفرع إلى مناجم النحاس والفيروز فى شبه الجزيرة، كما يتفرع إلى أراضى البخور فى جنوبى الجزيرة العربية[1]. وهنا كان يقترب من منطقة السديم حيث توجد المدن الخمس بملوكها

(١) فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٦٤.

الفاسدين، وأعوانهم المنافقين وجيوشهم التى كانت قليلة العدد نسبيا، ولكنها كانت تكفى لترويع القوافل التى كانت تحمل سلعا ثمينة وبضائع ذات قيمة، مثل العاج والذهب من أفريقيا، والمر والبخور والتوابل من الهند وجنوبى بلاد العرب، والكهرمان والحرير من آسيا الوسطى والصين، فضلا عن المسافرين من التجار وغيرهم. وبطبيعة الحال فإن هذه القوافل كانت إما أن تدفع لهؤلاء الملوك مالا حتى يتركوها تواصل سيرها فى سلام، وإما ينهبونها ويستولون على ما تحمله لأنفسهم. مما عاد عليهم بمبالغ طائلة، وثروات هائلة انعكست على كافة جوانب حياتهم، من المسكن إلى المأكل إلى الملبس. وهو ما جعل لوطا يقول لهم: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ ﴾[1].

والمقصود بالسبيل هو الطريق التجارى العظيم، وليس طريقا أوطرقا أخرى مما يمر بين مدنهم، فهذه لم يكن يستخدمها غيرهم، وبالتالى فإنهم لم يكونوا يقطعونها، وذلك لسببين، الأول: وجود تحالف بين ملوك المدن الخمس كان من شأن قيام بعضهم بقطع سبيل البعض الآخر أو من يتبعهم أن يسقط هذا التحالف فتنشب الحرب بينهم. أما السبب الثانى فهو أن حصيلة قطع مثل هذه الطرق لم تكن مما يشجع على بذل أى جهد فضلا عن التضحية بالتحالف الذى يعود على الجميع بالنفع. فلو أن ملكا قطع الطريق على ملك آخر فهذا معناه اندلاع الحرب بينهما، أما إذا قطعه على العامة فإنه لن يجد معهم شيئا له قيمة، فضلا عن احتمال أن يعتبر الملك الذى يتبعه هؤلاء العامة أن ماحدث لهم إهانة له واستخفاف به فيقدم على إعلان الحرب على من فعل ذلك. وهذا ما لم يحدث، فقد عاشوا فى بحبوحة وترف لا تشغلهم غير ملذاتهم الحسية، وشهواتهم التى أسرفوا فى إشباعها إلى حد التخمة على ما سنرى.

ملاحظات على نسبة القوم إلى لوط:

هؤلاء هم القوم الذين اختار لوط أن يقيم بينهم، قبل أن يبعثه الله تعالى

(١) العنكبوت: ٢٩.

إليهم لما تفشت الفحشاء فيهم. والذين أسماهم الله «قوم لوط» غير أن هناك بعض الملاحظات على ما ورد بكتب بعض المفسرين من آراء، منها ما يتعلق بهذه المسألة، ألا وهى: هل بعث الله لوطا منذ البداية لهداية هؤلاء القوم أم أنه بعثه بعد أن أقام فيهم زمنا وظهرت فيهم الفحشاء؟! ومنها ما يتعلق باشتقاقهم لاسم الشذوذ الجنسى من اسم لوط، بإطلاق اسم اللواط على ما يكون من علاقة جنسية بين ذكرين مما يؤدى إلى أن يفهم الناس أن لوطا نفسه كان يفعل ذلك، وهى إساءة بالغة إلى نبى كريم عانى الكثير من هؤلاء القوم فى محاولته المستميتة لصرفهم عن هذه الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من العالمين. وسنبدأ ببيان وجه الخطأ فى تسمية المفسرين والعلماء للشذوذ الجنسى باسم اللواط، وشيوع هذه التسمية وثباتها إلى حد يجعل من الصعب العدول عنها. ثم ننتقل من هذه المسألة إلى أخرى تتعلق ببعثة لوط إلى هؤلاء القوم، مما يقتضى أن نبحث فى علاقته بهم. وهل بدأت فى اليوم الذى انتقل فيه للعيش بينهم أم بدأت قبل ذلك، وبالتالى نعرج على مسألتين أخريين، هما: كم لبث فيهم ـ أى أقام بينهم ـ وما هى اللغة التى كان يتكلم بها إليهم أو يتكلمون بها.

١ ـ اشتقاق اسم اللواط من لوط:

جرت عادة الفقهاء والعلماء المسلمين على تسمية الشذوذ الجنسى باللواط، وجاء فى لسان العرب أن الناس اشتقوا من اسم لوط فعلا لمن فَعَلَ فِعْلَ قومه. وهو الفعل الذى يسميه العلماء الغربيون تحديدا وتمييزا له عن غيره من السلوك الجنسى الشاذ Homosexuallty (الجنسية المثلية) وكلمةHomos أصلها إغريقى ومعناها: المثل أوالنوع نفسه[1]. ويعنون بها قيام علاقة جنسية بين فردين من نفس النوع، أى ذكرين أو أنثيين.

وواضح أن اشتقاق الفعل من اسم لوط عمل يفتقر إلى الدقة، بل هو خطأ كبير ما كان يجوز الوقوع فيه؛ لأنه ـ بلا أدنى ريب ـ يوحى بأن لوطا كان هو

(١) Ronald M. Holmes, Sex Crimes, P 47

الشاذ جنسيا وليس قومه. ذلك لأن الصواب هو نسبة السلوك إلى من عرف عنه ممارسته، مثال ذلك السادية، وهو الوصف الذى يطلق على من يمارسون الجنس مصحوبا بالعنف والإيذاء، والذين تصدر عنهم أفعال الإيذاء بدافع جنسى، حتى ولو لم تكن مصحوبة بالمعاشرة الجنسية، فهى - أى السادية - نسبة إلى المركيز «دو ساد» الذى عرف عنه القيام بتعذيب ضحاياه من النساء استجلابا للمتعة الجنسية[1] وفى غير هذا المجال الخاص جدا نلاحظ أن المذاهب والآراء وغيرها تنسب إلى من أسسوها أو صدرت عنهم، فنقول: الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنبلية، وغيرها. وفى الغرب يقولون: الدازوينية نسبة إلى دارون، والفرويدية نسبة إلى فرويد، وهكذا. فلا يصح أن نقول: اللوطية لوصف الشواذ جنسيا، وإنما نقول كما قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - : «**من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوه**» ولم يقل: من رأيتموه يعمل عمل لوط، حتى نقول نحن: اللواط، واللوطية، وغير ذلك.

ولعل التسمية الغربية لهذا الضرب من الشذوذ الجنسى هى الأقرب إلى الصواب؛ فهم يسمونه سودومى Sodomy فى الإنجليزية[2] اللواط، مضاجعة الذكور Sodomite، اللوطى، مضاجع الذكور، وذلك نسبة إلى Sodom التى جاء بالقاموس أنها مدينة بفلسطين القديمة دمرها الله لانغماسها فى الرذيلة والفساد، كما تطلق الكلمة على ما يكون موطنا للرذيلة والفساد. وكذلك فى الفرنسية Sodomie: مضاجعة ذكور[3].

---

(١) واسمه دوناتيان ألفونس فرانسوا، ماركيز دو ساد. ولد فى عام ١٧٤٠ وتوفى فى عام ١٨١٤ ميلادية، نبيل فرنسى يحمل لقبا من الألقاب الملكية، وهو لقب المركيز، مارس الكتابة، وحكم عليه بالسجن أكثر من مرة لارتكابة جرائم التعذيب. واضطر إلى الهرب إلى إيطاليا ذات مرة لكى يفلت من عقوبة الإعدام. وفى روايته التى نشرها تبريرات كثيرة لسلوكه الشاذ، وقد اشتق من اسمه الوصف الذى أطلق على السلوك الجنسى المقترن بتعذيب الإنسان لشريكه فى العلاقة الجنسية.

(٢) انظر قاموس (المورد) حيث جاء به ترجمة لهذه الكلمة.

(٣) انظر قاموس (المنهل) حيث جاء فيه أن معناها لواط.

ولقد جرت العادة ـ لفترة طويلة ـ على إطلاق وصف الشذوذ الجنسى على العلاقات الجنسية بين أى فردين من نوع واحد. ولكن بعد أن كشف العلم عن وجود أشكال عديدة من السلوك الجنسى ينطبق عليها وصف الشذوذ، مثل الميل إلى الكشف عن العورة، واختلاس النظر إلى النساء فى الأماكن التى يتخففن فيها من ثيابهن، وعشق بعض متعلقاتهن وسرقتها مثل الملابس الداخلية والأحذية، والتلذذ جنسيا من تعذيب الآخرين، أو التلذذ من تلقى التعذيب، ومعاشرة الحيوانات، والاستمناء، وغير ذلك من أشكال السلوك الجنسى غير السوى، فإن الدقة العلمية اقتضت التفرقة بين العلاقة الجنسية بين فردين من نوع واحد وبين العلاقات الأخرى، فأطلق العلماء الغربيون وصف «الجنسية المثلية» على كل من اللواط والسحاق. ويبرر البعض[1] ذلك بأن وصف هذه العلاقات بالشذوذ يفتقر إلى الضبط وتعوزه الدقة؛ لأن اعتبار السلوك شاذا لا يصح إلا إذا كان من يمارسونه أقلية، بمعنى أنه إذا كانت الأغلبية تمارس سلوكا آخر تعتبره هو السلوك السوى، فإن ما عداه يعد سلوكا شاذا، وبالتالى فإن شيوع وانتشار هذا السلوك يجعله سويا؛ لأن الغالبية تقبلته ورضيت به، فإذا انتشرت «المثلية الجنسية» وسادت فى مجتمع ما فإنها تعتبر سلوكا سويا وما عداها هو الشاذ. وهذا كلام غريب لا يصح أن يصدر عن إنسان عاقل فضلا عن عالم؛ لأن المعول عليه فى اعتبار السلوك سويا أو شاذا ليس الشيوع والانتشار، بل اتفاقه أو اختلافه مع الأغراض التى وجد من أجلها، فإذا كان لا يحققها فإنه يكون شاذا، فالجنس وجد من أجل التناسل وليس من أجل الاستمتاع المجرد من أى غاية، واقتران الممارسة الجنسية بالمتعة إنما قصد بها من ناحية التخفيف مما يصاحبها من معاناة وإرهاق وتعب، ومن ناحية أخرى الاندماج الوجدانى والتفاعل العاطفى بين طرفيها، ومن ثم لا يصح إهمال الغرض الأساسى وهو التناسل إلى أغراض فرعية أو مساعدة للغرض الأصلى، وإلا كان هذا شذوذا خطيرا من شأنه أن يهدد وجود المجتمع وينذر بفنائه بعد حين، فضلا عما يؤدى إليه من فساد شديد.

(1) James D. Page Psychopathology. The Science of undrestanding Deviance Second Edition. P 353.

وليس من شك فى أن هذا الكلام كان له أكبر الأثر فيما حدث من تفشٍّ شديد للجنسية المثلية ولغيرها من الانحرافات الجنسية فى الغرب، وهى الانحرافات التى بدأت تظهر عندنا نتيجة لمشاهدة الشباب لأفلام الجنس، سواء عن طريق أجهزة الفيديو، أو عن طريق الأطباق التى تلتقط ما تبثه القنوات الفضائية.

وهكذا يتضح لنا أنه ليس هناك ما يمنع من العدول عن تسمية هذا الضرب من الشذوذ باللواط إلى تسميته بالسودومية نسبة إلى مدينة سدوم، خاصة وأن معظم المفسرين المسلمين اعترفوا بهذا الاسم الذى ورد فى التوراة، على الرغم من أن القرآن خلا من اسم هذه المدينة كما سبق أن بينا.

علاقة لوط بأهل سدوم:

إن نسبة هؤلاء القوم الذين كانوا يقيمون فى سدوم إلى لوط، وتسميتهم فى القرآن الكريم بقوم لوط، وذلك فى كل السور التى اشتملت على آيات مما يخص لوطا وقومه هو من الأمور الهامة لما لها من دلالة، لا أدرى كيف خفيت على فطنة غالبية المفسرين. ففى سورة الأعراف التى اشتملت على خمس آيات تحدثت عن قصة لوط نلاحظ أنه سبقت هذه القصة ولحقتها قصص أخرى لعدد من الأنبياء والرسل الذين واجهوا رفضا شديدا من جانب أقوامهم، ومعارضة عنيدة لما جاءوهم به من الهدى والرشاد وتهديدا بالإيذاء أو إيذائهم بالفعل. غير أن استهلال ذلك القصص بقوله تعالى: وإلى قوم كذا أخاهم فلانا، من الأنبياء. ففيما عدا نوحا الذى لم تبدأ قصته بهذه الطريقة وإنما بقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾[1].

والسبب هنا واضح وهو أنه لم يوجد فى ذلك الوقت ـ على وجه الأرض ـ غير قوم نوح، أما بعد ذلك فنلاحظ أن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾[2].

(١) الأعراف: ٥٩.

(١) الأعراف: ٦٥ وكذلك هود: ٥٠.

أى أن القوم الذين كان ينتمى إليهم هود كان اسمهم عادا، وقوله تعالى: (أخاهم) تعنى أنه كان عضوا فى مجتمعهم تربطه بهم علاقة قرابة أو نسب.
ويقول الزمخشرى[1]: (أخاهم) واحدا منهم، من قولك: يا أخا العرب للواحد منهم، وإنما جعل واحدا منهم لأنهم أفهم عن رجل منهم وأعرف بحاله فى صدقه وأمانته. كذلك قال: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾[2].

ولها نفس المعنى السابق، إلى أن نأتى للوط فيقول تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾[3].

ولم يقل: إلى سدوم أخاهم لوطا، وسدوم ـ كما سبق أن ذكرنا ـ هى القرية التى قيل إن أهلها هم المعنيون فيما ورد بارتكاب الفحشاء، ثم يعود ليقول: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾[4].

وهذا يدل على أن لوطا لم يكن أخا لأهل سدوم، إن صح أنها قرية مرتكبى الفحشاء. ولكنه وفد عليهم من منطقة أخرى. وهذه حقيقة أثبتها القرآن الكريم فى قوله تعالى فى قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾[5].

ويقول رشيد رضا[6]: إن لوطا ـ قبل أن يذهب إليهم ليقيم بين ظهرانيهم ـ كان يقيم فى (أور الكلدانيين) التى كانت تقع فى طرف الجانب الشرقى من جنوب العراق فيما أصبح يعرف بالبصرة، وهى بابل القديمة، وأنه بعد موت والده ـ وكان اسمه (هاران) ـ وهو ـ فى الوقت نفسه ـ أخ لإبراهيم ـ عليه السلام ـ سافر معه، أى مع إبراهيم، وكان قد آمن معه بالإله الواحد ـ إلى ما

(١) المجلد الثانى، ص ٨٦.
(٢) الأعراف: ٧٣
(٣) سورة الأعراف، من الآية: ٨٠ والعنكبوت: ٢٨
(٤) الأعراف: ٨٥
(٥) الأنبياء: ٧٠، ٧١
(٦) المرجع السابق، ج ٨ ص ٤٥٢

بين النهرين الذى كان يسمى جزيرة (فورا) ومنه ما يسمى الآن بجزيرة ابن عمر، وهو مكان يحيط به نهر دجلة، حيث كانت تقع مملكة آشور، ومنها سافرا إلى أرض كنعان من بلاد الشام.

أما عن السبب الذى من أجله ذهب لوط إلى سدوم ليقيم فيها تاركا إبراهيم - عليه السلام - وحده حيث أقام، فقد قيل إن خلافا نشب بين إبراهيم ولوط - عليهما السلام - افترقا على أثره، فرحل لوط إلى الأرض التى تقع فى الشرق من نهر الأردن ليقيم بها، وقيل إن إبراهيم - عليه السلام - هو الذى أشار عليه بذلك نظرا لما كانت تتميز به المراعى فى ذلك المكان من جودة عالية، فضلا عن الزراعة. والقصة كما جاءت فى التوراة[١] أن إبراهيم - عليه السلام - لما انتقل إلى حاران ومعه لوط وأقاما فيها كلمه الله فأمره بأن ينتقل إلى أرض كنعان «فذهب أبرام كما قال له الرب وذهب معه لوط. وكان أبرام ابن خمس وسبعين لما خرج من حاران، فأخذ أبرام سارى امرأته ولوطا ابن أخيه وكل مقتنياتهما التى اقتنيا والنفوس التى امتلكا فى حاران، وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان، وبعد أن أمضى إبراهيم فترة فى كنعان حدثت مجاعة شديدة فرأى أن يذهب ومعه أهله - ومنهم لوط - إلى مصر حيث أقام بعض الوقت، ثم عاد إلى كنعان ومعه ثروة كبيرة من الغنم والبقر والحمير والعبيد والإماء، وكذلك لوط. وفى التوراة أيضا[٢]: «ولوط السائر مع أبرام له أيضا غنم وبقر وخيام. ولم تحتملهما الأرض أن يسكنا معا. إذ كانت أملاكهما كثيرة فلم يقدرا أن يسكنا معا».

مما تقدم ومن غيره نلاحظ أن لوطا - عليه السلام - لم يكن من سكان هذه المنطقة الأصليين، وأنه انتقل إليها ليقيم بينهم بعد أن اختلف مع عمه إبراهيم، فاقترح عليه أن يقيم فى ذلك المكان. فهو إذًا غريب عنهم، قدم من العراق إلى الشام أو ما أصبح يعرف بفلسطين.

كذلك فإنه لم يكن قد بعث حين انتقل للإقامة فى سدوم، وذلك لسبب

---

(١) تكوين، إصحاح ١٢.
(٢) تكوين، إصحاح ١٣.

بسيط هو أن الفاحشة لم تكن قد ظهرت فى أهلها، وإنما كانت بعثته بعد ذلك بوقت طويل أمضاه بينهم، فعرفهم وعرفوه بحيث أصبح من الجائز أن يقول عنه القرآن إنهم قومه، أما قبل ذلك فلا. وهذا أمر منطقى.

وهناك دليل هام على أن الفاحشة لم تكن قد ظهرت فى أهل سدوم فى الوقت الذى انتقل فيه لوط للإقامة بين ظهرانيهم. فعندما وقع لوط أسيرا فى أيدى الملك كدرلعومر وحلفائه الملوك الثلاثة، وقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ بمطاردتهم حتى لحق بهم فأوقع بهم الهزيمة واسترد لوطا ومعه أموال ورجال «بارع» ملك سدوم، وعاد بالجميع، بادر إلى رد الأموال والرجال إليهم. فلو أنه كان يعلم أنه ورجاله يرتكبون الفاحشة لتصرف على نحو آخر تماما، كأن يقبل ما عرضه عليه من الاحتفاظ بالأموال ورد الرجال، حيث إن هذه الأموال تلعب دورا هاما فى ممارسة الفاحشة، فلا أقل من أن يحرمه منها، بل أرجح أنه لو كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يعلم أن رجال سدوم يأتون الفاحشة ما خلصهم من أسر كدرلعومر ملك عيلام ولتركهم له يفعل بهم ما يشاء، وغالبا كان سيقتلهم، وهذا هو ما كانوا يستحقونه، ولكنه استردهم منه، وأعادهم إلى ملكهم وبلدهم.

كذلك لو أن لوطا كان قد عرف عنهم ارتكابهم الفاحشة وتفشيها فيهم لما تردد فى إطلاع عمه إبراهيم على الأمر وتشاور معه فى شأن إطلاق سراح الأسرى من رجال سدوم وإعادتهم إلى الملك، أو على الأقل لانتهز فرصة وجوده مع عمه فطلب منه ألا يعيده إلى القرية الفاسدة، ولكنه لم يفعل لا هذا الأمر ولا ذاك، وإنما عاد ليستأنف حياته بين أهلها.

ومما يؤكد أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يكن يعلم أن الفاحشة قد استشرت فى سكان سدوم أنه لما جاءته البشرى بقرب إنجاب سارة لابنهما إسحق ثم أخبرته الملائكة بما ستنزله بقوم لوط من عذاب جادلهم فى ذلك. يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾[١].

يقول ابن كثير[٢]: إنه لما ذهب عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ الروع، وهو ما

(١) هود: ٧٤.

(٢) المرجع السابق، ج ٤ ص ٢٦٦.

أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا، وبشروه بعد ذلك بالولد، وأخبروه بهلاك قوم لوط، أخذ يقول ـ كما قال سعيد بن جبير فى الآية ـ قال: لما جاءه جبريل ومن معه قالوا له: ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾[1]، قال لهم: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنا؟ قالوا: لا. قال: ثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسة، قالوا: لا. قال: أرأيتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتـهلكونها؟ قالوا: لا. فقال إبراهيم ـ عليه السلام ـ عند ذلك: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾[2]. الآية، فسكت عنهم واطمأنت نفسه. وقال قتادة وغيره قريبا من هذا.

وهذا الذى قاله سعيد بن جبير وغيره قريب مما ورد فى التوراة، مما يدل على أنهم نقلوه عن اليهود مع بعض التعديلات الضرورية، حيث إن الذين زوروا فى كثير مما اشتملت عليه التوراة زعموا أن الكلام كان بين إبراهيم وبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى كان قد حضر مع الملائكة! تقول التوراة: «ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم، وكان إبراهيم ماشيا معهم ليشيعهم، فقال الرب: هل أخفى عن إبراهيم ما أنا فاعله وإبراهيم يكون أمة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض؛ لأنى عرفته لكى يوصى بنيه وبيته من بعده أن يحفظا طريق الرب ليعملوا براً وعدلا؛ لكى يأتى الرب لإبراهيم بما تكلم به. وقال الرب: إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر، وخطيتهم قد عظمت جدا. أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتى إلىّ وإلا فأعلم.

وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم، وأما إبراهيم فكان لم يزل قائما أمام الرب. فتقدم إبراهيم وقال: أفتهلك البار مع الأثيم؟ عسى أن يكون خمسون بارا فى المدينة، أفتهلك المكان ولا تصفح عنهم من أجل خمسين باراً الذين فيه. حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر: أن تميت البار مع الأثيم، فيكون

(١) سورة العنكبوت، من الآية: ٣١
(٢) سورة العنكبوت، من الآية: ٣٢

البار كالأثيم. حاشا لك، أديان كل الأرض لا يصنع عدلا. فقال الرب: إن وجدت فى سدوم خمسين بارا فى المدينة فإنى أصفح عن المكان كله من أجلهم»[1].

وظل إبراهيم - عليه السلام - ينزل بعدد الأبرار من سكان سدوم حتى بلغ به عشرة أبرار. وواضح أن المفسرين لم يجدوا ما يفسرون به ما جاء بالقرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾[2]. غير ما جاء بالتوراة فى هذا الشأن، والذى وإن كان ظاهره لا يتعارض مع القرآن غير أن معنى الجدل يتسع ليشمل غير ما ورد بالتوراة من كلام، وإن صح بالنسبة للبشر، فإنه لا يصح فى حق الله تعالى الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفيه الصدور، فما بالنا بعدد الأبرار الذين يوجدون فى سدوم؟! وها هو إبراهيم نفسه يقول لله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[3].

فكيف يجادله فى عدد الأبرار الذين يوجدون فى سدوم وكأنه سبحانه لا يعلمه؟!. إن الأقرب إلى التصور أن إبراهيم - عليه السلام - جادل فى شأن العفو عنهم لعلهم يتوبون وتنصلح أحوالهم وهو لا يدرى بالمدى الذى وصل إليه فسادهم، فقد كان - عليه السلام حليما أوَّاهًا ولم يكن - كما صوره اليهود فى التوراة - فظا قاسيا غليظ القلب.

ولا شك فى أن النصر الذى أحرزه إبراهيم - عليه السلام - على أعداء «بارع» ملك سدوم قد عزز مكانة لوط فى سدوم، ورفع من شأنه فى أعين الناس، فأصبح من السهل اعتباره مواطنا من مواطنى سدوم وعضوا فى مجتمعها. ولقد قيل إنه تزوج منهم، وأنجب من زوجته السدومية بنات زوج بعضهن - فيما بعد - بشباب من أبناء أسرها الكبيرة. وهو ما لا نستبعد حدوثه، فقد كان مستوفيا لكل

(١) تكوين، إصحاح ١٨

(٢) سورة هود، الآية: ٧٤

(٣) إبراهيم: ٣٨

الشروط التى تراعى مثل هذه الأسر توفرها فيمن يرغب فى مصاهرتها وهى المال الوفير والأصل العريق والسمعة الطيبة! وإن كنا نشك فى أن يكون لهذا الشرط قيمة أصلا لدى هؤلاء القوم أو لدى أغلبهم، فى الوقت الذى حدثت فيه المصاهرة. وبالتالى فإنه يصعب تصور أن يكون لوط قد علم بأن القوم يأتون الفاحشة رجالا ونساء ثم يتزوج منهم ويزوج بناته لشباب من أبناء أسرها الكبيرة؟! بالطبع لا. وإنما الحقيقة أنه لم يكن يعلم بهذا الأمر، وذلك إما لأن الفاحشة لم تكن قد ظهرت بعد فى القوم، وإما لأنها كانت فى بدايتها يمارسها عدد قليل منهم فى الخفاء، وبالتالى لم يعلم بها لوط الذى نرجح أنه كان يقيم فى بيت فى ضواحى المدينة يشرف على المكان الذى تتجمع فيه أغنامه ومواشيه التى كانت كثيرة جدا حسب ما جاء فى التوراة. وإن كنا لا نستبعد احتمال حدوث مبالغة فى تصوير ثروة كل من إبراهيم ولوط ـ عليهما السلام ـ من جانب الذين زوروا التوراة.

وإذا كان انتصار إبراهيم ـ عليه السلام ـ على ملك عيلام وحلفائه قد عزز مكانة لوط فى سدوم، فإنه أثر بدرجة كبيرة فى أوضاع وأحوال مجتمع هذه المدينة وغيرها من المدن الأخرى المجاورة لها. فمن ناحية وفر لها الأموال التى كانت تؤديها لملك عيلام، فضاعف ذلك من ثرائها. ومن ناحية أخرى أصبحت بمأمن من عدوانه عليها، مما أتاح لها أن تعيش فى سلام وأمن لفترة طويلة مال فيها الناس إلى الراحة وألفوا الدعة، واعتادوا على الاستمتاع بملذات الحياة وطيبات العيش إلى درجة التخمة التى لا تلبث أن تبعث فى النفوس إحساسا بالملل.

وأتخيل الآن ـ وأنا أكتب هذا الفصل ـ ملك سدوم المدعو «بارع» وهو يفرك يديه سرورا عشية هزيمة أعدائه وعودة رجاله إليه، واسترداده لأمواله قائلا لمن حوله ونظرته تتألق بالفرحة: هذه آخر الحروب، وسنحيا فى أمان وفى رغد من العيش، ثم يتبادل الجميع الأنخاب وهم يرقصون فى سعادة ويتمايلون فى نشوة، وقد غفلوا ـ أو بالأحرى غفل الملك ـ عن أمر هام جدا وهو أن زوال الخطر

الذى كان يشغل الناس سيؤدى إلى ظهور مشكلات أخرى من شأنها أن تهدد وجود الملك نفسه على رأس هذه المملكة الصغيرة.

وربما يكون وجود لوط نفسه فى سدوم مصدرا لبعض هذه المشكلات، باعتباره - فى شخصيته وسلوكه وعلاقاته - أنموذجا فريدا يناقض تماما الأنموذج الذى يمثله الملك، وبالتالى فإن الناس قد يتخدونه قدوة لهم فيفسد الأمر على الملك. كان لوط يجسد الفضائل، فلو أن الحاكم وافقه على ما يمثله ويجسده من هذه الفضائل لظهر أمام الناس كما لو كان تابعا له، خاصة مع ما سبق من نجدة إبراهيم له، والملك لا يضمن أن يقف لوط عند حدود التصرف وفقا لما تمليه الفضيلة فربما يغريه التفاف الناس حوله ومحاكاتهم له بالانقلاب عليه والاستيلاء على الحكم.

فبماذا يواجهه الحاكم بحيث يجعل الناس ينفضون من حوله ويفقدون إعجابهم به ويكفون عن محاكاتهم لسلوكه وتقليدهم لتصرفاته؟ وجد الحاكم الحل فى المتع والملذات فأطلقها من عقالها، وشجع الناس على أن يغترفوا منها مبررا ذلك بأنهم عانوا كثيرا من الحرب والخوف والحرمان وآن لهم أن يعيشوا كما يعيش غيرهم، فصدقه الناس، وأقبلوا بكل ما لديهم من حماس على الملذات يعبون منها عبا: النساء، والخمر، والميسر، والرقص، والغناء، وارتداء أفخر الثياب، وتناول أفضل الأطعمة، وإقامة الاحتفالات الصاخبة لأتفه المناسبات!

وهكذا غرق الناس فى الفساد حتى الأذقان، ونسوا لوطا الذى كان بدوره لا يعيرهم اهتمامه، وذلك لسببين، الأول: أنه وافد عليهم وغريب عنهم؛ فلا يحق له أن يتدخل فى شئونهم أو يعترض على تصرفاتهم. أما السبب الثانى فهو أن الله تعالى لم يكن قد بعثه إليهم بعد، وبالتالى لا يعرف بماذا سيبعث، بل ربما تكون فكرة النبوة لم تخطر على باله أصلا حتى ذلك الوقت، ولا تطلع إلى أن يكون نبيا؛ لأن هناك عمه إبراهيم الذى يأتيه الوحى منذ أن كانوا فى أور الكلدانيين.

ومضت الأيام والناس يعبون من الملذات عبا، ويغترفون من الشهوات اغترافا، حتى أصابهم الملل من النساء، فبدأوا يبحثون عن الجديد الذى يشحذ شهيتهم ويشبع شهوتهم إلى أن وجدوا ضالتهم فى الغلمان، فأقبلوا عليهم، وشيئا فشيئا توسعوا فأضافوا الرجال، وأصبحوا يأتون الفاحشة فيما بينهم. وبعد أن كان الأمر يجرى خفية أمسى يجرى علانية فى أنديتهم، وانصرفوا تماما عن النساء، فما كان من هؤلاء النساء إلا أن استغنين عن الرجال بممارسة السحاق.

من الواضح أن هذه التطورات استغرقت زمنا ليس بالقصير، وهذا أمر طبيعى؛ لأن الفساد ـ فى أى صورة من صوره ـ لا يظهر فجأة، ولا يستشرى بغتة، بل يبدأ قليلا فإذا لم يواجه بحزم أخذ يزيد حتى يعم. كذلك فإنه يبدأ خفية ومع التزام الحذر من جانب مقترفيه، فإذا لم يتم الضرب على أيديهم ازدادوا جرأة وجاهروا به، واجتمعوا على الرافضين للفساد فاضطهدوهم وعزلوهم بمبررات شتى، منها أنهم رجعيون ومتزمتون، وأعداء للنجاح، وخصوم للتقدم. ومنها أيضا أنهم مجرمون يهددون أمن المجتمع، ويتربصون برفاهيته.

فما هى المدة التى لبثها لوط فى سدوم منذ أن انتقل إليها ليقيم بين ظهرانى سكانها إلى الوقت الذى خرج فيه منها قبل أن يدمرها الله تعالى ويجعل عاليها سافلها؟ الملاحظ أن التوراة، على الرغم من إطنابها فى وصف ما حدث لإبراهيم ولوط ـ عليهما السلام ـ منذ أن خرجا من أور الكلدانيين إلى حران ومنها إلى أرض كنعان، لم تهتم ببيان المدة التى لبثها إبراهيم أو لوط فى موطنيهما الجديدين. وإذا كانت قد اهتمت ببيان العمر الذى بلغه إبراهيم ـ عليه السلام ـ سواء يوم خروجه من أور، أو يوم سفره إلى مصر، أو يوم مولد ولديه إسماعيل ثم إسحق، مما يمكن أن يساعد فى تحديد المدة التى لبثها هو أو لوط فى الموطن الجديد لكل منهما، إلا أن بيان العمر هذا أبعد ما يكون عن الدقة بل وعن الحقيقة. وهما عيبان يعرفهما كل من يقرأ التوراة بإمعان، ويحاول أن يستفيد مما ورد فيها من مثل هذه المعلومات لبلوغ غاية معينة كهذه التى نحن بصددها.

أما القرآن الكريم فإنه وإن كان لم يتعرض لمثل هذه التفاصيل إلا أنه بما

اشتملت عليه الآيات الخاصة بقصة لوط من تطورات واضحة نبهنا إلى أن الأمر لم يستغرق شهورا أو بضع سنين، وإنما استغرق زمنا طويلا يصل إلى عشرات السنين. وهو ما يمكن الاستدلال عليه من تحذير لوط لهم، ونهيه إياهم عن إتيان الفاحشة، وتكرار ذلك بصيغ مختلفة تدل على اختلاف المناسبات التى صدر فيها التحذير، وحدث النهى، وتدل أيضا على توفر معلومات أكثر لدى لوط عن أفعال قومه المشينة، فإنه لما علم بما يرتكبونه من فاحشة قال لهم مستنكرا: أتأتون الفاحشة؟! ما سبقكم بها من أحد من العالمين! ثم أضاف وهو فى غاية العجب: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾[1].

فلما علم أنهم يأتون الفاحشة على مرأى من بعضهم البعض قال لهم: ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ؟! ﴾[2].

فلما تأكد له أنهم يفعلون ذلك فى ناديهم حيث اعتادوا أن يجتمعوا قال لهم: وتأتون فى ناديكم المنكر! وكان قد علم أنهم جمعوا إلى الفحشاء قطع الطريق على السابلة، فقال لهم: ﴿ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾[3].

وفى مرحلة لاحقة لم يقتصروا على الرجال فى إتيان الفاحشة، بل تمادوا فارتكبوها مع من لم يبلغوا مرحلة الرجولة من الصبية والغلمان فقال لهم: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾[4].

وهكذا بلغوا فى انحطاطهم الحضيض، فلو أنه كان هناك أمل - ولو ضئيلا - فى أن يأتى بعدهم جيل يمكن أن تتغلب فطرته على دوافع الفحشاء بحيث

(١) الأعراف: ٨١

(٢) النمل: ٥٤

(٣)العنكبوت: ٢٩.

(٤) الشعراء: ١٦٥، ١٦٦.

ينصرف عنها كله أو بعضه، فإنهم بإتيانهم الصبية والغلمان ـ فضلا عن الرجال ـ حالوا دون تحقق ذلك الأمل، وحكموا على المجتمع كله ـ فى حاضره ومستقبله ـ بأن يظل أسيرا لهذه العادة السيئة، يتوارثها جيل عن جيل، ويعللون ذلك قائلين: وجدنا آباءنا يفعلون ذلك وإنا على دربهم ماضون! لذلك لم يكن هناك من حل لمشكلتهم غير الإبادة، ومنعا من تأثر غيرهم بهم وبخاصة جيرانهم فى المدن القريبة التى كانت سدوم بمثابة العاصمة بالنسبة لها. ولقد قيل إن سكان إحدى هذه المدن ـ وهى عامورة ـ ارتكبوا الفاحشة أيضا متأثرين فى ذلك بجيرانهم سكان سدوم.

كذلك فإن لمعرفة المدة التى لبثها لوط فى سدوم أهمية ملحوظة؛ لأنه يتوقف عليها تحديد أمور عديدة، منها تعلمه لغتهم، إذا كان لا يعرفها، ومنها أيضا تحديد المدة التى إذا أقام فيها الشخص فى مدينة أو فى قرية فإنه ينسب إليها وتنسب إليه. ومنها كذلك كون المدة كافية أم لا؛ لكى يحيط الشخص إحاطة تامة بما يسود المجتمع الذى انتقل للإقامة فيه، من عادات، وأعراف ،وتقاليد، وما يوجد فيه من نظم ومؤسسات، وأيضا فضائله ورذائله؛ حتى لا يخطىء التصرف فتكون عاقبته وخيمة. ولا شك أن درجة تأصل الجرم فى النفوس تلعب دورا فى تحديد المدة التى تستغرقها الدعوة. فنوح ـ على سبيل المثال ـ لبث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين، بينما لم تزد المدة التى لبثها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن عشرين عاما، انتهت وقد نصره الله على المشركين، وجاء نصر الله والفتح، ودخل الناس فى دين الله أفواجا. وذلك على خلاف أقوام نوح وعاد وثمود ولوط ومدين الذين أبوا أن يستجيبوا لما دعاهم إليه أنبياؤهم، واستكبروا على الله، فكانت عاقبتهم الهلاك.

وكما نعلم فإن الانحرافات الفكرية والسلوكية لا تتوقف بانتصار العقيدة وسيادة الشريعة وانتشار الأخلاق التى يتكون منها الدين، وإنما تظهر بين الحين والحين ضروب من الأفكار، وأشكال من السلوك تناقض ما جاء به الدين من هذه الأمور، مما يتطلب يقظة مستمرة من أتباعه المخلصين، وجهودا دائبة لمواجهة

المنحرفين والمخدوعين والمضللين؛ حتى لا تعود الأمة إلى ظلمات الجهل والكفر والفساد. وهنا تظهر أهمية أن نعرف ما يحتاج إليه الدعاة إلى الله ـ سواء من الوقت أو من الإمكانات أو المهارات والقدرات ـ لكى يقوموا بمهمتهم على خير وجه. وفيما يلى نحاول التعرف على المدة التى قضاها لوط فى سدوم.

رابعا ـ المدة التى لبثها لوط فى سدوم:

على الرغم من أن قصة لوط جاءت ضمن سياق قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وبالذات فيما يتعلق بظهوره، ورحيله إلى كنعان، وسفره إلى مصر، وعودته منها، ثم انتقاله للإقامة فى سدوم، فإن ذلك قد أفاد كثيرا فى معرفة المدة التى لبثها فى تلك القرية الظالمى أهلها. والتى قدرناها بخمسين سنة، وقد تزيد، قضاها بين ظهرانى هؤلاء القوم، وهو ما سنحاول إثبات صحته فيما يلى:

١ ـ أن لوطا خرج مع عمه إبراهيم ـ عليهما السلام ـ من أور الكلدانيين إلى حاران ومعهما سارة زوجة إبراهيم، وآخرون منهم ناحور أخو إبراهيم الذى تزوج من ملكة بنت أخيه هاران وأخت لوط. حيث كان يجوز ـ فى ذلك الوقت ـ للعم أن يتزوج بابنة أخيه. وتزعم التوراة أن أبا إبراهيم ـ الذى قالت إن اسمه تارح ـ كان معهم، وأنه مات فى حاران. ونحن نعلم من القرآن الكريم أن اسم هذا الرجل آزر:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾[١].

ويقول رشيد رضا[٢] فى هذا الاختلاف بين الاسمين: «ومن الغريب أن نرى أكثر المفسرين والمؤرخين واللغويين يقولون إن اسمه (تارح) ـ بالحاء المعجمة أو المهملة ـ وإن آزر لقبه، أو اسم أخيه، أو أبيه، أو صنمه، ونقل عن الزجاج والفراء أنه ليس بين النسابين والمؤرخين اختلاف فى كون اسمه تارخ أو تارح. ولا نعرف لهذه الأقوال أصلا مرفوعا إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا

(١) الأنعام: ٧٤.
(٢) المرجع السابق، ج ٧ ص ٤٤٧.

منقولا عن العرب الأولين، وإنما هو منقول فيما يظهر عمن دخل فى الإسلام من أهل الكتاب كوهب بن منبه وكعب الأحبار اللذين أدخلا على المسلمين كثيرا من الإسرائيليات، فتلقوها بالقبول على علاتها».

والمعروف أن إبراهيم خرج من موطنه فى أور الكلدانيين وهو شاب صغير بعد ما حدث له مع ملكها الذى أراد أن يحرقه بعد أن حطم الأصنام التى يعبدونها من دون الله، ثم جهره بعبادة الله الأحد فى الجدل الذى دار بينه وبين الملك، والذى انتهى بهزيمة هذا الملك. أى أن إبراهيم كان على أكثر تقدير فى الخامسة والعشرين من عمره. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾(١).

أى أن إبراهيم كان فى مرحلة العمر التى يطلق فيها على الإنسان وصف (فتى) وهى التى تبدأ بالبلوغ وتنتهى مع بداية مرحلة الرجولة، ويقال للفتى شاب أيضا(٢). ولم تذكر التوراة شيئا عن عمر إبراهيم ـ عليه السلام ـ لما خرج من أور الكلدانيين، ولا عن عمر لوط أيضا، الذى يبدو لنا أن سنه كانت مقاربة لسن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ حيث جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٣). وهو ما يفهم منه أن لوطا كان قد بلغ رشده هو الآخر، يدرك معنى ما يقوله عن الكفر

(١) الأنبياء: ٥١ - ٦٠.
(٢) ابن منظور (لسان العرب) وانظر ابن كثير، المرجع السابق، ج ٥ ص ٣٤٣.
(٣) العنكبوت: ٢٦.

والإيمان والهجرة إلى الله تعالى. ولكن التوراة ذكرت سن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لما ترك (حاران) إلى كنعان، فقالت: «وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران». فلو افترضنا أنه كان فى الخامسة والعشرين من عمره لما خرج من أور الكلدانيين فمعنى ذلك أنه قضى فى حاران خمسين عاما لا ندرى ماذا كان يفعل فيها، بعد كل ما عاناه فى موطنه من اضطهاد وتهديد وخوف ثم إلقاء فى النار لحرقه والتخلص منه. وهل ظل كل هذه المدة ينتظر أن يأتيه الوحى من السماء ليبلغه ما يجب عليه أن يفعله ولكن بلا طائل حتى بلغ الخامسة والسبعين، وفجأة نزل عليه الوحى ليأمره بالخروج من حاران إلى كنعان، فخرج ومعه سارة التى كان اسمها ـ حتى ذلك الوقت ـ (ساراى) ولوط؟! والإجابة على هذا السؤال هى بالنفى طبعا، فإبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يترك موطنه ليقيم فى حاران كل هذه المدة، وإنما تركه لينتقل إلى أرض أخرى هى مقصده، وبالتالى فإن إقامته فى حاران لم تزد على عشرة أعوام على أبعد تقدير. ثم انتقل إلى كنعان.

وفى مكان يسمى شكيم فى كنعان بقى إبراهيم ومن معه بعض الوقت، ثم انتقلوا إلى بيت إيل، وشرقوا وغربوا فى المنطقة فترة من الزمن لم تحددها التوراة. ثم حدثت مجاعة فى بلاد كنعان، فاضطروا إلى الهجرة إلى مصر، حيث بقوا فيها مدة لم تحددها التوراة، وإنما علمها عند الله، ثم عادوا من مصر إلى كنعان، ومع كل منهما الثروة الكبيرة التى سبق أن بيناها نقلا عن التوراة التى تقول: « فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشى أبرام ورعاة مواشى لوط. وكان الكنعانيون والفريزيون حينئذ ساكنين فى الأرض، فقال أبرام للوط: لن تكون مخاصمة بينى وبينك وبين رعاتى ورعاتك؛ لأننا أخوان، أليست كل الأرض أمامك؟ اعتزل عنى، إن ذهبت شمالا فأنا يمينا، وإن يمينا فأنا شمالا. فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأرض أن جميعها سقى قبلما أخرب الرب سدوم وعمورة كجنة الرب، كأرض مصر حينما تجىء إلى صوغر، فاختار لوط لنفسه كل دائرة الأردن، وارتحل لوط شرقا فاعتزل الواحد عن الآخر، أبرام سكن فى أرض كنعان، ولوط سكن فى مدن الدائرة، ونقل خيامه إلى سدوم. وكان أهل سدوم أشرارا وخطأة لدى الرب جدا».

وهكذا يكون لوط قد قدم إلى سدوم عقب عودته من مصر مع عمه إبراهيم - عليهما السلام - وبقى بها طيلة الفترة التى قضاها إبراهيم فى كنعان (الشام) يدعو إلى عبادة الله الواحد، حيث اقترحت عليه السيدة سارة أن يتزوج جاريتها المصرية هاجر، ففعل، وأنجبت له إسماعيل - عليه السلام - وكان ذلك بعد عشر سنين من مجىء إبراهيم - عليه السلام - إلى أرض كنعان قادما من حاران، طبقا لما ذكرته التوراة.

وطبقا لتقديرنا فإن إبراهيم - عليه السلام - كان فى الخامسة والأربعين من عمره تقريبا فى ذلك الوقت، أما السيدة هاجر فكانت فى الخامسة والثلاثين؛ لأنها كانت تصغره بعشر سنين كما ذكرت التوراة. ولابد أن لوطا كان أصغر من عمه إبراهيم، وبالتالى فإن سنه كانت تقل عنه بما لا يقل عن عشرة أعوام.

كذلك جاء فى التوراة أنه بعد ذلك بأعوام بشرت الملائكة سارة بأنها ستحمل وتلد، وكانت يومئذ فى التسعين من عمرها، أما إبراهيم - عليه السلام - فكان ابن مائة سنة لما أنجبا إسحق - عليه السلام - وهؤلاء الملائكة هم أنفسهم الذى كانوا فى طريقهم إلى قوم لوط ليدمروهم. فإذا افترضنا صحة هذا الذى ذكرته التوراة ، فإن ذلك يعنى أن إبراهيم - عليه السلام - أمضى فى كنعان بعد عودته إليها من مصر خمسة عشر عاما فقط. أما طبقا لتقديرنا فإنه يكون قد أمضى خمسة وخمسين عاما، وبالتالى فإن لوطا يكون قد أمضى مثلها فى سدوم التى انتقل للإقامة بها عقب عودته من مصر.

٢ - إنه جاء فى التوراة أن إبراهيم - عليه السلام - لما ذهب إلى مصر طلب من زوجته سارة أن تقول إنها أخته وليست زوجته حتى لا يطمع فيها الملك لحسنها الشديد، فلما سمع الملك بحسنها رغب فى الزواج منها، ولكنه علم فى اللحظات الأخيرة أنها زوجة إبراهيم، فاستدعاه ولامه لإخفائه هذه الحقيقة عنه، مما كان سيجعله يرتكب خطأ فظيعا. ونسى الذين زوروا التوراة أنهم قالوا إن إبراهيم - عليه السلام - كان له من العمر يومئذ خمسة وثمانون عاما، ولما أن كانت سارة تصغره بعشرة أعوام، فمعنى ذلك أنها كانت فى الخامسة والسبعين

من عمرها. فهل يتصور أحد أن امرأة فى هذا السن يمكن أن تكون هدفا للرجال يطمعون فى الزواج منها، مهما كانت درجة جمالها فى شبابها؟! فضلا عن ملك مصر الذى تحيط به الإناث من مختلف الأعمار، ويملك أن يتزوج فتيات صغيرات فى عمر الزهور، ونساء ناضجات تفضن بالحيوية وتتدفقن بالأنوثة! طبعا لا. أما الصحيح فهو أن السيدة سارة كانت جميلة، وأن ملك مصر رغب فى الزواج بها، ولكن غير الصحيح أنها كانت فى الخامسة والسبعين، بل فى الخامسة والعشرين، أو فى الخامسة والثلاثين، على أكثر تقدير؛ لأنه بدءا من هذه السن يأخذ جمال المرأة فى الذبول شيئا فشيئا، وتضمحل حيويتها، وتخبو أنوثتها، وتدخل فى ما يسمى مرحلة الكهولة فالشيخوخة. فإذا صح هذا فإن إبراهيم - عليه السلام - يكون قد بلغ الخامسة والأربعين وقت أن رحل إلى مصر هربا من المجاعة، ويكون لوط فى الخامسة والثلاثين تقريبا.

كذلك نرجح أن السيدة سارة لم تقترح على إبراهيم - عليه السلام - أن يتزوج من جاريتها المصرية هاجر إلا بعد أن أيقنت أنها لم تعد قادرة على الإنجاب، وذلك يكون بانقطاع الطمث الذى يحدث غالبا فى الخامسة والأربعين، فوافق إبراهيم وتزوج بهاجر التى حملت منه وأنجبت إسماعيل - عليهما السلام - ولما أن كانت السيدة سارة قد أنجبت إسحق بعد مولد إسماعيل بأربعة عشر عاما فمعنى ذلك أنها كانت فى حوالى الستين من عمرها، وليس التسعين كما زعم مزورو التوراة. فى حين كان إبراهيم فى السبعين من عمره وليس المائة. وهكذا يكون زواجه بهاجر قد تم بعد عودته من مصر - وهى بصحبته - بعشرة أعوام على الأقل.

أما لوط - عليه السلام - فإنه يكون قد بلغ الستين يوم أن جاء الملائكة إلى سدوم لتدميرها، وكانوا قد مروا على إبراهيم قبلها لتبشيره هو وسارة بأنهما سينجبان ولدا، أى أن لوطا قضى بين ظهرانى أهل سدوم مدة تتراوح بين ثلاثين عاما وخمسة وثلاثين عاما، ذهب فى بدايتها لمجرد الإقامة حسما للخلاف الذى كان قد نشب بين عبيده وعبيد إبراهيم، ومنعا لانتقاله إليهما، ثم بعثه الله بعد

ذلك لما تفشت الفحشاء فى القوم، والذى نرجح أنه كان بعد إقامته فى سدوم بحوالى عشرين سنة، وإن كانت ممارستها على نطاق ضيق قد بدأت قبل ذلك فى الخفاء، ولذلك لم يعلم بها لوط إلا بعد أن تفشت. يقول تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾(١).

ولا شك أن هذه المدة كانت لازمة للأسباب التى سبق أن ذكرناها والتى من بينها تعلم لوط للغة القوم؛ حتى يمكنه أن يتفاهم معهم أولا، ثم بعد ذلك لإبلاغهم رسالة ربه التى بعثه من أجلها، وهى نهيهم عن إتيان الفاحشة التى ما لبثت أن تفشت فيهم.

وكما نعلم فإن لوطا جاء مع عمه إبراهيم - عليهما السلام - من أور الكلدانيين فى أرض الرافدين فى العراق حيث يتكلم الناس لغة خاصة بهم، إلى كنعان التى لا شك فى أن أهلها كانوا يتكلمون بلغة مختلفة. فماذا كانت لغة إبراهيم ولوط؟ وهل كانت هى نفسها لغة كنعان أم كانت مختلفة عنها؟ وإلى أى درجة كان هذا الاختلاف؟

ثانيا - لغة التخاطب بين لوط وأهل سدوم:

لا شك أن لوطا قد تكلم إلى أهل سدوم بلغتهم، وذلك لما بعثه الله لينهاهم عن الفحشاء، وذلك مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٢).

ويقول القرطبى فى تفسير الآية: إن معناها «بلغة قومهم ليبينوا لهم أمر دينهم، ووحد اللسان وإن أضافه إلى القوم لأن المراد اللغة، فهى اسم جنس يقع على القليل والكثير. وقال - صلى الله عليه وسلم -: «**أرسل كل نبى إلى أمته بلسانها، وأرسلنى الله إلى كل أحمر وأسود من خلقه**». وقال أيضا: «**والذى**

(١) هود: ٧٨

(٢) إبراهيم: ٤.

نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار». أخرجه مسلم[١]. ويقول محمد رشيد رضا[٢]: إن العربية القديمة كانت هى لغة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وكذلك لوط، كما كانت لغة حمورابى وقومه الذى قيل إنه كان معاصرا لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وكان هو الآخر عربيا اسمه ملكى صادق ملك البر والسلام، ووصف فى العهد العتيق بأنه كاهن الله العلى، وأنه بارك إبراهيم الذى أعطاه العشر من كل شىء[*]. وقال :إنه على ما كان فى اللغة العربية من الدخيل الكلدانى والمصرى القديم كانت قريبة جدا من العربية الجرهمية.

وهذا الذى قاله رشيد رضا عن وجود لغة عربية قديمة كانت هى لغة إبراهيم ولوط ـ عليهما السلام ـ صحيح إلى حد كبير؛ ذلك لأن الهجرات الأولى إلى بلاد الرافدين والتى حدثت إحداها حوالى عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد جاءت من الجزيرة العربية، الموطن الأصلى لمن عرفوا فى التاريخ باسم الساميين، وما هم فى الحقيقة إلا العرب. وعلى الرغم من أنه كان قد سبقهم إلى بلاد الرافدين أقوام ليسوا ساميين، لا شك أنهم كانت لهم لغاتهم فإن لغة الوافدين ما لبثت أن تغلبت على تلك اللغة وأصبحت الواسطة التى عبرت بها حضارة الفرات عن نفسها خلال أجيال عديدة.

وبعد الهجرة الأولى بنحو ألف سنة حصلت هجرة أخرى من الجزيرة العربية، ولكن هذه المرة إلى الشام، وجاءت بشعبين، الأول: الأموريون الذين

(١) المرجع السابق، ج ٩ ص ٣٤٠.

(٢) المرجع السابق، ج ٧ ص ٤٤٦.

* لم يتوفر دليل على أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ التقى مع حمورابى، أو ما يدل على أن ملكى صادق هو نفسه حمورابى، فقد ذكرت التوراة أن ملكى صادق كان ملكا لشاليم التى يذهب رأى إلى أنها القدس التى سميت أورشليم. وذهب رأى آخر إلى أنها قد تكون قرية سالم التى تقوم اليوم شرقى نابلس لجهة الغور. أما حمورابى فكان ملكا لبابل، عاش ما بين ٢١٢٣ و ٢٠٨١ قبل الميلاد، بينما الثابت حتى الآن أن إبراهيم عاش فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد. راجع ول ديورانت (قصة الحضارة) الجزء الثانى، المجلد الأول ص ١٨٨. وكذلك محمد عزة دروزة، المرجع السابق ص ١٥٠.

استقروا فى سهول سورية الشمالية. والثانى الكنعانيون الذى احتلوا ـ فيما بعد ـ السهل الساحلى. وهكذا يكون البابليون والأموريون والكنعانيون يشتركون فى لغة واحدة هى العربية القديمة. ولكن بالنظر إلى أنهم جاءوا إلى بلاد لم تكن خالية من السكان، بل كانت قد سبقتهم إليها واستقرت فيها شعوب أخرى كان لها لغاتها الخاصة، فلا شك فى أن هذه اللغات قد أثرت بأشكال مختلفة ودرجات متفاوتة فى لغة الوافدين الجدد، فظهر ما يعرف بمجموعات اللغات السامية التى تضم اللغة الآشورية البابلية (الآكادية) والكنعانية (الفينيقية) والآرامية والعبرية والعربية والحبشية[1]. وكلها ترجع إلى أصل واحد هو ما يسمى بالعربية القديمة التى تعد اللغة العربية الحالية أقرب لغات المجموعة السامية إليها.

وهكذا فإن الكنعانيين وإن كانوا قد جاءوا من نفس الموطن الذى سبق أن جاء منه البابليون، وبالتالى فإنهم كانوا يتكلمون نفس اللغة، فإن مضى ألف سنة على هجرة العرب إلى أرض الرافدين كان قد أحدث تغييرا ملموسا فى لغتهم، وبالذات نتيجة لاحتكاكها بلغة الشعب الذى كان قد سبقهم إلى سكنى هذا الإقليم. أما الكنعانيون فإنهم قد جاءوا لتوهم من الجزيرة العربية، فإن لغتهم كانت صحيحة لم تشبها شائبة بعد. فإذا كانوا ـ أى الكنعانيون ـ قد احتكوا ـ فى موطنهم الجديد ـ بأقوام كانوا قد سبقوهم إليه، فمعنى ذلك أن لغتهم هم أيضا قد تأثرت بلغة هؤلاء، وبالتالى ابتعدت عن العربية ـ لغتهم الأصلية ـ بقدر ابتعادها عند البابليين.

ولمحمد عزة دروزة رأى آخر، وهو أن بعض القبائل البابلية كانت قد هاجرت إلى الشام حوالى مطلع الألف الثانى قبل الميلاد، غير أن أسلافهم كانوا غالبا يحتلون الأقسام الساحلية الجنوبية من بلاد الشام قبل ذلك بألف سنة أو أكثر، ثم

---

(١) فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٦٦.

طرأ عليهم الكنعانيون، ولكن اللغة البابلية ظلت اللغة السائدة؛ لأن الكنعانيين ليسوا إلا فرعا من البابليين، ومما استدل به على ذلك رسائل تل العمارنة التى كانت ترسل من أمراء وحكام سورية باللغة البابلية والخط المسمارى، والتى ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد[1]. ولكن، حتى لو أن ذلك كان صحيحا فإن انقضاء نحو ألف سنة بين مجىء البابليين إلى الشام ومجىء الكنعانيين بعد ذلك لا يمكن أن يحدث دون أن يترتب عليه تأثيرات هامة فى لغة البابليين، لا شك فى أن الكنعانيين قد لمسوها بعد أن استقروا بين ظهرانى هؤلاء. وهو نفس ما حدث لما جاءت موجة الهجرة البابلية الجديدة التى كان من ضمنها إبراهيم ولوط - عليهما السلام - واستقرت فى البلاد التى أصبحت تعرف بكنعان، فإن لوطا لما استقر فى سدوم وجد بعض الصعوبة فى تبادل الكلام مع سكانها، وهى صعوبة كان الوقت كفيلا بتذليلها.

ويقول فيليب حتى[2]: إن من أهم نواحى التشابه ضمن ما يسمى بمجموعة اللغات السامية هى: وجود فعل ثلاثى كمصدر أساسى، ووجود زمنين للفعل هما الماضى والمضارع، وتصريف الفعل يتبع نفس الأسلوب. وفى جميع لغات المجموعة السامية نجد تشابها بين الكلمات الأساسية كالضمائر الشخصية، والأسماء التى تدل على القرابة والأعداد وأعضاء الجسم الرئيسية.

وبطبيعة الحال فإن هناك فرقًا بين أن يكون الراغب فى تعلم لغة قوم يعيش بينهم شخصا عاديا وبين أن يكون نبيا، أو بسبيله إلى أن يكون نبيا، فتعلم اللغة - فى هذه الحالة - يحتاج إلى التؤدة والتعمق حتى يمكنه أن يقوم برسالته على خير وجه. وهذا هو ما جعلنا نستنتج أن إقامة لوط بين ظهرانى أهل سدوم قد دامت مدة طويلة، وأن ندلل على صواب هذا الاستنتاج بأكثر من دليل.

وهناك دليل آخر - على أن لوطا كان غريبا عن أهل سدوم - نستمده هذه المرة من التوراة ذاتها. ذلك أنه لما حاول بعض سكان سدوم الوصول إلى الملكين

(١) محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص ٣٩.
(٢) المرجع السابق، ص ٦٦.

اللذين بعث بهما الله ليدمرا سدوم، وتوسل إليهم لوط أن يتركاهما لأنهما ضيفاه، قالوا: جاء هذا الإنسان ليتغرب وهو يحكم حكما.[1] والمعنى أنه غريب عنهم جاء ليقيم فى مدينتهم، فإذا به يريد أن يتحكم فيهم فيأمرهم أو ينهاهم.

من كل ما تقدم يتبين لنا أن لوطا ـ عليه السلام ـ الذى كان إما أصغر من إبراهيم، أو فى مثل سنه، أمضى بين ظهرانى سكان سدوم ثلاثة عقود أو أكثر قليلا، وأن هؤلاء السكان كانوا مزيجا من الكنعانيين الذين ترجع أصولهم إلى الجزيرة العربية والذين كانت لغتهم الكنعانية مزيجا من العربية القديمة ولغة القوم الذين سبقوا الكنعانيين إلى الهجرة إلى الشام والذين جاءوا من بلاد ما بين النهرين فى العراق، مما كان يتطلب أن يقيم لوط بين ظهرانيهم ردحا من الزمن؛ لكى يجيد لغتهم، قبل أن يبعثه الله إليهم.

ولما حط لوط رحاله فى السديم ـ وهو اسم المنطقة التى تقع بها المدن الخمس ـ اختار أن يقيم فى سدوم نفسها حيث ما لبث أن تزوج إحدى بناتها وأنجب منها عددا غير محدد من الإناث، زوج بعضهن من شباب من أبناء سدوم الذين ينتمون إلى أسرها الكبيرة. وكانت غنمه الكثيرة وإبله ترعى خارج سدوم فى مراعيها الخصبة، فتدر عليه دخلا كبيرا، فضلا عن ثروته الأخرى الضخمة والتى تتكون من الذهب والفضة والعبيد والإماء، مما كان يضعه على رأس قائمة الأثرياء فى سدوم.

ومن ذلك يتبين أنه حتى الوقت الذى بدأت فيه إقامة لوط فى سدوم لم يكن هناك ما يدل على أن سكانها يمارسون الشذوذ الجنسى فى صورتى اللواط والسحاق، أو على الأقل لم تكن هذه الفاحشة شائعة بينهم متفشية فيهم، وإلا فكيف رضى لوط أن يتزوج بامرأة منهم ثم بعد ذلك يزوج بناته من بعض شبابهم وهو يعلم أن عروسه تمارس السحاق؟ وأن بناته سيمارسنه بعد زواجهن من رجال لا يأتون النساء وإنما يأتون الرجال؟!. غير أن هذه الفاحشة كانت لا

---

(١) تكوين، الإصحاح ١٩.

تزال محدودة يمارسها عدد قليل من الناس وفى سرية تامة، شأن أى سلوك معيب يخجل منه صاحبه، فيحرص على إخفائه عن الآخرين. كان هؤلاء - فى الغالب - من علية القوم والمترفين وأولى الأمر فى المجتمع؛ لأن العامة لايستطيعون أن يفعلوا ذلك حتى لا يقعوا تحت طائلة القانون الذى يمسك المترفون بزمامه. ولكن بمضى الوقت، دون أن يجد الشواذ من يتصدى لهم ويضرب على أيديهم، أخذ عددهم يزيد بانضمام آخرين إليهم، إلى أن جاء الوقت الذى لم يعد فيه أحد من سكان سدوم لا يمارس اللواط. وانتبه لوط على هذه الحقيقة المؤلمة، فلم يدر كيف يتصرف معهم، فهو لاسلطان له عليهم، بل هو مجرد رجل حل بينهم منذ وقت بعيد، وارتبط ببعضهم برابطة المصاهرة التى لا تكفى لحمايته منهم إن هو اعترض على ما يأتونه من فاحشة أمست مستشرية فيهم متمكنة منهم. وعندئذ بعثه الله تعالى إليهم لكى يبصرهم بما فى عملهم من سوء وشر، وليدعوهم إلى تركه، وينذرهم بالعقاب الشديد، لعلهم يعودون إلى صوابهم، ويثوبون إلى رشدهم. ويكشف لنا قول لوط لهم : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]. لا عن دهشته وحسب، بل واشمئزازه الشديد. ولكن كيف حدث ذلك؟

العوامل التى لعبت دورا فى إتيان قوم لوط للفاحشة:

كثيرة هى العوامل التى تفاعلت فأدت إلى سقوط قوم لوط بأكملهم فى هوة الانحطاط الأخلاقى المتمثل فى إتيان الفاحشة على هذه الصورة غير المسبوقة. وربما كان التعرف على دور هذه العوامل صعبا فى الماضى، أما الآن فلم يعد كذلك بعد أن انبعثت من جديد الظروف التى تماثل ظروف مجتمع سدوم، والتى مهدت لظهور الفاحشة فيه، ثم تفشيها كما لو كانت وباء، أو ما هو أخطر من الوباء؛ لأنه كثيرا ما نجا بعض الناس من الوباء، كما حدث فى كل مرة ظهر فيها وباء من الأوبئة. فالطاعون - مثلا - كان يظهر بين الحين والحين فيقضى على ملايين البشر، ولكنه كان يترك آخرين دون أن يصيبهم. أما الفاحشة التى ظهرت

(١) سورة الأعراف، من الآية: ٨٠

فى قوم لوط فإنها لم تترك منهم أحدا فيما عداه هو وابنتيه. وهنا يكمن الفرق بين المرض الوبائى والمرض الأخلاقى، خاصة ما يتعلق منه بالجنس، فالمرض الوبائى كالطاعون يقضى على حياة من يصاب به بعد فترة قصيرة من الألم المبرح والعذاب الشديد تكون مصحوبة ـ فى الغالب ـ بابتعاد الناس عن المريض خشية انتقال العدوى إليهم، أما الوباء الأخلاقى كالشذوذ الجنسى والزنا فإنه لا يسبب آلاما ولا يصاحبه عذاب، بل على العكس يسبب للمصاب به إحساسا بالمتعة، وشعورا باللذة، فيستعذبه ويقبل عليه غير منتبه إلى عواقبه الوخيمة، وعلى خلاف الطاعون، فإن من يشاهد المصاب بالوباء الأخلاقى أو ينصت إلى حديثه لا ينفر منه ويتجنبه خشية أن تنتقل إليه العدوى، بل يستهويه ما يراه أو يسمعه فتميل نفسه إليه بدافع من الإثارة التى يحدثها فيه، والتى إن لم تواجه بمانع قوى يحد منها فإنها تنطلق بقوة لتجتاح كل ما قد يعترضها من عقبات، ونعنى بالمانع القوى الدين الذى يعد وازعا لا يستهان به فى مثل هذه الأحوال. وفيما يتعلق بالعوامل التى أدت إلى وقوع قوم لوط فى الفاحشة فإنها على نوعين: اقتصادى، واجتماعى، ونتناولهما فيما يلى:

أولا ـ العامل الاقتصادى:

يعد هذا العامل من أهم العوامل التى تلعب دورا فى الانحراف والشذوذ، وبطبيعة الحال فإنه يقوم بدوره بالتفاعل مع غيره من العوامل، وليس على انفراد. فالمال الكثير مع الدعة والميل إلى الترف مع عدم الرغبة فى بذل الجهد، وعدم وجود أهداف جادة يسعى إليها المرء، وسيطرة المادة وتغليبها على المعنى بما يؤدى إليه ذلك من عزوف عن القيم، وعدم احترام المعايير الأخلاقية، والتمرد على الضوابط، والخروج على الأعراف. فضلا عن شيوع الأنانية وتفشى الفردية. كل ذلك من شأنه أن يشجع الشخص على الانحراف.

ولقد كانت سدوم والمدن الأربع الأخرى تقع فى سهل خصب تحيط بها المراعى والمزارع، وتروج فيها التجارة، فيحصل سكانها على دخول تكفيهم

وتزيد. وقد قال الله فى وصف مثل هذه المدن: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[1].

ولكن الله لم يُذِقْ سدوم لباس الجوع والخوف فحسب، بل دمرها تدميرا.

وبدلا من أن يشكروا الله على نعمائه، ويوجهوا أموالهم إلى ما ينفعهم وينفع غيرهم وجهوها إلى ما يضرهم، فأمعنوا فى الترف، وعبوا من المتع عبا، وفى مقدمتها الجنس الذى كان فى أول الأمر سويا ينحصر فى الزواج بأى عدد من النساء، واتخاذ المحظيات والسرارى، واقتناء الإماء والجوارى، يمارسون الجنس معهن فى إسراف شديد جعلهم يصابون بالملل، فأخذوا يبحثون عن الجديد الذى يبدد مللهم، ولكن هذا الجديد ما لبث أن فقد تأثيره، فعافوا النساء واتجهوا إلى الغلمان من الخدم والعبيد الذين كانت تمتلىء بهم القصور، أو يعملون فى الحانات والحمامات العامة. فلما تمكنت منهم العادة وأصبحوا أسرى الفكرة المتسلطة عليهم تزين لهم الفاحشة وما فيها من متعة تحولوا إلى الكبار، ومارسوها فيما بينهم، فكان منهم الفاعل والمفعول به، أو كما يوصفون علميا: الإيجابى والسلبى، كما يوجد من يجمع بين الدورين معا، الفاعل والمفعول به. وهو ما نلاحظه إلى اليوم على من يمارسون هذه الفاحشة. وبخاصة فى السجون التى زرناها وعرفنا من أمر نزلائها الكثير مما يتعلق بهذا الداء الوبيل.

وفى أول الأمر كانت هذه الفاحشة قاصرة على الطبقة المترفة، طبقة الأثرياء والحكام وأعوانهم، يمارسونها فى أنديتهم وفى قصورهم؛ خجلا من العامة. وهذا ما يحدث عادة فى كل مرة ظهرت فيها رذيلة، أو حدث فيها انحراف عن النواميس، وشذوذ عن الفطرة. ولدى الصينيين مثل شائع يعبر عن هذه الحقيقة بدقة ، وهو المثل الذى يقول: **السمكة تفسد من رأسها**. وعلية القوم أو من

---

(١) النحل: ١١٢.

يسمون بالصفوة، والمترفون هم رأس المجتمع التى تفسد أولا ثم يتبعها الجسم. كذلك يقولون: «**السلم يمسح من أعلاه**» بمعنى أننا لو أردنا أن ننظف المجتمع ونطهره مما أصابه من قاذورات فإننا نبدأ بأعلاه حتى يجرف الماء فى اندفاعه إلى أسفل كل ما تراكم من قاذورات ليلقى بها فى البالوعة، أما إذا غسلناه من أسفل فإننا كلما تقدمنا صعودا عليه تسرب الماء القذر منحدرا إلى أسفل، فيلوث ماسبق أن غسلناه من درجات السلم.

ويقول الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[(١)].

يقول ابن كثير: إن القراء اختلفوا فى قراءة قوله: «أمرنا» فالمشهور قراءة التخفيف. واختلف المفسرون فى معناها، فقيل: معناه أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمرا قدريا، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾[(٢)].

فإن الله لا يأمر بالفحشاء ، قالوا: معناه أنه سخرهم إلى فعل الفواحش، فاستحقوا العقاب. وقيل: معناه أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش، فاستحقوا العقوبة. رواه ابن جرير عن ابن عباس، وقاله سعيد بن جبير أيضا. وقال ابن جرير: «وقد يحتمل أن يكون معناه: جعلناهم أمراء».

ويقول ابن كثير: إن ذلك يكون إذا كانت القراءة ﴿أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾.

يقول ابن عباس: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب، وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا﴾[(٣)].

ولمن قرأها بالمد (آمرنا) فإن معناها: أكثرنا عددهم[(٤)].

ويقول سيد قطب : «والمترفون فى كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة، فينعمون بالدعة وبالراحة وبالسيادة، حتى تترهل نفوسهم وتأسن، وترتع فى الفسق والمجانة، وتستهتر

(١) الإسراء: ١٦

(٢) يونس، من الآية: ٢٤

(٣) الأنعام: ١٢٣

(٤) المرجع السابق، ج ٥ ص ٥٨

بالقيم والمقدسات والكرامات، وتلغ فى الأعراض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا فى الأرض فسادا ونشروا الفاحشة فى الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التى لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخى، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها، وأسباب بقائها، فتهلك وتطوى صفحتها»[1].

ويفسر قوله تعالى: ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ بأن معناه: «أن الله إذا قدر لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك، فكثر فيها المترفون، فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم، سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها، فعم فيها الفسق، فتحللت وترهلت، فحقت عليها سنة الله، وأصابها الدمار والهلاك. وهى المسئولة عما يحل بها؛ لأنها لم تضرب على أيدى المترفين، ولم تصلح من نظامها الذى يسمح بوجود المترفين. فوجود المترفين ذاته هو السبب الذى من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا». ويستطرد قائلا: «إن إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف، وسننا لا تتبدل، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتنفذ إرادة الله وتحق كلمته. والله لا يأمر بالفسق؛ لأن الله لا يأمر بالفحشاء. لكن وجود المترفين فى ذاته دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها، وسارت فى طريق الانحلال، وأن قدر الله سيصيبها جزاء وفاقا. وهى التى تعرضت لسنة الله بسماحها للمترفين بالوجود والحياة. فالإرادة هنا ليست إرادة للتوجيه القهرى الذى ينشىء السبب، ولكنها ترتب النتيجة على السبب. الأمر الذى لا مفر منه؛ لأن السنة جرت به. والأمر ليس أمرا توجيهيا إلى الفسق، ولكنه إنشاء النتيجة الطبيعية المترتبة على وجود المترفين، وهى الفسق»[2].

وهذا الذى قاله سيد قطب صحيح بلا شك، ولكن السبيل إلى وضعه موضع التنفيذ صعب، إن لم يكن متعذرا؛ وذلك لأن الطبقة المترفة لا تملك المال وحسب بل والسلطة والنفوذ، وتسيطر على أدوات القهر، وتستخدمها لحماية

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢١٧.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٢١٨.

نفسها ومصالحها وفرض معتقداتها. هذا فضلا عن تحكمها فى وسائل الإعلام من إذاعة مسموعة ومرئية وصحف ومجلات، وهيمنتها على وسائل الثقافة من مسرح وسينما ومؤتمرات وبحوث وغيرها، مما يمكنها من الترويج للفاحشة بإثارة الشهوات وإلهاب الحواس، فضلا عن وضع العراقيل أمام الإشباع المشروع للحاجة الجنسية لدى الشباب، أو اتخاذ موقف سلبى إزاء ما يعانون منه من مشكلات تحول دون تحقيق الإشباع المشروع. فإذا أضفنا إلى ذلك ضعف الوازع الدينى وتفشى الأمية بنوعيها ـ الأمية الأبجدية، والأمية الثقافية ـ لتبين لنا مدى تعذر تحقيق ما دعا إليه سيد قطب، وفى الوقت نفسه سهولة الاستجابة من جانب العامة لما يغريهم به الخاصة، ومن ثم استعدادهم لمحاكاتهم فيما يفعلونه.

وهكذا كان حال أهل سدوم وعمورة مع رؤسائهم المترفين لما علموا بما يفعلونه من إتيان الذكور، فلم يلبثوا أن حاكوهم فى ذلك. وإذا كان الزواج بالنساء يعد مكلفا فإن اقتناء المحظيات والجوارى كان أكثر تكلفة نظرا لارتفاع أسعارهن؛ ولذلك كان الفقراء لا يقدمون على الزواج إلا مرة واحدة فقط، فلما انتشر اللواط تبين لهم أنه لا يحتاج إلى مال ، فكان أسهل على العامة وأيسر، والناس على دين ملوكهم! فلما علم الحكام والأثرياء بما يفعله العامة لم يعودوا يجدون فى أنفسهم حرجا مما يفعلون، فجاهروا بعمل الفاحشة لا يتخفون فى بيوتهم ومنتدياتهم بل يمارسونها جهارا نهارا، عيانا بيانا، بعد أن يشربوا الخمر، فيأخذون فى الرقص والصياح وهم يتجردون من ثيابهم، ثم يقبلون بعضهم على بعض كما لو كانوا قد أصيبوا بالجنون. ولقد كان من نتيجة ذلك الإسراف فى الفاحشة وما يصاحبها من تناول الطعام الفاخر والشراب الغالى أن تبددت الثروة من أيدى كبار القوم، فلجأوا إلى قطع الطريق على القوافل التى كانت تمر بالقرب منهم فيستولون على ما كانت تحمله من سلع وبضائع، وينهبون المسافرين دون رحمة أو شفقة، وينتزعون الأطفال تاركين الأمهات؛ لأنه لا مأرب لهم فيهن، ويعتدون على الرجال.

ثانيا العامل الاجتماعى:

وهذا العامل يتكون ـ فى الحقيقة ـ من مجموعة من العوامل التى لها علاقة بالمجتمع، مثل الدين، والثقافة، والنظام السياسى، والتعليم، والتنشئة الاجتماعية، وغيرها، وسنبين دورها فيما يلى:

أ ـ الدين:

فيما يتعلق بالدين فإن قوم لوط كانوا مشركين يعبدون الأوثان، وكان لوط يحاول هدايتهم إلى الدين الحق ولكن بلا جدوى، فقد ظلوا يراوغونه ردحا من الزمن، وهو متمسك بأهداب الصبر يرجو من الله أن يهديهم، إلى أن فوجىء بما يرتكبونه من فاحشة. والشرك فى حد ذاته لا يؤدى إلى الفاحشة وإنما يحتاج لكى يحقق ذلك إلى أمرين، **الأول**: أن يكون هو ذاته لايحرم مثل هذه الأفعال، بل يشجع عليها، وقد يعتبرها عنصرا من طقوسه كما كان الحال فى الديانات الغربية القديمة التى كانت تعتبر البغاء نوعا من العبادة يثاب من يمارسها، وكانوا يطلقون عليه اسم البغاء المقدس.[١] **والأمر الثانى**: أن تكون الأخلاق السائدة فى المجتمع لا تحرم مثل هذا الشذوذ، ولا تعاقب مرتكبه، بل قد تشجع عليه وتعتبره جزءا من الأخلاق الاجتماعية، وهى نظرة الإغريق إلى العلاقات الجنسية التى كانت تقوم بين الغلمان وبين من كانوا يدربونهم على المصارعة وفنون الحرب؛ إذ كانوا يعتبرون ذلك عاملا هاما يساعد الغلام على سرعة التعلم، وإتقان ما يتعلمه بسبب حبه لأستاذه وحرصه على إرضائه، كما كانوا يعتبرون ذلك أقل ما يمكن للتعبير عن العرفان بالجميل والولاء للمدرب![٢] ولقد كانت ديانة الكنعانيين ـ ومنهم سكان سدوم ـ هى ديانة الخصب، وهى ديانة تشتمل على طقوس جنسية منها تضحية النساء بشرفهن وتقديمهن أنفسهن للمترددين على المعابد فيما يسمى البغاء المقدس،[٣] وهو ما أخذه عنهم العبرانيون من ضمن ما أخذوا به من أسباب الحضارة الكنعانية المادية.

---

(١) أحمد المجدوب (العادات الجنسية لدى المجتمعات الغربية)

(٢) Ronald M. Holmes. Sex Crlmes op. clt, p. 11

(٣) فيليب حتى، المرجع السابق ج ١ ص ١٢٦

ولقد كان العرب مشركين يعبدون الأوثان، ومع ذلك فإنه لا عقيدتهم الوثنية ولا أخلاقهم الوضعية كانت تبيح الشذوذ الجنسى، سواء بين الذكور وبعضهم، أو بين الإناث وبعضهن. وكذلك كثير من الشعوب الأخرى كالمصريين القدماء مثلا، وذلك بخلاف الرومان الذين كانوا يتساهلون فى هذا الشأن فلا يعاقبون من يرتكب هذه الفاحشة.

وهكذا فإنه لو كان هؤلاء القوم قد آمنوا بما كان لوط يدعوهم إليه من عبادة الله الواحد، وطاعته فيما أمر به والانتهاء عما نهى عنه لكان فى ذلك وازع لهم وزاجر عن ارتكاب هذه الفاحشة وغيرها. ولكنهم أبوا أن يعتنقوا الحنيفية التى بعث بها إبراهيم عليه السلام.

ب - التنشئة الاجتماعية:

وبالنسبة لدور التنشئة الاجتماعية فى ممارسة قوم لوط للفاحشة، فإن الدور يتمثل فيما يقوم به الأبوان من تعليم أبنائهم العادات والتقاليد والأعراف والأخلاق السائدة فى المجتمع، وتدريبهم على السلوك بما يتفق مع كل ذلك. ويتمثل أيضا فيما يقوم به هؤلاء الأبناء من ملاحظة ما يدور فى البيت من أمور، سواء أكانت أفعالا أم أقوالا، ومحاكاتها. ولا شك أنه كانت لقوم لوط أخلاق وعادات سيئة من شأنها أن تشجع على الانحراف، قد يكون من بينها انعدام الحياء لديهم فى القول والفعل، وإهمال الخصوصية، كأن يظهر الأبوان عاريين أمام أبنائهم أو أن لايباليا إذا رأوهما فى أوضاع مخلة، وكذلك عدم الفصل بين الأبناء فى المضاجع، وبخاصة عند بلوغهم العاشرة، وتخليهم عن مسئولية متابعة هؤلاء الأبناء فى علاقاتهم بالآخرين، خارج البيت، وبخاصة بمن يكبرونهم فى السن. كل ذلك قبل أن تظهر الفاحشة فيهم.

أما بعد أن ظهرت فإن دور التنشئة تغير، فبعد أن كان يقتصر على تمهيد سبل الانحراف أمام الأبناء أصبح يوعز إليهم ويشجعهم على ممارسة الفاحشة، سواء بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر. فماذا ننتظر من طفل يرى أباه وهو يرتكب

الفاحشة، ثم بعد ذلك أمه، ثم كل من حوله من أقارب وجيران؟! بطبيعة الحال فإنه سيشب عن الطوق وقد استقر فى وجدانه وفى عقله أن هذا شىء عادى، بل إنه سيكون أكثر فحشا من أبويه، وأشد انحلالا وانحطاطا منهما. ولا يظنن أحد أن الإنسان الذى يرتكب الفاحشة يمكن أن يكون صالحا أو فاضلا فى غيرها، فهذا خطأ فاحش يحاول الغرب أن يوقعنا فيه، ونسمعه من بعض السذج الذين يشيدون بالشواذ الغربيين قائلين إن تمسكهم بالصدق يمنعهم من أن ينكروا أنهم شواذ، بل يعترفون بذلك فى شجاعة وثقة غير عابئين بنظرة الآخرين إليهم!. والأشد فحشا من هذا الخطأ المقصود ما يزعمه بعض أنصار الشذوذ الجنسى من أن الشخص الشاذ يتألق فكره، ويتوهج إبداعه، وتنشط لديه القدرة على الخلق والابتكار عندما يتخلص من الإحباط الناشىء عن الحرمان من الممارسة الجنسية الشاذة.

ويضربون المثل ببعض الفنانين الذين يزعمون أنهم كبار، مثل الموسيقى تشايكوفسكى وغيره الذين ألفوا أفضل مقطوعاتهم الموسيقية عقب إشباعهم لشهوتهم الشاذة مع أفراد إيجابيين، أى فاعلين!. ويصف بعض العلماء الأمريكيين الأشخاص الشواذ بقولهم: إنهم يكونون على درجة ملحوظة من رقة المشاعر، وحساسية الطباع، ولكن المجتمع لا يقدر لهم ذلك، ويصر على تعذيبهم بمعاملته غير المنصفة غير منتبه إلى أنهم ليس لهم ذنب فيما أصابهم.[1] وتقول سارة دولامونت[2]: إن المثلية الجنسية ليست شذوذا كما يرى البعض، فهى موجودة لدى كثير من الحيوانات، كما كانت شائعة فى الحضارات القديمة!

وسلوك قوم لوط ـ كما بينه لنا القرآن الكريم ـ يكشف عن حقيقة هامة، وهى أن استشراء الفاحشة فيهم استغرق وقتا ليس بالقصير ـ على نحو ما بينا ـ بحيث شمل ثلاثة أجيال على الأقل. الجيل الأول بدأت فيه الفاحشة على استحياء، وبين عدد قليل من الناس، ثم ازدادت فى الجيل الثانى وبدأت فى الظهور، وفى الجبل الثالث أخذت شكلها الصارخ الذى وصفه القرآن. ويزيد محمد رشيد رضا الأمر وضوحا فى قوله[3]: «وللنقص والرذائل دركات، كما أن

(1) Barnes & Teeters, New horizons in Criminology, third edition, p. 97

(2) SARA DELAMONT, Sex Roles and THE SCHOOL. p.8

(٣) المرجع السابق، ج ٨ ص ٤٥٨

للكمال والفضائل درجات، فأولاها أن يلم بالرذيلة وهو يشعر بقبحها، ويلوم نفسه عليها، ثم يتوب إلى ربه منها، ويليها أن يعود إليها المرة بعد المرة مستترا مستخفيا، ويليها أن يصر عليها حتى يزول شعوره بقبحها، ويليها أن يجهر بها ويكون قدوة سيئة للمستعدين لها، ويليها أن يفاخر بها أهلها، ويحتقر من يتنزهون عنها، وهذه أسفل الدركات، وهى درجة قوم لوط، ولا يهبط إليها ولا يسف من يؤمن بالله واليوم الآخر، بل وصف الله المؤمنين بأنهم إذا عملوا السيئات يعملونها بجهالة ثم يتوبون من قريب ، وأنهم لا يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون»

ولما أن كانت الأسرة ـ فى ذلك الوقت ـ تستقل بعملية التنشئة الاجتماعية، لا يشاركها فيها أى مؤسسة أخرى، وذلك بخلاف الحال الآن، حيث نجد الإعلام من تليفزيون وإذاعة، والمدرسة والمسجد بل والنادى تشارك الأسرة فى تنشئة الطفل، فإن ذلك ضمن لها عدم تدخل عوامل أخرى بالتأثير سلبيا فيما تنقله إلى أطفالها من أفكار وآراء، وما تضعه فى نطاق ملاحظتهم من أشكال السلوك الشاذ والعلاقات المنحرفة. وهو عكس ما يحدث الآن حيث نجد أن الإفساد يأتى من الإعلام المرئى والمسموع ومن المدرسة والنادى فضلا عن الشارع والجيرة.

وهكذا يكون الجيل الثالث من قوم لوط هو الذى نشأ فى بيئة تعلى من شأن الفاحشة، وتحط من شأن الفضيلة، وتنظر إلى المتطهرين على أنهم هم الشواذ الذين يجب التخلص منهم حتى لا يسيئوا إلى المجتمع. لا فرق فى ذلك بين الذكور والإناث، فقد ألف النوعان الفاحشة، فاكتفى الذكور بالذكور، واكتفت الإناث بالإناث، وكأن هذا هو الوضع الطبيعى. وبالتالى لم تعد التنشئة تلعب دورا لسبب بسيط هو انقطاع النسل؛ لعدم إتيان الأزواج لزوجاتهم، بل ونرجح أن يكون نظام الزواج قد اختفى أو كاد، إذا أخذنا فى حسابنا الزيجات القديمة التى كانت لا تزال قائمة فى الظاهر؛ لذلك فإنهم لما قال لهم لوط: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾[1].

---

(١) هود: ٧٨

قالوا له: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾[1].

فهم ـ أو بعضهم ـ كانوا قد حلوا محل النساء فى العلاقة الجنسية، واعتادوا أن يؤتوا كما تؤتى النساء، والبعض الآخر كانوا قد رغبوا عن النساء تماما بعد أن تمكنت منهم الفاحشة، وأمسوا يمارسونها بشهوة، ويجدون فيها إشباعا ولذة لايجدون مثلها فى النساء. وهذا يعنى أن فطرتهم بلغت من الفساد حدا أصبح من المتعذر معه ـ إن لم يكن من المستحيل ـ برؤهم منه، وبالتالى لم يعد هناك من حل إلا باستئصال شأفتهم. وربما يكون هذا هو السبب فى عدم استجابة الله تعالى لرجاء إبراهيم ـ عليه السلام أن يعفو عنهم.

العلاقة بين الشذوذ الجنسى وقلة النسل:

أثبتت الدراسات والبحوث التى أجريت فى كثير من الدول وجود علاقة مباشرة بين الشذوذ الجنسى فى صوره المختلفة ـ وكذلك الانحرافات الجنسية ـ وبين انخفاض معدل النسل. وهذا أمر طبيعى ليس فى ذلك شك؛ لأن الرجال إذا امتنعوا عن إتيان النساء ومارسوا الفاحشة فيما بينهم فلن تحمل النساء ولن تلدن. كذلك إذا تفشى السحاق فى النساء وعزفن عن الزواج ومعاشرة الرجال فإنهن لن يحملن ولن يلدن. وهى نفس النتيجة التى تنشأ عن الزنا؛ لأن الزناة يحرصون على عدم الإنجاب حتى لايفتضح أمرهم، أو لعدم رغبتهم فى وجود أبناء حتى لايجبرهم ذلك على الإبقاء على العلاقة الجنسية بما يحولها ـ فى الواقع ـ إلى زواج يحول بينهم وبين الدخول فى علاقات جديدة مع أطراف آخرين كما هو الحال فى المجتمعات الغربية التى يتفشى فيها الزنا، وتحرص النساء على رشاقتهن وجمالهن حتى يجذبن الرجال إليهن. فكانت النتيجة انخفاضا مستمرا فى معدل النسل أدى إلى ارتفاع متوسط الأعمار، فزادت نسبة كبار السن، وانخفضت بالمقابل نسبة صغار السن، سواء من الأطفال أو الشباب القادرين على العمل، الأمر الذى جعل معظم الدول الغربية تعتمد على الأيدى الأجنبية اعتمادا متزايدا.

---

(١) هود: ٧٩

وتأكيدا لما ذكرناه من أن تفشى الفاحشة فى قوم لوط أدى إلى انقطاع نسلهم بعد ثلاثة أجيال أو أربعة على الأكثر: نشير إلى ذلك الخبر الذى تلقته صحيفة الأهرام من مكتبها فى أثينا ونشرته فى عددها الصادر فى ١٠ مايو ١٩٧٩ والذى جاء به أن هناك توقعات بتناقص تعداد سكان اليونان بمقدار ثلاثة ملايين نسمة فقط. وكان تعداد السكان فى هذه الدولة ١٤,٨ مليون فى عام ١٩٨٠ انخفض إلى ١٠,٢ مليون سنة ١٩٩٠ أى بنسبة ٣٠٪. والمعروف أن الزنا واللواط متفشيان فى اليونان شأنها شأن الدول الغربية التى ترفع شعار الحرية الجنسية للجميع. ولا ننسى فى هذا الصدد ما تبين من وجود علاقة إيجابية قوية بين اللواط ومرض فقد المناعة (إيدز).

(ج) الثقافة:

والمقصود بالثقافة: مجموع العادات والتقاليد والأعراف، وأشكال السلوك، وأساليب التعامل، وضروب العلاقات، والأفكار والآراء، وغيرها مما تزخر به حياة الجماعة. ولقد تطرقنا إلى بعضها فى حديثنا عن الدين والتنشئة الاجتماعية، ونضيف إليها هاهنا العادات الخاصة بالثياب، كأن تكون فاضحة تكشف عما لايجب الكشف عنه من جسم المرأة، وكذلك من جسم الرجل، والاختلاط بين الجنسين الذى لا يخضع لضوابط واضحة، أو الفصل التام بينهما وفرض العزلة على النساء، وهو الذى يحدث نفس الأثر الذى يحدثه الاختلاط غير المنضبط.

ومن العادات السيئة التى تساعد على الفحشاء تعاطى الخمر والمخدرات؛ لأن هذه وتلك تفقد الإنسان سيطرته على نفسه، فيقدم على تصرفات طائشة أو غير سوية. ولقد كشفت البحوث التى أجريت فى كثير من الدول الغربية أن جرائم الاغتصاب[1] والزنا بالمحارم وضرب الأزواج لبعضهم، وغيرها، تزيد بنسبة ملحوظة فى أيام العطلات والإجازات، حيث اعتاد الناس شرب الخمر وتعاطى المخدرات. وهو ما تبين أن قوم لوط كانوا يفعلونه قبل وأثناء ممارستهم للفاحشة،

(١) أحمد المجدوب (ظاهرة اغتصاب الإناث فى المجتمعات القديمة والمعاصرة).

يدل على ذلك صياحهم وصراخهم وضحكهم الذى كان يسمع على مسافة بعيدة من مدينتهم.

ولا يفوتنا أن نبين هنا دور ما يسمى بالفكر والأدب فى الترويج للفحشاء والمنكر، وهو الدور الذى لا يقل أهمية عن دور الخمر والمخدرات، إن لم يكن يزيد. فكما أنه يوجد الآن ـ وبخاصة فى الغرب ـ من يجاهرون بالأفكار والآراء التى تبرر الشذوذ الجنسى، بل وتزينه للناس، فكذلك وجد فى قوم لوط من كانوا يفعلون نفس الشيء. ولابد أن القصص الذى كانوا يسمعونه من القصاص والأساطير التى كانوا يروونها فى مجالسهم قد احتوت على صور من الشذوذ والفحش شديدة الإغراء، تنطوى على تبريرات وتسويغات لها. ولا شك أيضا أن الكهنة الذين كانوا مسئولين عن المعابد ويعتبرون أنفسهم حراس الدين، لم يكتفوا بأن يغضوا الطرف عما يحدث وحسب، بل وقاموا بإعادة تأويل مبادىء هذا الدين وقواعده وأحكامه؛ لكى تتفق مع أهواء من يمارسون الفحشاء وبخاصة طبقة الحكام والصفوة ـ أى الطبقة المترفة ـ التى كانت أول من أقدم على ممارسة الفاحشة. ولا شك أيضا أن ما يسمى بالفنون من رقص وغناء ورسم ونحت ـ وكلها من عناصر الثقافة ـ ساهمت بدرجة كبيرة فى الترويج للفحشاء، وتزيينها للناس.

(د) النظام السياسى:

ليس من شك فى أنه كان للنظام السياسى فى مدينة سدوم دور هام جدا فى تفشى الفاحشة، وانتشار الشذوذ، بل يمكن القول إن هذا النظام هو الذى مهد السبيل أمام الفاحشة لكى تنتشر وتستشرى، سواء بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر. فالنظام السياسى ـ بما فى ذلك الحكومة وغيرها من المؤسسات ـ منوط به حماية المجتمع من كل ما من شأنه الإساءة إلى أخلاقه وقيمه ومثله العليا، كما تقع على عاتقه المسئولية عن توفير القدوة الصالحة والنماذج الفاضلة. ويا حبذا

لو أن هذه وتلك كانتا متوفرتين فى الحاكم وأعوانه، وفى كل من يتعاملون معهم. ولكن يبدو أن ملك سدوم، أو رئيسها، كيفما كانت صفته أو شخصه، إما أنه كان أول من ارتكب الفاحشة ثم تبعه أعوانه وأصحابه ثم بقية الناس، أو أنه علم بظهور الفاحشة فى بدايتها فلم يبادر إلى اتخاذ ما يلزم للتصدى لها والقضاء عليها فى مهدها، بل غض الطرف عنها لحاجة فى نفسه، قد تكون شذوذه هو نفسه، فكان ما حدث ملائما له، أو أنه أراد أن يستخدم الفحشاء كسلاح ضد معارضيه أو أعدائه مفضلا أن يهزمهم بهذا السلاح على أن يفقد عرشه أو كرسى حكمه، وقد غلب على ظنه أنه يستطيع ـ بعد أن ينتصر على معارضيه ـ أن يواجه الفاحشة ويقضى عليها. ولكى يعبر عن رضاه الضمنى على مرتكبى الفاحشة اتخذ منهم وزيرا أو أكثر، ومستشارا أو أكثر فى إشارة منه ـ غير خافية الدلالة ـ إلى أن هؤلاء أفضل عنده وأجدر بثقته من المعارضين، حتى ولو كانوا من أهل الفضيلة الغيورين على الأخلاق. وغالبا ما يكون قد عهد بوظيفة القصص والترويح عن الناس فى المنتديات لبعض الشواذ، كما أعطى الضوء الأخضر للمبدعين لإغراق الناس فى خضم من الفنون التى تثير الشهوة وتزين الشذوذ. وليس بشرط أن تكون المعارضة التى جعلت ملك أو رئيس سدوم يفعل ذلك سياسية، فقد تكون معارضة دينية قام بها بعض الصالحين، كما كان يحدث فى المجتمعات القديمة. فما كان منه إلا أن واجه ما كانوا يعتقدون أنه فضائل بسلاح رذائله ومن بينها الفحشاء. كل ذلك محتمل، أما الأكيد فهو مسئولية الحاكم عن تفشى الشذوذ وانتشار الفحشاء فى مجتمعه وأمته.

وفى العصر الحديث استخدم السياسيون سلاح الجنسية المثلية من بين أسلحة كثيرة فى صراعاتهم السياسية من أجل الفوز بالحكم وما يقترن به من مزايا ومنافع، منها المشروع، وأغلبها غير مشروع. فقد كان من النتائج الهامة التى أسفر عنها البحث الخطير الذى أجراه العالم الأمريكى (كينسى) على السلوك الجنسى لدى الأمريكيين أن ٣٧٪ من الذكور البيض خاضوا فى بعض مراحل

عمرهم تجارب فى الجنسية المثلية[1] فضلا عما أصبح معلوما من انتشار هذا الداء بين نسبة من الأمريكيين، وهم بطبيعة الحال مواطنون لهم حق التصويت فى الانتخابات. فما كان من الرئيس الحالى كلينتون إلا أن استخدم ورقة هؤلاء الشواذ من أجل أن يحرز النصر على منافسه فى الانتخابات التى جرت عام ١٩٩٧، من ثم عمد إلى تقديم وعوده لهم بالاستجابة لمطالبهم بشأن قبول تطوعهم فى الجيش الأمريكى، والقضاء على مظاهر التمييز فى المعاملة بينهم وبين المواطنين الآخرين. وبطبيعة الحال فقد اعترض قادة الجيش على القرار الذى ما لبث الرئيس أن أصدره بعد وقت قصير من توليه السلطة قائلين إن وجود الشواذ فى الجيش لن يؤدى إلى انتشار الشذوذ فى الجيش وما يصاحبه من أمراض خطيرة آخرها الإيدز (مرض فقد المناعة) فحسب، بل سيؤدى أيضا إلى إضعاف الضبط والربط فى الجيش بسبب ما سيثيره الشواذ من مشكلات، سواء بسبب المنافسة عليهم، أو بسبب سلوكهم المشين، وممارساتهم التى لا تعترف بقيود، ولا تخضع لضوابط، ولكن الرئيس أصم أذنيه قائلا إنه وعد ولا سبيل للرجوع عما وعد به!. وعلى الفور بدأت تظهر المشاكل التى كانت قيادة هذا الجيش تتوقع حدوثها، والتى انضمت إلى المشاكل التى يحدثها وجود النساء المجندات فى كافة أفرع القوات المسلحة الأمريكية.

وكان قد سبق ذلك بمدة طويلة تكوين ما يسمى بحركة تحرير الشواذ سنة ١٩٦٩م وذلك إثر الشغب الذى حدث فى فندق ستون وول Stone wall فى قرية جرينتش، والذى أثاره الشواذ احتجاجا على المعاملة القاسية التى قالوا إن الشرطة تعاملهم بها. واعتصموا داخل الفندق، ولما حاولت الشرطة إخراجهم قذفوها بالحجارة والزجاجات الفارغة. وأسفر الاعتصام عن تكوين الرابطة المشار إليها[2].

ويوجد ـ فضلا عن العوامل الاجتماعية ـ عوامل أخرى يصفها علماء الجريمة بالشخصية أو الداخلية ـ أى التى تتعلق بشخص المجرم أو المنحرف ـ والتى

(1) ALfred C. Kinsey, Sexual Behaviour in the human Male, p. 663

(2) Ronald M. Holmes, Sex Crimes < op. Cit.

تتفاعل مع العوامل الخارجية، سواء الاقتصادى منها أو الاجتماعى فتنتج الجريمة. والعوامل الشخصية أو الداخلية تشمل الجوانب النفسية والجسمانية والعقلية للفرد. ولما أن كانت هذه تختلف من فرد إلى آخر فقد تبدو غير ذات أهمية فى موضوعنا هذا، حيث شمل الانحراف المجتمع كله وليس جزءا منه، مما جعل القلة السوية ممثلة فى لوط وأسرته تبدو هى الشاذة! ولكن الحقيقة خلاف ذلك تماما، صحيح أن سكان سدوم كانوا جميعا مجرمين ومنحرفين، ولكن جريمتهم ـ على خلاف غيرها من الجرائم ـ لا تقتصر على نوع واحد من النشاط الإجرامى، بل تشمل أنواعا متعددة، منها المثلية الجنسية الإيجابية، والمثلية الجنسية السلبية، والمثلية الجنسية المختلطة أو المزدوجة، مما يقتضى التعرف على العوامل التى جعلت بعضهم يختار هذه الصورة، والبعض الآخر يختار تلك، وهكذا. فلا نظن أنهم حين انغمسوا فى ممارسة الفاحشة قسموا أنفسهم إلى قسمين، أحدهما يضم الفاعلين، والثانى يضم المفعول بهم، فمثل هذا التصرف يتصور حدوثه فى أمور أخرى كثيرة، ولكن ليس فى المثلية الجنسية التى يتأثر فيها الاختيار بعوامل كثيرة حسية وعاطفية وجسمانية ونفسية، حتى وإن كانت فاسدة فإنها موجودة تمارس دورها[1].

والملاحظ أن كثيرا من الناس ـ ومنهم علماء وفقهاء ومفسرون ـ إذا جرى الحديث عن المثلية الجنسية، أو اللواط انصرف تفكيرهم وانحصر اهتمامهم فى الفاعلين دون المفعول بهم، أو جعلوه شاملا للاثنين معا غير ملتفتين إلى ما يوجد بينهما من فروق وما يقوم من اختلافات لا تنحصر فى دور كل منهما فى الجريمة فقط، بل تشمل البناء النفسى، والتكوين العضوى، والجهاز العصبى، والوظائف العقلية لكل منهما. ولعل ذلك يبدو واضحا فى كتب التفسير؛ حيث غلب على ظن الغالبية العظمى من المفسرين أن البعض من أهل سدوم الذين حاصروا مسكن لوط لما علموا بوجود ضيوف لديه ـ وهما الملكان اللذان جاءا ليدمرا سدوم وينقذا لوطا وأهله منها ـ كانوا من الشواذ الإيجابيين، وأنهم أرادوا أن

(1) George W. Henry, M.D. SEX VARIANTS, A Study of Homosexual

يترك لهم لوط الملكين ليأتوهما. ولم يقل لنا المفسرون لماذا اختاروا هذا ولم يختاروا العكس، أى أن يكونوا من الشواذ السلبيين؟! ولو أنهم فعلوا لجنبوا أنفسهم الكثير من الجهد الذى اقتضاه تفسيرهم للعرض الذى قدمه لوط لأهل سدوم بأن يترك لهم بناته ليفعلوا بهن ما يريدون، وهو ما أخذه بعض المغرضين على لوط ناعين عليه تخليه عن بناته بهذه الصورة التى تدين أى أب، فما بالنا بنبى!. وتساءلوا فى تعجب ـ وهم يتظاهرون بالإشفاق على بنات لوط ـ: كيف لنبى أن يترك بناته لعدد لا حصر له من الرجال ليأتوهن؟! وألا يعد زنا بل وبغاء مما يحرمه الدين؟! وسنعود إلى هاتين المسألتين بعد أن نتناول بالبحث العوامل الشخصية أو الداخلية ودورها فى تحديد اتجاه الشواذ نحو هذه الصورة أو نحو تلك من صور الشذوذ.

العوامل الشخصية:

وهذه العوامل منها ما هو بيولوجى(*) ومنها ما هو نفسى (سيكولوجى) ومنها أخيرا ما هو فسيولوجى (خاص بوظائف الأعضاء) وسنتناولها بإيجاز فيما يلى:

بالنسبة للعامل الأول فإنه لوحظ أن الشذوذ الجنسى يكون مصحوبا أحيانا باضطرابات فى إفراز الغدد يرجع إلى أسباب خلقية، مما يجعل الشخص يتصرف على هذا النحو دون أن يملك إرادته، كما لو كان يخضع لقوة قاهرة. ومع ذلك فإن هذا الشخص إذا تلقى علاجا فى مرحلة مبكرة يمكنه أن يتخلص من ميله الشاذ.

وبالنسبة للعامل الثانى ـ وهو العامل النفسى ـ فإنه يكاد أن يكون أكثر العوامل الشخصية انتشارا، وهو ينشأ عادة عن أسباب اجتماعية، مثال ذلك الارتباط الشديد بين الابن والأم، وكذلك الشخصية العدوانية للأم وميلها الشديد إلى السيطرة على الابن، مما يجعله يتعثر فى الانتقال من مرحلة الطفولة إلى مرحلة المراهقة. كما تلعب شخصية الأب دورا فى انحراف الأبناء، كأن يكون قاسيا أو

(*) علم الأحياء. علم الحياة أو الكائنات الحية فى جميع أشكالها وظواهرها. (قاموس المورد)

شديد الضعف أمام الأم. كذلك فإن خوض الابن تجارب جنسية خاطئة، ووجود تعليم أو أفكار جنسية غير سليمة يعدان من العوامل الهامة التى تلعب دورا فى انحرافه[1].

أما العامل الثالث وهو الخاص بوظائف الأعضاء فإن دوره فى شذوذ الشخص جنسيا يظهر في حالة ما إذا أصاب الأعضاء خلل ما أثر فى وظائفها.

وهكذا ، فإن تفاعل أحد هذه العوامل مع غيره من العوامل الاجتماعية والاقتصادية ينتج عنه نوع الشذوذ الذى يمارسه الشخص، كأن يكون سلبيا فى العلاقة الجنسية، أى يلعب دور الأنثى. أو يختار أن يكون إيجابيا، أى فاعلا، ولكن مع مفعول به ذكر، أو أن يقوم بالدورين: الفاعل والمفعول به!.

غير أنه بالنسبة للشواذ الإيجابيين فإن الغالبية العظمى منهم يرجع شذوذهم إلى التوجيه الخاطىء لنشاطهم الجنسى فى مرحلة المراهقة. فهم عندما يصلون لمرحلة البلوغ ويشعرون بضغط الحاجة إلى الجنس يلتمسون سبلا للإشباع، من بينها إتيان الصبية الصغار، فإذا تكرر ذلك منهم حدث لديهم تثبيت على هذا النوع من العلاقة إلى الدرجة التى قد يصرفهم فيها عن العلاقة الجنسية السوية مع الإناث عندما يصبحون مؤهلين للزواج. ومع ذلك فإنهم يتزوجون تحت ضغط القيم السائدة فى المجتمع، والتى تعارض بقاء الرجال بدون زواج طالما أنهم أصبحوا قادرين عليه.

كذلك هناك نوع من الشواذ الإيجابيين يقدمون على إتيان الصبية الصغار بدافع من الرغبة فى الانتقام لأنفسهم، حيث كان قد سبق لهم أن وقعوا ضحية لآخرين، فهم يرغبون فى أن يعانى هؤلاء مثلما عانوا هم. غير أنه يحدث لديهم تثبيت على هذا النوع من الإشباع، وربما يجمعون بينه وبين القيام بدور الطرف السلبى فى العلاقة، فيمارسون كلا النوعين من الشذوذ.

ولقد تبين من الدراسات التى أجريت على السجون ـ وهى أكثر الأماكن التى

(1) Walter C. Reckless, The Crime Problem, P. 228

يوجد بها شواذ، وأشدها ملاءمة للقيام بملاحظة سلوكهم - أن النوع السلبى منهم يتميز عن النوع الإيجابى بمميزات واضحة، مثل انعدام الحياء، والجرأة فيما يصدر عنهم من تصرفات يهدفون منها إلى إظهار شذوذهم والإعلان عن انحرافهم وفجورهم الشديد إلى حد أنهم لا يتورعون عن إظهار الإعجاب بالرجال، حتى ولو كانوا زوارا من خارج السجن، وإلحاحهم عليهم بطريقة منفرة قد تتحرج منها أكثر النساء الساقطات فجورا.

كما لوحظ أنهم يتسببون فى إشاعة جو من التوتر الذى يبعث على قلق المسئولين عن السجن بما يصدر عنهم من تصرفات تهدف إلى غواية المسجونين الشباب، بالإضافة إلى ما يتعمدونه من إثارة مشاعر الغيرة لدى المسجونين ممن لهم علاقة بهم مما يؤدى إلى نشوب معارك عنيفة بين المتنافسين على الشواذ غالبا ما تسفر عن جرحى وقتلى ليس من بينهم أحد من الشواذ؛ لأنهم أول من يهرب من ساحة المعركة!

وبالنسبة للشاذ السلبى فإنه قد يذهب فى شذوذه إلى حد محاكاة الإناث فى سلوكهن وتصرفاتهن، فيرتدى الثياب الداخلية لهن، ويتزين مثلما يتزين، وقد يحاكى طريقة مشيهن وإيماءاتهن ونظراتهن، وهو ما تفعله الإناث الشاذات اللاتى يقمن بدور الذكر مع إناث أخريات، فإنهن يحاكين الرجال فيما يستعملون من ملابس وأحذية، وفى طريقة قصهم لشعرهم، وأسلوبهم فى الكلام، وطريقتهم فى المشى وفى الجلوس وغير ذلك. وذلك على خلاف الشاذ الإيجابى فإنه لايفعل ما يكشف عن شذوذه، بل والأغرب من هذا أن من كانوا فى السجن منهم ينكرون تماما قيامهم بهذا العمل، إذا ما اتهمهم زملاؤهم به، فإذا حوصروا بالأدلة طاطأوا رءوسهم خجلا، وابتعدوا عن الآخرين، وهم لا يرفعون نظراتهم عن الأرض. أما الشاذ السلبى فإنه على العكس لا ينكر أنه كان طرفا فى علاقة جنسية شاذة مع سجين آخر، فإذا أنكر السجين واجهه فى إصرار غريب يلح عليه لكى يعترف، والأكثر من هذا أنه لا يتورع عن وصف ما حدث لزملائه المسجونين وهو يضحك فى سعادة، وكأنه فعل شيئا يدعو للفخر.

ولا يختلف الشاذ السلبى خارج السجن عن نظيره داخل السجن إلا من حيث تحفظه فى تصرفاته بين من يتعامل معهم من أقارب ومعارف وزملاء فى العمل، أو أصدقاء لا يعلمون شيئا عن شذوذه. أما بين من هم على شاكلته فإنه سرعان ما يتخلص من قناع البراءة والشرف والسواء الذى يضعه على وجهه، وينطلق فى عبثه وفجوره بلا حياء أو خجل، وكذلك الشاذ الإيجابى الذى اعتاد أن يجد متعته فى هذا النشاط الشاذ. غير أن الأمر يختلف إذا ما انتابت الرغبة الشاذة كلا الشخصين، ولم تكن أمامه فرصة لإشباعها بطريقة سهلة. فقد تبين من البحوث التى تناولت جرائم القتل التى راح ضحيتها الشواذ أنهم جميعا كانوا من السلبيين ولم يوجد من بينهم شاذ إيجابى واحد، والسبب فى ذلك أن الشاذ الإيجابى إذا ضاقت به السبل لإقامة علاقة مع شاذ سلبى فلا تزال أمامه الفرصة لإقامتها مع إحدى النساء ولو كانت بَغِياً. فى حين أن الشاذ السلبى لا يستطيع ذلك، فلا غناء له عن الذكور، ومن ثم ينطلق ـ تحت تأثير الرغبة الشاذة المتسلطة عليه ـ يبحث عمن يقبل أن يكون شريكا له فى العلاقة الشاذة إلى أن يتوسم فى شاب ما الاستعداد للقيام بذلك فيتودد إليه، وكثيرا ما يكون الشاب الذى وقع عليه اختياره خالى الذهن تماما عما يرمى إليه الشاذ، عديم التجارب، خجولا، فضلا عن أنه قد يكون ممن يعانون من مشكلات اقتصادية، كالبطالة، أو اجتماعية كالتفكك الأسرى، أو غيرها، وما يقترن بهذه أو بتلك من مشاعر الإحباط أو الاكتئاب فيستدرجه الشاذ إلى حيث يقيم أو إلى حيث اعتاد أن يمارس نشاطه الشاذ، وهو يرحب به ويتودد إليه، وقد يقدم له طعاما فاخرا وشرابا مسكرا أو نوعا من المخدرات كوسيلة لترويضه وإضعاف مقاومته. ولكنه ما أن يبدأ فى الكشف عن قصده ومراودة الفتى عن نفسه حتى يفاجأ به يرفض ما يطلبه منه، ولكن الشاذ لا يقتنع بهذا الرفض، ولا بما يبديه له الفتى من أسباب، وغالبا ما ترجع إلى الدين، فيستمر فى إلحاحه عليه والتوسل إليه بطريقة تضاعف من نفور الفتى منه وتجعله يزداد إصرارا على الرفض، ويحاول أن يترك المكان، وعندئذ يتشبث به الشاذ بطريقة تثير الخوف فى نفس الشاب، فيمعن فى مقاومته والشاذ

يتضرع ويعد ويمنى وهو يرتعش من فرط الانفعال الشهوانى، مما يجعل خوف الفتى يصل إلى ذروته فيدفعه عنه فى توتر شديد، والشاذ يأبى أن يتركه. ويجتمع الخوف مع الاشمئزاز مع الاحتقار الشديد فى نفس الشاب فلا يجد مناصا للتخلص من الخطر المحدق به غير أن يتناول أى شىء يصلح لأن يضرب به الشاذ ليتخلص منه، كتمثال معدنى أو إناء زجاجى من النوع الذى توضع فيه الزهور، أو سكين مما يستخدم فى فتح الخطابات أو سلاح حقيقى مما يوجد فى البيوت عادة كسكين أو ساطور أو غير ذلك فيضربه به فى غضب شديد حتى يسقط مضرجا فى دمائه لا يقوى على الحركة، وعندئذ فقط يفيق الفتى إلى نفسه، ويدرك فداحة ما فعله، فيبادر إلى إزالة كل أثر له من المكان، ثم يولى هاربا دون أن يراه أحد. وهكذا يتعذر على الشرطة أن تتعرف عليه أو تكتشف شخصيته، وتقيد الجريمة ضد مجهول!

والغريب فى أمر هؤلاء الشواذ أنهم يعلمون بما حدث لزملائهم، سواء من الشرطة التى تتصل بهم لتتعرف منهم على علاقات المجنى عليهم لعلها تصل إلى الجناة، أو من الصحف التى تنشر أخبار هذه الجرائم، ومع ذلك لا يفكرون فى التوقف عن ممارسة نشاطهم الشاذ درءا للخطر المتربص بهم، وإنما يستمرون فيه على أمل أن يكون حظهم أفضل من حظ زملائهم، ولكن الموت لا يلبث أن يدهمهم على يدى شاب برىء أرادوا أن يسخروه لإشباع شهوتهم الشاذة فيفارقون الحياة غير مأسوف عليهم، بل تشيعهم اللعنات، وبخاصة من أبنائهم وأقاربهم وكل من يعرفهم.

الرد على من اتهموا لوطا عليه السلام

فى ضوء ما تقدم نجد لزاما علينا أن نضع الأمور فى نصابها بالنسبة لما حدث من قوم لوط لما علموا بوجود ضيوف لديه استقبلهم فى بيته، دون أن يعلموا أنهما ملكان جاءا ليخرجاه من مدينتهم قبل أن يدمراها على رءوسهم، فقد فسر كل المفسرين تقريبا سلوك قوم لوط على أنهم أرادوا أن يخلى بينهم وبين ضيفيه

حتى يتمكنوا من إتيانهما كما يأتون الذكور منهم، فما كان منه إلا أن عرض عليهم بناته ليأتوهن بدلا من ضيفيه، غير أنهم رفضوا ذلك مصرين على أن يترك لهم ضيفيه، فأبى، وكان ما كان. ونرجع إلى القرآن الكريم فلا نجد آياته تدل على هذا المعنى، فقد قال لوط لقومه: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾[1].

فلوط ـ عليه السلام ـ يعرض عليهم بناته قائلا هن أطهر لكم، على اعتبار ما فى إتيان الذكور من قذارة ونجاسة؛ لأنهم لم يخلقوا لهذا الغرض، بخلاف النساء، ولاعتقاده أنهم ـ أو على الأقل الجماعة التى تزعمت القوم وتقدمتهم ـ هم من الشواذ الإيجابيين الذين يمكنهم أن يأتوا النساء كما يأتون الرجال، ولكنهم قالوا له: لقد علمت مالنا فى بناتك من حق. وهكذا أعلموه أنهم لا يملكون القدرة على إتيان بناته، ثم أضافوا قولهم: وإنك لتعلم ما نريد. فكأنهم افترضوا أنه يعلم أنهم إنما يريدون الضيفان ليأتوهم هم، لاليأتوا هم الضيفان، أى أنهم يريدون الضيفان شركاء إيجابيين فى الفاحشة. وقولهم للوط: وإنك لتعلم ما نريد. يعنى: إما العلم الحقيقى، كأن يكون قد عرف عنهم أنهم شواذ سلبيون، وإما يعنى العلم المفترض، كأن يكون مظهرهم دالا على ذلك كما لو كانوا يتصرفون كالإناث، سواء فى كلامهم أو فى حركاتهم، أو أنهم كانوا يرتدون ثيابا من نوع ما ترتديه النساء ويتزينون مثلهن. وسواء أكان علم لوط بهم حقيقيا أم مفترضا فإن ذلك يكشف عن أمر هام، وهو أنه لما عرض عليهم بناته كان يعلم أنهم لن يقبلوا عرضه هذا، لعجزهم عن إتيانهن. وإذا عدنا إلى آيات القرآن الكريم فى السور التى تناولت قصة لوط سنجد أنه كان يعيب عليهم باستمرار إتيانهم الرجال دون النساء، فكأنه بعرضه بناته عليهم بدلا من ضيفيه إنما أراد أن يقيم عليهم الحجة أمام ضيفيه، وهو لا يعلم أنهما ملكان جاءا ليدمرا البلدة على رءوس سكانها. ولعل ذلك يكون ردا مقنعا على ما اتهم به الشيوعيون والملحدون لوطا بالدياثة، أى بعدم الغيرة على أهله؛ لأنه رضى أن يضحى بشرف بناته بسهولة حماية لضيفيه. وهو اتهام باطل إن دل على شىء فإنما يدل على سطحيتهم وضحالة تفكيرهم وسوء نيتهم.

(١) هود: ٧٨، ٧٩

وفيما يتعلق بالسبب فى ابتلاء قوم لوط بهذه الفاحشة: نجد كتب التفسير - وبالذات القديم منها - تسوق أسبابا غير معقولة هى أقرب إلى الأساطير والإسرائيليات منها إلى العقل والمنطق، من ذلك أن إبليس تَزَيًّا لهم فى صورة أجمل صبى رآه الناس، فدعاهم إلى نفسه، ثم جروا على ذلك. ويقول رشيد رضا فى ذلك: إنه أثر لا يثبت به شىء[1]. وهناك رواية أخرى تقول إنه كانت لهم ثمار بعضها على ظهر الطريق، وأنه أصابهم قحط وقلة ثمار، فتواطأوا على منع ثمارهم الظاهرة أن يصيب منها أبناء السبيل، بأن يعاقبوا كل غريب يأخذونه فى ديارهم بإتيانه، أى ممارسة اللواط معه، وتغريمه أربعة دراهم، قالوا: فإن الناس لا يظهرون ببلادكم إذا فعلتم ذلك، ففعلوه فألفوه. وهذا حل غريب للمشكلة ولا شك، فلماذا اللواط دون غيره وقد كان بوسعهم أن يمنعوا الناس من الاستيلاء على ثمارهم بوسائل أخرى غير الفاحشة، بل إنهم فرضوا عليهم غرامة بالفعل، فما الداعى لإتيانهم لهم؟! اللهم إلا أن يكونوا تعللوا بحماية الثمار لكى يمارسوا الفاحشة، وهو الراجح. وقد يكون ذلك حدث بعد أن مارسوا الفاحشة فعلا.

ويعد رشيد رضا من المفسرين القلائل الذين تنبهوا إلى الأسباب الحقيقية لظهور الفاحشة، أو على الأقل بعضها، من ذلك قوله: هذه الفاحشة من سيئات ترف الحضارة، وهى تكثر فى المسرفين فى الترف، ولا سيما حيث يتعسر الاستمتاع بالنساء، كثكنات الجند، والمدارس الداخلية بخاصة، وغير الداخلية بعامة، حيث تضعف المراقبة الدينية الأدبية فيها على التلاميذ. ويضيف قائلا: «ومن أسباب ابتلاء بعض فساق المسلمين بها فى عنفوان حضارتهم احتجاب النساء وعفتهن، مع ضعف التربية الدينية، وكثرة المماليك من أبناء الأعاجم الحسان الصور، والاتجار بهم»[2].

ويعدد الآثار السيئة التى تنجم عن هذه الفاحشة قائلا إنها:

١ - جناية على الفطرة البشرية.

---

(١) المرجع السابق، ج ٨ ص ٤٦٣

(٢) المرجع السابق، ص ٤٦٤

٢ ـ مفسدة للشبان بالإسراف فى الشهوة لأنها تنال بسهولة.

٣ ـ مذلة للرجال بما تحدثه فيهم من داء الأبنة.

٤ ـ مفسدة للنساء اللواتى تصرف أزواجهن عنهن، حتى يقصروا فيما يجب عليهم من إحصانهن.

٥ ـ قلة النسل بفشوها؛ فإن من لوازمها الرغبة عن الزواج، والرغبة فى إتيان الأزواج فى غير مأتى الحرث. وقد وردت أحاديث كثيرة فى حظر إتيان النساء فى غير سبيل النسل ولعن فاعل ذلك، وهو من عمل قوم لوط، وسماه البعض اللوطية الصغرى.

وعلى الرغم من ذلك ومما أنزله الله تعالى بقوم لوط وبمدينتهم سدوم فإن المأساة بحذافيرها تتكرر ولنفس الأسباب وبتأثير ذات العوامل، مما يدل على أن الناس سرعان ما ينسون ما لحق بمن سلك هذا السبيل، وخطا فى هذا الطريق. ويحفظ لنا التاريخ قصة مماثلة لقصة سدوم هى قصة مدينة بومبيى، وهى مدينة قديمة بجنوبى إيطاليا بالقرب من نابولى، عند سفح جبل فيزوف، استولى عليها الرومان فى عهد الإمبراطور (صلا) فى القرن الأول قبل الميلاد. وقد كانت ثغرا مزدهرا، وسوقا عامرا، مما عاد على السكان بالخير الوفير، وحصل كثير منهم على ثروات كبيرة، فأنشأوا القصور الفاخرة، وأثثوها بأحسن الأثاث وأغلاه، وتفننوا فى الاستمتاع بحياتهم، فارتدوا أفخر الثياب وأرقها وأغلاها، وأسرفوا فى الطعام والشراب واللهو غير البرىء، حتى كانت صيحاتهم وهم سكارى تصم آذان بحارة السفن الراسية فى الميناء، وتصل إلى أسماع ركاب السفن قبل أن ترسو فيها. وكما هى العادة، فبعد أن ملوا النساء تحولوا إلى الفتيان، وانتشرت الفاحشة فيهم حتى أصبحت طبيعة ثانية، وتكرر ما حدث فى سدوم. وفى سنة ٦٣ ميلادية جاء سُكَّانَهَا النذيرُ متمثلا فى زلزال قوى أصابها بخسائر كبيرة، لعلهم يرجعون عما هم فيه، ولكن الذى حدث أنهم استهانوا بالإنذار رغم قوته وقسوته، وشرعوا فى إعادة بناء ما تهدم من قصورهم وملاعبهم ومنتدياتهم وحماماتهم، وهم يصلون ما كان قد انقطع من لهوهم وفسقهم وإجرامهم. فما

هى إلا ستة عشر عاما مضت على الزلزال حتى حدث ما قضى عليهم نهائيا، وجعلهم ـ مثل أهل سدوم ـ مجرد ذكرى سيئة للجحود البشرى لفضل الخالق العظيم. فذات يوم، وفى الصباح المبكر ﴿ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾[1].

وبينما هم يغطون فى نوم عميق، بعد أن أنهكتهم الفاحشة التى أسرفوا فى ممارستها، وأرهقهم الرقص والشراب، وأتخمهم الطعام داهمتهم الحمم التى اندفعت من فوهة بركان فيزوف، فشوت جلودهم، وصهرت عظامهم، ودمرت ممتلكاتهم، ثم غطت المدينة الفاسقة كلها حتى لم يعد يظهر منها شىء، وكأنها لم توجد أبدا، وظلت كذلك إلى سنة ١٧٤٨ ميلادية [2] عندما أجريت حفريات فى المكان الذى قيل إنها كانت توجد به فتم الكشف عن أجزاء منها، ثم توالى الحفر إلى أن كشف عنها كلها وظهر ما كان عليه سكانها من ثراء وترف ومجون، حيث زينوا جدران قصورهم بلوحات رائعة تشهد على فجورهم وشذوذهم، وتقوم شاهدا على أن الله تعالى قد نفذ فيهم حكمه العدل.

لقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يخلف المجرمون وراءهم أثرين هامين، الأول عند البحر الميت فى فلسطين، متمثلا فى مدينة سدوم، والثانى بالقرب من نابولى، فى إيطاليا متمثلا فى بومبيى، لعل الناس أن يعتبزوا بما جرى لسكانهما فيبتعدون عن الفاحشة، وعن كل ما يقربهم منها، حتى لا يلقوا نفس المصير. ولكن هل اعتبروا واتعظوا؟! طبعا لا. والدليل على ذلك هو ما نراه الآن من وجود لا سدوم أو بومبيى واحدة، بل مئات المدن فى شتى أنحاء العالم يمارس سكانها الفاحشة وييسرون ممارستها لزوارهم، ويدعون ـ وبإلحاح ـ إلى الاعتراف للشواذ بحقهم فى ممارسة الشذوذ، ويستنكرون أى إجراء يتخذ ضدهم[3]. وكأن الناس نسوا ما حدث لسكان سدوم ثم لسكان بومبيى، أو كأنهم فقدوا عقولهم فلم يعودوا قادرين على التفكير السليم، أم تراهم يقولون كما قال أهل سدوم للوط ـ عليه السلام ـ: ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[4].

---

(١) سورة هود، من الآية: ٨١

(٢) الموسوعة العربية الميسرة: مادة بومبيى

(3) John A. Loraine, Sex and the Population Crisis, P.

(٤) العنكبوت: ٢٩

المراجع

أولا - المراجع العربية

أ ـ الكتب:

١ ـ ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) كتاب الشعب، دار الشعب، القاهرة بدون تاريخ.

٢ ـ ابن منظور (لسان العرب) دار المعارف، القاهرة.

٣ ـ ابن الخطيب (يوسف الصديق) المطبعة المصرية ومكتبتها، الطبعة الأولى، القاهرة ـ ١٩٧٧م

٤ ـ ابن القيم الجوزية (الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية) المؤسسة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١م.

٥ ـ البخارى: محمد بن إسماعيل (صحيح البخارى) كتاب الشعب، دار الشعب، القاهرة، بدون تاريخ

٦ ـ الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (كتاب الحيوان) دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م.

٧ ـ حتى: فيليب (تاريخ سورية ولبنان وفلسطين) الجزء الأول «تاريخ سوريا» ترجمة جورج حداد، وعبد المنعم رافق، دار الثقافة ـ بيروت ١٩٥٨م.

٨ ـ حسن: سليم (الأدب المصرى القديم، أو أدب الفراعنة) مطبوعات كتاب

اليوم، مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة، العدد الثانى، ديسمبر ١٩٩٠م

٩ ـ الحموى: ياقوت (معجم البلدان) دار إحياء التراث العربى، ١٩٧٩م.

١٠ ـ دروزة: محمد عزة (تاريخ موجات الجنس العربى فى وادى النيل: مصر والسودان) المكتبة العصرية، بيروت.

١١ ـ تاريخ موجات الجنس العربى ودولها ومآثرها فى بلاد الشام (سوريا ولبنان والأردن وفلسطين) قبل العروبة الصريحة، منشورات المكتبة العصرية، بيروت ـ صيدا بدون تاريخ

١٢ ـ تاريخ موجات الجنس العربى ودولها ومآثرها فى العراق قبل العروبة الصريحة، منشورات المكتبة العصرية، بيروت ـ صيدا، بدون تاريخ.

١٣ ـ الدينورى: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (عيون الأخبار) سلسلة التراث للجميع. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣م.

١٤ ـ رضا: محمد رشيد رضا (تفسير المنار) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣م.

١٥ ـ الزمخشرى (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل) دار الفكر، القاهرة ١٩٧٩م.

١٦ ـ سالم: أحمد موسى (قصص القرآن فى مواجهة أدب الرواية والمسرح) دار الجيل، بيروت، ١٩٧٨م.

١٧ ـ الطبرى: محمد بن جرير (جامع البيان فى تفسير القرآن) الطبعة الرابعة، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م.

١٨ ـ عطية الله: أحمد (القاموس الإسلامى) مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣م.

١٩ ـ الغزالى: أبو حامد محمد بن محمد (إحياء علوم الدين) دار إحياء الكتب العربية، البابى الحلبى، القاهرة ١٩٥٧م.

٢٠ ـ القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) الطبعة الثالثة، دار الكاتب العربى ـ القاهرة ١٩٦٧م.

٢١ ـ قطب: سيد (فى ظلال القرآن) دار الشروق، القاهرة ١٩٧٤م.

٢٢ ـ المسعودى: أبو الحسن على بن الحسين (مروج الذهب ومعادن الجوهر) الطبعة الرابعة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤م.

٢٣ ـ المجدوب: أحمد على (العادات الجنسية لدى المجتمعات الغربية) الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩١م.

٢٤ ـ ظاهرة اغتصاب الإناث فى المجتمعات القديمة والمعاصرة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٣م.

٢٥ ـ الوهم والحقيقة فى الفكر المصرى الحديث، الزهراء للإعلام العربى، القاهرة.

٢٦ ـ المقريزى: تقى الدين أبو العباس أحمد بن على (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) بدون تاريخ.

٢٧ ـ النجار: عبد الوهاب (قصص الأنبياء)، الطبعة الثانية، العالمية للتوزيع، القاهرة بدون تاريخ.

٢٨ ـ ول. ديورانت (قصة الحضارة) الجزء الأول من المجلد الأول، الطبعة الرابعة، الناشر جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٧٣م.

ب ـ دوائر معارف وموسوعات وقواميس:

١ ـ دائرة المعارف الإسلامية.

٢ ـ الموسوعة الإسلامية الميسرة.

٣ ـ الموسوعة العربية الميسرة.

٤ ـ قاموس المنهل.

٥ ـ قاموس المورد.

ثانيا - المراجع الأجنبية

Ann Wolbert Burgess, A Nicholas Groth & others, Sexual Assault of Children and Adolescents, Lexington Books. D.C Health and Company. Lexington, Massachusetts Toronto, 1978

- Barnes & Teeters, New Horizons in Criminology, Third Edition, Prilntice hall of India Private ltd new Delhi, 1966

Edwin H. Sutherland & Donald R. Cressey. PmcipLes of Criminology. Sixth Edhition, The Times of India Press, Bombay 1968.

James D. Pages, Psychopathology, The Sience of Understanding Deviance, Second Edition, Aladine Publishing Company, Chicago, 1975

John A. Loraine, Sex and the Population Crisis, William Hainemann Medical Books ltd 1970

Kinsey, A., Pomeroy, W., & Martin, C Sexual behavior in the human male. philadelphia. W. b. saunders (1948)

Ronald M. Holmes, Sex Crimes. Sage Publications, The lnternatlonal Professlonal Publlshers Newbury Park London New Delhi, 1991

sara delamont. sex roles and the school, methuen, new york 1980

walter V. Reckless. The Crime problem. Vakils feffer and Simons private LTD. Bombay, 1971

الفهرس

المعالجة القرآنية للجريمة

القرآن الكريم كتاب الله العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ تنزيل من حكيم حميد ، ولقد قال الله ـ تعالى ـ :

﴿ مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ ﴾ .

ولما كان تناول الجريمة من جانب القرآن الكريم إنما يأتى عرضا فى ثنايا القصص القرآنى فإن هذه المعالجة لا تتناول الجريمة من دوافع وأسباب ونتائج تفصيلا ، لأن المقصود منها العبرة والعظة .

والكتاب الذى نقدمه اليوم لقارئنا الكريم إنما يتناول بالتحليل أربع جرائم عالجها القرآن الكريم ، قدمها المؤلف الدكتور على أحمد المجدوب فى عرض رائع مفصل مع إجراء المقابلات والموازنات التى تمتاز بالبحث المستقصى .

والدار المصرية اللبنانية إذ تقدم هذا الكتاب للقارىء الكريم ترجو أن ينفع الله به ، وأن يؤتى الثمرة المرجوة منه . . إن الله هو نعم المولى ونعم النصير .

الناشر

22



١٦ عبد الخالق ثروت ـ تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥
٣٩٣٦٧٤٣ ـ فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ ص . ب ٢٠٢٢
برقيا دار شادو ـ القاهرة .

تصميم الغلاف : محمد طنطاوى